ابن النبيه المصري شاعراً

الدكتور
عبد الهادي عبد النبي علي أبو علي
أستاذ الأدب والنقد
ووكيل كلية اللغة العربية بالمنصورة
جامعة الأزهر

الطبعة الثانية
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

بسم الله الرحمن الرحيم

«المقدمة»

"الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وأعظم النبيين، سيدنا محمد وعلى آله وخلفائه الراشدين وصحابته أجمعين والتابعين وكل من آمن به واتبع هداه إلى يوم الدين .

وبعـــد

فهذا بحث موضوعه : "ابن النبيه المصرى شاعراً" وهو بحث يتناول شعر الشاعر بالدراسة والنقد والتحليل مع تعريف بالشاعر ووقوف على حياته ونشأته وثقافته، وقد شجعنى على البحث فى هذا الموضوع عوامل متعددة أهمها : أننى لم أجد دراسة مستقلة وافية فى هذا الموضوع، بل إن الفترة الزمنية التى عاش فيها الشاعر لم تنل حقها المطلوب من الدراسة الأدبية الوافية، فكم من الشعراء فى العصر الأيوبى لم يعرف عنهم شيء وطوى نتاجهم مع أجسادهم فى قبورهم ولم يتجه الباحثون إلى التنقيب والبحث عن هؤلاء الشعراء ونتاجهم الشعرى الذى غمره التاريخ وحجبته الحوادث وانحدر عليه التراب مع أن بعض المصادر التاريخية تورد لنا كثيراً من أسماء هؤلاء الشعراء وبعضاً من أشعارهم ومن هؤلاء: شاعرنا : ابن النبيه المصرى .

فقد ظل ابن النبيه المصرى فى عالم النسيان فلم يعرف شيء عن جوانب : حياته ونشأته وثقافته وشعره وظلت أشعاره أو معظمها مجهولة حتى جاء الدكتور / عمر محمد الأسعد فجمعها فى ديوان ضخم، وماكتب عن ابن النبيه المصرى قليل جداً سواء ماكتب عن حياته أو عن شعره فكثير من الباحثين الذين درسوا الأدب الأيوبى أشاروا إشارات عابرة إليه ويكادون يجمعون أن

حياته وميلاده ونشأته وثقافته مجهولة ويشيرون إلى بعض أشعاره ويزعمون أن له ديواناً صغيراً مع أن الشاعر شاعر عملاق وله ديوان ضخم يضم بين طياته فنون الشعر العربى المختلفة، فكل ماكتب عنه لايشفى الغلة ولايكفى المتعمق الدارس .

من هنا كان الاتجاه نحو دراسة شعر الشاعر والتعريف به وكشف الجوانب الغامضة من حياته وثقافته من خلال شعره بجانب الاستعانة بما كتب عنه فى بعض المصادر .

وقد سرت فى بحثى هذا على خطة واضحة تكمل بعضها البعض حيث صدرته بالحديث عن عصر الشاعر وظواهره السياسية والاجتماعية والثقافية ثم تحدثت عن الشاعر : نشأته وحياته وثقافته ومكانته ثم تكلمت عن شعره مفصلاً القول فى ذلك مظهراً أبرز الأغراض فى شعره متعرضاً لها بالشرح والنقد والتحليل موضحاً مظاهر القديم والجديد فيها ثم تحدثت بعد ذلك عن الخصائص الفنية لشعر الشاعر مبرزاً السمات القديمة والجديدة فى كل عنصر منها مستدلاً بالنماذج والأمثلة الشعرية التى توضح ذلك.

وإنى أرجو العون من الله تعالى حتى أستطيع إيضاح ماخفى أو بعضه وحتى أستطيع أن أقدم شيئاً ولو يسيراً - يضاف إلى ماعرف عن الشاعر وشعره وأقدم شيئاً للأدب العربى والدراسات الأدبية . **وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .**

دكتور

عبد الهادى عبد النبى على

مكة المكرمة فى ٥ رجب ١٤١١ هـ

٢٠ يناير ١٩٩١ م

الباب الأول

«عصر الشاعر وحياته»

الفصل الأول

«عصر الشاعر»

الحالة السياسية :

ضعفت الخلافة الفاطمية فى أواخر أيامها منذ أواخر خلافة الخليفة "المستنصر بالله" الفاطمى (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) حيث قوى نفوذ الوزراء الذين انتزعوا السلطة من الخلفاء وأصبح الخليفة الفاطمى لاحول له ولاقوة وليس له فى الأمر من شىء إلا الشكل الخارجى لنظام الدولة .

ونتيجة ضعف الخليفة الفاطمى كثرت المؤامرات ودبرت المكايد وزهقت أرواح الكثيرين خاصة من بين الوزراء وكبار رجال الدولة . ولم يكف الخلافة والدولة الفاطمية ماهى عليه من ضعف وتناحر ومكايد ومؤامرات بل زاد الطين بله ماقام به الصليبيون من غزو صليبى لبلاد الشرق الإسلامى وتمزيقه وتكوين بعض الإمارات المستقلة لهم خاصة فى "بيت المقدس" و "أنطاكية" على جثث الآلاف من المسلمين وقتلهم والتمثيل بجثثهم وقتل أطفالهم وشيوخهم وبقر بطون الحوامل من نسائهم، بل إن الصليبين لم يراعوا أدنى حرمة لدين أو شفقة من وازع أو ضمير فدخلوا المساجد بخيولهم وقتلوا الكثير من المصلين دون رحمة، "وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى مايزيد على سبعين ألفاً. منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف وورد المستنفرون من الشام فى رمضان إلى بغداد صحبة القاضى أبى سعد الهروى فأوردوا فى الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا وذكروا مادهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال وسلب الحريم والأولاد ونهب الأموال"[1] .

---

(١) ص١٩٣ جـ١٠ الكامل لابن الأثير .

ولم تستطع الدولة الفاطمية - على ماهى عليه من ضعف - أن تقف أمام الغزو الصليبى أو صد جحافل الكفر وجيوش الصليبين فاستنجدت بالخلافة العباسية طالبة العون والمساعدة إلا أن الخلافة العباسية "أبت أن تمدّ يدها للخلافة الفاطمية فى اتخاذ موقف موحد ضد الصليبين"(١) وذلك بسبب الخلاف المذهبى والصراع السياسى فيما بينهم على حكم المسلمين وخلافتهم .

وبقدر ماشلته الحروب الصليبية - التى بدأت فى أواخر القرن الخامس الهجرى - من شر مستطير ووباء خطير شمل جميع مناحى الحياة فى بلاد الشرق الإسلامى بقدر ماكانت خيراً عظيماً ونفعاً عميقاً لهم حيث استطاع البطل المسلم "صلاح الدين الأيوبى" القضاء على الفتن والدسائس - حيث كان وزير الخليفة "العاضد الفاطمى" آخر الخلفاء الفاطميين - وأن يعلن الولاء للخلافة العباسية فى أول شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ وهى السنة التى مات فيها الخليفة "العاضد"، واستطاع أن يضم الشام والجزيرة العربية إلى مصر ويوحد الوطن العربى تحت قيادته وعمل جاهداً على نبذ القومية العربية وإحلال القومية الإسلامية محلها ووحد المسلمين جميعاً وجعلهم جبهة واحدة فى مجابهة الصليبيين مما أوقع الخوف والرعب فى قلوبهم وأوقع بهم هزائم متتالية وانتقم منهم للمسلمين أعظم انتقام خاصة فى موقعة (حطين) "حيث تهاوت أمامه معاقل الصليبين وحصونهم حصناً وراء حصن"(٢) واستطاع أن يوقع بهم هزيمة نكراء وفك أسر المسجد الأقصى وتطهير "القدس الشريف" من دنس الصليبيين فى يوم السابع والعشرين من شهر رجب عام ٥٨٣ هـ وذلك ليلة الإسراء والمعراج .

(١) ص١٤٩ جـ٥ النجوم الزاهرة .

(٢) ص٨٤ جـ٢ الروضتين فى أخبار الدولتين .

ثم تابع صلاح الدين الأيوبى حروبه ضد جحافل الكفر من الصليبيين وحقق عليهم النصر فى معظمها إلا أن الأمر قد انتهى بالصلح بينه وبينهم عام ٥٨٨ هـ فى معاهدة أوقفت الحرب لمدة ثلاث سنوات، ثم وافاه الأجل المحتوم فى ليلة الأربعاء الموافق السابع والعشرين من شهر صفر عام ٥٨٩ هـ "فكانت وفاته دمعة فى كل عين وشجىً فى كل حلق وأسىً فى كل قلب ومات رحمه الله تعالى عن سبع وخمسين سنة"(١) .

وبموت "صلاح الدين الأيوبى" القائد المسلم والمجاهد المؤمن طويت صفحة مشرقة من صفحات الجهاد الإسلامى والانتصارات الإسلامية الرائعة على جحافل الكفر من جيوش الصليبيين .

وبعد موت "صلاح الدين الأيوبى" ولى الملك "العزيز عثمان" الذى عقد الصلح مع "الملك العادل" ومع الصليبيين معاً، وقام "العادل" بدوره بعقد الهدنة بينه وبين الصليبيين وتنازل لهم عن بعض البلاد والمدن الإسلامية مما أطمع الصليبيين فزادوا الفساد فى ديار المسلمين وأرسل ملك بيت المقدس (حنابرين) إلى "روما" يطلب العون والمدد لقتال المسلمين من جديد ولكن المسلمين علموا بذلك فوحدوا صفوفهم وأعدوا لهم مااستطاعوا من قوة وغضوا الطرف عن خلافاتهم وتمكن الملك "العادل" أن يخرج على رأس جيش قوى من مصر متجهاً إلى "عكا" وأرغم ملكها الصليبى أن يعيد أسرى المسلمين والسفن الإسلامية التى كان قد استولى عليها وخضع له الملك صاغراً ذليلاً ونفذ كل ماطلبه منه الملك "العادل" وأعطاه ماأراد من أسرى وسفن إسلامية .

(١) ص٢٢٦ جـ٩ الكامل فى التاريخ لعز الدين بن الأثير .

وقد استمرت مدة حكم "العادل" لمصر والشام مدة اتسمت بالدسائس والمؤامرات والوقائع الحربية والخيانات بين أبناء البيت الأيوبى من ناحية فيما بينهم أحياناً وأحياناً بينهم وبين بيت "زنكى" أو بينهم وبين الفرنج أحياناً أخرى .

وكان "العادل" أقوى شخصية فى البيت الأيوبى بعد "صلاح الدين" وإن لم يبلغ مبلغه فى ميدان الحروب وتحقيق الانتصارات على الصليبيين حيث اتخذ من أبنائه سنداً قوياً له فساعدوه على تحقيق مآربه وعمل جاهداً أن يمكن لهم فى الملك قبيل وفاته فقد تولى ابنه "الأشرف "موسى المشرق وابنه "المعظم عيسى" "دمشق" وابنه "الكامل" "مصر" وكان يتنقل هو فيما بينهم .

وتولى أبناؤه الآخرون ولايات أخرى صغيرة فى بلاد الجزيرة العربية أو بلاد الشام .

وكان "موسى الأشرف" من أعظم الأمراء الأيوبيين" وأحبهم إلى قلوب الناس مؤيداً فى الحروب وقد استطاع أن يضم ملك أخيه "الأوحد "نجم الدين" إلى مملكته وبسط العدل على الناس وأحسن إليهم إحساناً لم يعهدوه ممن كان قبله وعظم وقعه فى قلوب الناس وبعد صيته فمد ملكه على معظم بلاد الشرق الإسلامى حيث ملك نصيبين الشرق عام ٦٠٦ هـ وملك سنجار عام ٦١٧ هـ وملك معظم بلاد الجزيرة(١) وأصبح الملك الأيوبى الذى يمثل الخطر الأول على الصليبيين وحدثت له وقائع عديدة مع الصليبيين أشهرها واقعة "دمياط" التى حدثت بين المسلمين والصليبيين عام ٦١٨ هـ وذلك بعد أن توحد الأيوبيون جميعاً أمام جيوش الفرنج .

(١) ص ٣٣٠ ومابعدها وفيات الأعيان الجزء الخامس. تحقيق د / إحسان عباس . دار صادر بيروت .

ولما مات الملك "المعظم" قام بالملك من بعده ولده الملك الناصر "صلاح الدين داود" فطمع فى ملكه عمه الملك "الكامل" وتوجه إليه من مصر ليأخذ "دمشق" فاستنجد "الناصر" بعمه "الأشرف موسى" واجتمعا معاً فى دمشق واتفقا أن يأخذ "دمشق" الملك "الأشرف" ويضمها لملكه ويبقى للملك "الناصر" "الكرك" والشوبك "ونابلس" وبيسان" وأن يتنازل "موسى الأشرف" عن "حران" و "الرها" و "سروجه" والرقة "ورأس عين" ويسلمها إلى الملك "الكامل" واستتب الحال على ذلك وانتقل "الأشرف" إلى "دمشق" واتخذها دار إقامته إلى أن توفى يوم الخميس رابع المحرم عام ٦٣٥ هـ "بدمشق" ودفن بقلعتها ثم نقل إلى التربة التى أنشئت له "بالكلاسة" فى الجانب الشمالى من جامع "دمشق" وكانت ولادته بالديار المصرية بالقاهرة عام ٥٧٨ هـ "(١) .

ثم استمر النزاع والتنافر بين أفراد البيت الأيوبى الذين ظلوا يتوارثون حكم "مصر والشام" وتآمروا على بعضهم البعض إلى أن استطاع المماليك الاستيلاء على الحكم وإقامة الدولة المملوكية .

وقد كانت لهذه الأحداث - خاصة الحروب الصليبية - أثرها البارز والخطير على الأدب العربى والشعر العربى بوجه خاص فى العصر الأيوبى "عصر الحروب الصليبية" وبالطبع على شعر شاعرنا "ابن النبيه المصرى" الذى ظل بجوار الملوك الأيوبيين يمدحهم ويسجل حروبهم ويشيد بانتصاراتهم على أعدائهم خاصة على "الصليبيين" .

(١) ص٣٣١ جـ٥ وفيات الأعيان .

الحالة الاجتماعية والاقتصادية :

لقد أثرت الحروب الصليبية تأثيراً "كبيراً" على كل نواحى الحياة سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو أدبية وثقافية . فمن الناحية الاجتماعية فقد خضعت الدولة الأيوبية لنظم اجتماعية لم يعرف العالم الإسلامى مثيلاً لها من قبل، فقد كثرت الإقطاعيات وظهر نظام الإقطاع المتحكم والمسيطر على كل مايملكه حتي على هؤلاء البشر الذين يتبعونه أو يعملون فى دائرته، وانقسم المجتمع الأيوبى إلى طبقتين متناقضتين : طبقة الأمراء وأصحاب الإقطاع وأهل الثروة من التجار والمقربين من الأمراء والوزراء والطبقة الثانية : طبقة الفقراء والبائسين الذين لايملكون شيئاً وقضوا حياتهم كادحين فى خدمة الطبقة الأولى "فقد كانت الأرض وماعليها ملكاً لصاحب الإقطاع لهذا كان يتصرف فى إقطاعه من أرض وبشر وحيوان ونبات كما يشاء ليس عليه رقيب ولايحده قانون اللهم إلا السلطان وطبقة العلماء والقضاة وهؤلاء يتبعون فى أكثر الأحيان السلطان فى عدله وجوره"(١) .

وقد زادت الحروب الصليبية من فقر الدولة والمجتمع الأيوبى بسبب إعداد العدة والعتاد وتجييش الجيوش وبسبب تجنيد الكثيرين من أبناء الشعب خاصة الشباب منهم وهم القوة العاملة فى المجتمع مما زاد النفقات وقلل الإنتاج .

وقد عاد الفقر الذى عاش فيه المجتمع فى العصر الأيوبى على القيم والأخلاق بالشر المستطير حيث عزف الرجال عن الزواج لعدم قدرتهم على مؤن النكاح وولوا وجههم نحو ارتكاب المحرمات وانتشار الشذوذ الجنسى بين طبقات الشعب الأيوبى خاصة وأنه قد

(١) ص٤٨ الأدب فى العصر الأيوبى د/ محمد زغلول سلام. دار المعارف عام ١٩٨٠م.

ساعد على ذلك تركيب المجتمع الأيوبى من عناصر متعددة فبجانب العرب كان الأتراك والأكراد والفرس والروم والأرمن والهنود حيث أسهموا بسهم وافر فى انتشار حياة اللهو والمجون والخلاعة فى المجتمع الأيوبى .

وقد كان لكل عنصر من هذه العناصر التى تكونت منها الدولة الأيوبية طباعه وأمزجته الخاصة وعاداته وتقاليده فظهرت المفاسد والمظالم الاجتماعية وانتشر الغش والخداع والملق والنفاق والخيانة والوقيعة، بل تعددت العقائد والديانات تبعاً لتعدد العناصر التى تكون منها المجتمع الأيوبى، فهناك المسلمون السنة والشيعة والدروز والباطنية واليهود والنصارى والوثنيون من مانوية وزراد شتية وغيرها .

وقد كان لكل ذلك أثره الواضح على الحياة الثقافية : العلمية والأدبية خاصة الشعر فأثرت فيه تأثيراً واضحاً : قوة وضعفاً وموضوعات وشكلاً ومضموناً، وبالتالى أثرت على شعر ابن النبيه المصرى تأثيراً كبيراً خاصة وأنه الشاعر الذى تأقلم مع مجتمعه وعاش حياته بين طبقاته المختلفة من أعلاها إلى أدناها .

الحالة العلمية والأدبية :

يعد العصر الأيوبى عصر إحياء للفكر والثقافة العربية والإسلامية والأدبية على الرغم من أنه كان عصر الصراع السياسى والحروب الصليبية التى طال أمدها واستمرت سنين طويلة وانشغل الخلفاء والملوك والوزراء بل والشعب نفسه فى هذه الحروب الصليبية الطاحنة أمداً بعيداً .

فقد اهتم الملوك الأيوبيون ووزراؤهم بالعلم والعلماء اهتماماً بالغاً ووجهوا عنايتهم إلى إحياء العلوم الدينية والشرعية والاهتمام بالقرآن الكريم والحديث النبوى وعلومهما وجميع العلوم الشرعية الأخرى وأنشأوا المدارس العديدة ودور الحديث والمساجد التى أصبحت مدارس إسلامية شاملة مع كونها أماكن لإقامة الشعائر الدينية، وقد قدر الملوك والوزراء الفقهاء والعلماء وأحبوهم وقربوهم إليهم وأغدقوا عليهم الأموال والهبات. فقد قرب صلاح الدين الأيوبى إليه الفقهاء والعلماء وأحبهم حباً جماً واهتم اهتماماً كبيراً بالمحافظة على المظهر الإسلامى فى كل ناحية وكل شىء واتبع أسلافه من أفراد البيت الأيوبى سنته إلى أن دالت دولتهم

وقد بذل الحكام الأيوبيون كل مايستطيعون فى سبيل النهضة العلمية والدينية فأنشأوا كثيراً من المدارس ووفروا لها الأساتذة من أرجاء العالم الإسلامى "وأصبحت عواصم مصر والشام والعراق المشهورة : القاهرة والاسكندرية ودمشق وحلب وبغداد والموصل قبلة القصاد من سائر بلدان العالم العربى والإسلامى فى المشرق والمغرب"(١) هذا بجانب المساجد المنتشرة فى أرجاء الدولة الأيوبية سواء كانت فى مصر كالأزهر وجامع ابن طولون وجامع عمرو بن العاص والمسجد الأموى فى الشام حيث كانت منارات للعلم والثقافة

---

(١) ص٧٥ الأدب فى العصر الأيوبى د / محمد زغلوم سلام

ويقصدها الطلاب من أرجاء العالم الإسلامى للتعليم والدرس، فضلاً عن الاهتمام بالمكتبات التى كانت منتشرة فى ربوع الشرق الاسلامى . التى كانت تزخر بالكتب والمراجع الكثيرة فى مختلف العلوم ، وعروج [illegible] عمل على ازدهار الثقافة العلمية والدينية ازدهاراً كبيراً وبالتالى كثر العلماء والفقهاء فى هذا العصر كثرة عظيمة سواء كانوا فى مصر و الشام مثل "ابن الجوزى" و "ابن الخشاب" و "عبد اللطيف البغدادى" الرحالة العالم و"الإمام الفخر الرازى" و"الزمخشرى" و "الإمام الغزالى" و"الشهر ستانى"و "الحريرى" و "النسفى" و "الشاطبى" وابن رشد " وابن الأثير" وابن الصلاح" و "ابن الأبنارى" و "ابن منجب الصيرفى" و "ابن برى" و "البوصيرى و "القفطى" وغيرهم الكثير فى مختلف العلوم الدينية واللغوية والعلمية

أما من ناحية الحياة الأدبية فلم تكن تقل تقدماً وازدهاراً عن الحياة العلمية الدينية واللغوية فلقد قرب الخلفاء والملوك الأيوبيون جميعاً [illegible] [illegible] [illegible] حبوهم وأغدقوا عليهم الأموال الطائلة وشجعوهم على نظم الشعر فى مختلف الفنون الشعرية، فضلاً عما قامت به الحروب الصليبية من إلهاب مشاعر الشعراء وعواطفهم وأذكت حماستهم فأنشأوا القصائد الشعرية التى تدعو إلى الجهاد والنصر على أعداء الإسلام من الصليبيين، وراح الشعراء يمدحون الخلفاء والملوك والوزراء ويحمسونهم ويلهبون نخوتهم الإسلامية للدفاع عن الإسلام والمسلمين فى شعر حماسى رائع يفيض بالحض والتحريض والثأر من هؤلاء المعتدين، فضلاً عن حب الخلفاء والوزراء للشعر والشعراء وتذوقهم للشعر ونقده بل ونظمه فلقد عرف صلاح الدين ونور الدين محمود" "والملك العادل" "والملك الكامل والملك الأشرف بحبهم للشعر وتقريبهم للشعراء وإغداق الأموال الطائلة عليهم وعقد الندوات الشعرية ومجالس المطارحات بالشعر وغنائه ونقده مما عاد على الشعر بالنهوض والازدهار .

ولقد لعب الشعر العربى دوراً بارزاً فى أحداث العصر وشمل طبقات متعددة من أبناء المجتمع فلم يقتصر نظم الشعر حينذاك على طبقة الشعراء المتخصصين بل نظم الشعر الفقهاء والعلماء والأطباء والتجار وأصحاب الحرف المختلفة، وظهر جمع من الشعراء فى هذا العصر قل أن نجد له مثيلاً من حيث العدد فى العصور المتقدمة سواء كانوا فى "مصر" أوفى الشام" أمثال : عمارة اليمنى "وأسامة بن منقذ" والمهذب بن الزبير" وابن منير الطرابلسى" وابن مقرب الإحسائى" والضرير الحمصى" والقاضى الفاضل" "وعماد الدين الأصبهانى" "وابن النبيه المصرى" "والأبيوردى" "وابن القيسرانى" "وابن عنين" "وابن الساعاتى" "وابن سناء الملك" "وابن قلاقس السكندرى" "والأسعد بن مماتى" "وعمر الفارض" "والبهاء زهير" "وابن مطروح" "وابن أبى الإصبع" وغيرهم الكثير والكثير .

فلقد كانت هذه الفترة من أخصب الفترات الأدبية خاصة فى مصر وقد امتازت بكثرة الشعراء الذين تزخر بهم الكتب الأدبية والتاريخية التى تناولتهم مثل "الرسالة المصرية" "لابن أبى الصلت" و "الخريدة" للعماد الأصبهانى و "بدائع النهاية" "لابن ظافر" و "المغرب" لابن سعيد وغير ذلك من كتب الأدب والتاريخ التى ذكرت أو تحدثت عن شعراء العصر الأيوبى .

ولقد تناول الشعر الأيوبى أغراض الشعر العربى القديمة من : مدح وفخر وغزل ورثاء ووصف وطبيعة وعتاب وشكوى وهجاء وشعر سياسى وشعر دينى وشعر اجتماعى وغير ذلك من موضوعات الشعر التى عرفت من قبل فى الأدب العربى فضلاً عن شعر الحروب الصليبية وشعر القومية الإسلامية والجهاد ضد أعداء الإسلام ووصف المعارك الحربية وآلات القتال والحصون ، وفضلاً عن تصوير الحياة الاجتماعية للمجتمع وعاداته وتقاليده ومدح المدن وذمها

ووصف الأنهار والرياض والبساتين ووصف الحشيشة وشعر الفكاهة والألغاز والمطارحات الشعرية والشعر الصوفى وشعر المدائح النبوية وغير ذلك من أغراض الشعر المختلفة .

"والحق أن الأدب كله فى هذا العصر تلون بلون الحياة الحربية وماينجم عنها من نصر أو هزيمة وماتستدعيه من تهيج الخواطر وإثارة المشاعر وتحميس للمحاربين وحث على النزال ثم مايترتب عليها من حزن وحسرة أو فرح أو بهجة أو خوف أو ذعر إلى غير ذلك من أغراض الشعر". (١)

ولقد ظهرت فى العصر الأيوبى عدة مدارس شعرية متميزة كان لكل منها خصائصها وسماتها الفنية المتميزة، أهمها :

(١) مدرسة القوة والتقليد : حيث راح شعراء هذه المدرسة يتبعون نهج الشعر العربى القديم ويسيرون على أسلوبه ومعانيه وصوره وشكل القصيدة العربية القديمة وبنائها، أمثال : "الأبيوردى" و "الطغرائى" و "حيص بيص" و "ابن التعاويذى" و "ابن منير الطرابلسى" و "المهذب بن الزبير" و "أسامة بن منقذ، و "ابن النبيه المصرى" فى معظم مدائحه .

(٢) مدرسة : الرقة والسهولة : وأعنى بها جميع الشعراء الذين عبروا فى شعرهم عن حياتهم وبيئتهم التى يعيشون فيها، وجاءت ألفاظهم رقيقة عذبة لينة سهلة واضحة وابتعدوا عن التكلف والتصنع والإغراب أمثال : "ابن عرام" "وابن العصار" "وابن الفقيه" "وابن النبيه المصرى" فى غزله ووصفه .

---

(١) ص٣٨ ابن سناء الملك "حياته وشعره ، تحقيق / محمد إبراهيم نصر مراجعة الدكتور/ حسين نصار. طبع عام ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧ القاهرة .

٣ - مدرسة العقائد : وأعنى بهم شعراء المديح الذين زخرت مدائحهم بالعقائد الشيعية التى تأثروا فيها بالعقائد الفاطمية التى كانت فى عصر الفاطميين "فالعقائد الفاطمية بمصطلحاتها ظهرت فى مدائح الشعراء على الرغم من تنكرهم - أى الأيوبيين - للشيعة وإيمانهم بالمذهب السنى"(١)

وكان "ابن النبيه المصرى" أجرأ الشعراء الأيوبيين جميعاً وأكثرهم استخداماً للعقائد الشيعية والاتكاء عليها فى أفكاره وصوره ومعانيه وألفاظه، يعقبه "ابن الساعاتى وابن مطروح وابن سناء الملك .

٤ - مدرسة الكتاب : وكان شعراء هذه المدرسة يهتمون بالموسيقى اللفظية ويؤثرون الألفاظ الضخمة الفخمة ويتلاعبون بالألفاظ تلاعباً يتضح فيه أثر الصناعة والتكلف واهتموا بالبديع اهتماماً بالغاً "كابن سناء الملك وابن قلاقس وابن الساعاتى "والأسعد ابن مماتى" وغيرهم من شعراء العصر وإن كان البديع هو المذهب الذى انتشر انتشاراً كبيراً فى العصر إلا أنه قد وجد من بين الشعراء من لايغرق فى مذهبه أمثال : "ابن منير الطرابلسى" "وابن القيرانى" "وابن النبيه المصرى" .

كذلك ازدهر النثر فى العصر الأيوبى وتقدم وارتقى لنفس الأسباب التى أدت إلى ازدهار الشعر بل إن النثر فى العصر الأيوبى كان أكثر تقدماً وازدهاراً من الشعر بسبب ماكان يمثله الكاتب من عنصر مهم من عناصر الإدارة فى الدولة وبسبب احتياج الدولة إلى عدد ضخم من أصحاب الكتابة فى دواوين الدولة وبسبب حب الملوك والخلفاء وتقريبهم للكتاب وإنزالهم منزلة رفيعة، كل

---

(١) ص١٨٥ دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين للدكتور محمد كامل حسين

ذلك أدى إلى نهضة الكتابة والنثر الفنى فى العصر الأيوبى بل "وتفوقت على الشعر وأصبح الكتاب بمنزلة أرفع من منزلة الشعراء وصارت بأيديهم أزمة البيان بعد أن رفع رايته الشعراء دهوراً طويلة من قبل"[١] وقد تنوع النثر الفنى فى العصر الأيوبى بين : كتابة وخطابة دينية وسياسية ورسائل ومقامات وقصة وأدب الرحلات والمذكرات وغيرها .

وظهر كثير من الكتاب فى هذا العصر أمثال : "ابن الخلال" "وابن الشحناء" "وابن الصيرفى" "والقاضى الجليس" "وابن الجراح" "وعماد الدين الأصبهانى" "وابن النبيه المصرى" "وضياء الدين ابن الأثير" وغيرهم .

وهكذا ازدهرت الحياة العلمية والأدبية فى العصر الأيوبى ازدهاراً واضحاً ونما الشعر العربى وتقدم ولم يكن عصر الأيوبيين عصر انحطاط وتأخر كما زعم البعض وإن تفوقت عليه العصور الأدبية السابقة إلا أنه كان متقدماً أيضاً وإن لم يرق إلى نفس المستوى الذى كانت عليه الحياة الأدبية من قبل .

---

(١) ص١٧٥ الأدب فى العصر الأيوبى، للدكتور / محمد زغلول سلام .

الفصل الثانى

«حياة ابن النبيه وثقافته»

حياتــه :

هو أبو الحسن على بن محمد بن الحسن بن يوسف بن يحيى المصرى ويلقب بكمال الدين ويكنى بابن النبيه المصرى، وحياة ابن النبيه المصرى ونشأته لم تحظ باهتمام المؤرخين القدماء اهتمامهم بكثير من شعراء العصر الأيوبى على الرغم من أن ابن النبيه يعد من كبار شعراء العصر وكتابه، فقد ذكرت بعض المصادر القديمة نتفاً مبعثرة عن الشاعر وبعضها أهمل الشاعر إهمالاً تاماً ولم تشر إليه لامن قريب ولامن بعيد، لذا كان من الصعب الوقوف على معرفة حياة الشاعر وثقافته معرفة بعيدة تامة .

فقد أشار صاحب وفيات الأعيان إشارة عابرة عن "ابن النبيه" أثناء حديثه عن "الملك الأشرف موسى" بن الملك العادل الأيوبى فقال: "ولقد رأى - أى الأشرف - يوماً فى دواة كاتبه وشاعره الكمال أبى الحسن على بن محمد المعروف بابن النبيه المصرى قلما واحداً فأنكر عليه ذلك فأنشده فى الحال دو بيت :

قال الملك الأشرف قولاً رشدا ... أقلامك ياكمـال قلّت عـددا
جاوبـت لعظـم كتْب ماتطلقـه ... تخفى فتقَطُّ فهى تفـنى أبدا

وقال عنه أيضاً .. ومدح الملك الأشرف أعيان شعراء عصره وخلدوا مدائحه فى دواوينهم فمنهم "شرف الدين محمد بن عنين" "والبهاء أسعد النجارى" والشرف راجح الحلى "والكمال ابن النبيه" المذكور وكانت وفاته سنة تسع عشرة وستمائة بمدينة "نصيبين الشرق" وعمره تقديراً مقدراً ستين سنة كذا أخبرنى صهره بالقاهرة" (١)

(١) جـ٥ ص٣٣٤ - ٣٣٦ وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق د / إحسان عباس .

فنجد ابن خلكان يذكر "ابن النبيه" ويشير إلى أنه كان من الشعراء الذين مدحوا الملك الأشرف وذكر سنة وفاته ولم يذكر تاريخ مولده ولانشأته ولاثقافته . ولم يذكر شيئاً عن حياته .

وقال عنه صاحب حسن المحاضرة : "ابن النبيه على بن محمد ابن النبيه الشاعر المشهور أحد شعراء العصر. مات سنة إحدى وعشرين وستمائة"[١] ولم يذكر عنه غير ذلك .

وقال صاحب النجوم الزاهرة عنه : "هو العلامة كمال الدين على بن محمد يوسف ابن النبيه الكاتب الشاعر صاحب ديوان رسائل الملك الأشرف موسى ابن العادل. وله ديوان شعر مشهور كله ملح. وتوفى سنة ٦١٩ هـ" [٢]. وابن العماد الحنبلى نقل العبارة السابقة فى كتابه "شذرات الذهب" فى أخبار سنة ست مئة وتسع عشرة ثم أورد قليلاً من شعره"[٣] .

وقد اهتم به أكثر من سابقيه "محمد بن شاكر" فخصص له ترجمة مستقلة وعرف به تعريفاً أوضح منهم بقوله : "على بن محمد ابن الحسن بن يوسف بن يحيى الأديب الشاعر البارع كمال الدين ابن النبيه المصرى صاحب الديوان المشهور، مدح بنى أيوب واتصل بالملك الأشرف موسى وكتب له الإنشاء. وسكن بنصيبين وتوفى بها فى حادى عشرين جمادى الأولى سنة تسع عشرة وستمائة. وهذا ديوانه مشهور هو انتقاه من شعره لأنه كله منقى منقح الدرة وأختها وإلا فما هذا شعر من لانظم إلا هذا الديوان الصغير..

(١) جـ١ ص٥٦٦ حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة . للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى .

(٢) جـ٦ ص٢٤٣ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. لابن تغرى بردى ط دار الكتب عام ١٩٤٩ م .

(٣) جـ٥ ص٨٥ شذرات الذهب . ط مصر ١٣٥١ هـ .

ثم أورد له نماذج متعددة من شعره كلها فى الغزل والخمر ثم اختتم حديثه عنه بقوله : وديوان شعره كله من هذا الأسلوب وهو موجود فى أيدى الناس سامحه الله تعالى"(١) .

كذلك إشار إليه عند حديثه عن "الملك الأشرف موسى" المؤرخ المعروف "ابن إياس" إشارة عابرة بقوله عن الممدوح "الملك الأشرف" : وهو ممدوح القاضى كمال الدين بن النبيه فى جميع قصائده"(٢) .

وقد جعل "ابن إياس" مدح " ابن النبيه " كله فى "الأشرف" وحده وهو مايخالف الصواب فقد مدح "ابن النبيه" أناساً كثيرين وهو ماسنوضحه فى مدائحه .

وقال عنه الإمام "شمس الدين الذهبى" : "ابن النبيه الشاعر البليغ صاحب الديوان كمال الدين أبو الحسن على بن محمد بن حسن ابن يوسف ابن يحيى المصرى، مدح آل أيوب وسار شعره وانقطع إلى الملك "الأشرف" وسكن "نصيبين" وبها مات فى الحادى والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة تسع عشرة وست مئة. وقيل : إنه بقى إلى سنة إحدى وعشرين وستمائة وفى نظمه مبالغات تفضى به إلى الكفر بالله لاأرى ذكرها"(٣) .

وعرَّف به "خير الدين الزركلى" فقال عنه : "ابن النبيه : على ابن محمد بن الحسن بن يوسف أبو الحسن كمال الدين ابن النبيه . شاعر منشىء من أهل مصر . مدح الأيوبيين وتولى ديوان الإنشاء

---

(١) جـ٣ ص٦٦ - ٧٣ فوات الوفيات، تأليف / محمد بن شاكر الكتبى . تحقيق/ د / إحسان عباس . طبع دار الثقافة ببيروت .

(٢) ص٦٢ . بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس : طبع : مطابع الشعب عام ١٩٦٠م

(٣) جـ٢٢ ص١٧٨ سير اعلام النبلاء . تحقيق د / بشار عواد معروف و د/ محمد هلال السرحان . طبع مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م .

للملك الأشرف" موسى" ورحل إلى نصيبين فسكنها وتوفى بها. له ديوان شعر صغير انتقاه من مجموع شعره"[١].

وتحدث عنه "بروكلمان" فترجم له وذكر وفاته وأهمل مولده ونشأته وأشار إلى أن شعره معظمه قصائد مدح[٢].

وأشار إليه صاحب كتاب "ذخائر التراث العربى الإسلامى بقوله : "ابن النبيه: كمال الدين أبو الحسن على بن محمد (٦١٩هـ) ديوانه : نشره عبد الله فكرى بالقاهرة"[٣].

كما نجد الكتب الحديثة التى بحثت فى الأدب الأيوبى أهملت جوانب كثيرة عن ابن النبيه وزعمت أنه مجهول المولد والنشأة فلا يعرف أين ومتى ولد[٤] وتحدث عنه الدكتور / محمد زغلول سلام حديثاً عابراً فى كتابه "الأدب فى العصر الأيوبى".

وقد ولد ابن النبيه المصرى فى مصر عام ٥٥٩ هـ (١١٦٤)[٥] وقيل عام ١١٦٢ م[٦] وكان عصر الحروب الصليبية بين المسلمين والصليبيين، وقد ظل الشاعر فى مصر لم يغادرها إلا بعد أن مات البطل "صلاح الدين الأيوبى" ولم يتصل به الشاعر ولم يمدحه كما زعم بعض الدارسين[٧] حيث كان ابن النبيه حديث السن

---

(١) جـ٥ ص١٥٢ الأعلام . الطبعة الثالثة .

(٢) جـ٥ ص٦٦ تاريخ الأدب العربى . كارل بروكلمان . ترجمة د/ رمضان عبد التواب الطبعة الثانية . دار المعارف .

(٣) جـ١ ص٩٥٢ ذخائر التراث العربى الإسلامى. عبد الجبار عبد الرحمن . طبع عام : ١٤٠١هـ - ١٩٨١ م .

(٤) ينظر ص١٥٤ دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين د / محمد كامل حسين طبع: دار الفكر العربى.

(٥) ص١٠٢ جـ٤ دائرة المعارف . إدارة : فؤاد أفرام البستانى . بيروت عام ١٩٨٢ م .

(٦) ص٤٢٣ جـ٢ أعلام الأدب والفن . تأليف / أدهم آل جندى . دمشق . مطبعة الاتحاد طبع عام ١٩٥٨ م .

(٧) ص٣٢ ابن سناء الملك "حياته وشعره" .

حينئذ فلم يتصل بصلاح الدين "ولايوجد فى ديوانه بيت واحد يمدحه به. ولم يتصل "ابن النبيه" بالأيوبيين إلا بعد "صلاح الدين" حيث اتصل بالملك "العادل" ومدحه ونال حظاً عنده وغمره بعطفه ومنحه ثم تصل بالملك "الأشرف" ... و صبح شاعره الخاص وكاتب الإنشاء فى ديوانه وظل مصاحباً له فى حله وترحاله وأحاطه "الأشرف" بعطفه وعطاياه مقابل مدح "ابن النبيه" له مدحاً عظيماً، حيث أخذ ابن النبيه يشيد به وببطولاته ووجد فى حروبه وانتصاراته الموضوع الذى يشغل به قصائده وصب فيها كل مقدرته وبلاغته وقد لبث ابن النبيه بجوار الملك الأشرف يمدحه ويشيد بحروبه وانتصاراته وكله عاطفة صادقة وأعجب به إعجاباً شديداً وأخذ يحرضه لقتال الصليبيين فى مواضع كثيرة من مدائحه له .

وكما يبدو من خلال شعره فقد قضى ابن النبيه حياته مغرماً بالدنيا ينشد اللذة والمتعة فى كل وقت يقضيه حيث كان ينظر إلى الحياة نظرة من يريد التمتع بما فيها من خير وجمال وقضى حياته فى حب الخمر وتعاطيها وهو يهفو إلى الغلمان السقاة ويتغزل فيهم ويصف محاسنهم ويحب كل وجه جميل، كما كان يحب جمال الطبيعة حباً جماً وكان أفضل شىء لديه مجلس يتناول فيه الخمر من يد غلام جميل وسط جمال الطبيعة وفى صحبة من الأصدقاء يجمعهم هذا المجلس. فيقول ابن النبيه يستدعى بعض أصحابه إلى مجلس أنس جميل : [١]

نحنُ فى روضـــةٍ وزهْــرٍ ونهرٍ ... ومُـدام كالشمـس من كفِّ بَـدر
ومغنٍّ قـد راسلتــه الشحــاريــ ... ـرُ فأغنتْ عن جسِّ عودٍ وزمْــر
أنت روحٌ ونحن جسمٌ فـإن غبْـ ... ـتَ فإنَّ القلوبُ تكْـوى بجمــر
إنَّ كفــاً إليــك قــد كَتَبْتَهــ ... تتهــادى مابيــن سُكْرٍ وشكْـــر

(١) ص٤٨٩ ديوان ابن النبيه المصرى تحقيق / عمر محمد الأسعد . دار الفكر الطبعة الأولى عام ١٩٦٩ م .

وعاش ابن النبيه حياته متعاطياً للخمر مغرماً بها حتى آخر حياته، فقد قال وقد سئل وهو فى شدة من المرض : هل تبت وتركت الخمر ؟ فقال : (١)

الراحُ روحى فكيف أهجرها   منظرها طيبٌ ومخبرها
راحٌ إذا ماالفقير صافحها   أغناهُ ياقوتها وجوهرها

فنرى إلى أى حد بلغ ابن النبيه فى مجونه ولهوه؟ فلم يرعو ويتعظ ويترك الخمر التى حرمها الله ورسوله وهو فى شدة مرضه وليس بينه وبين الموت شىء .

بل لم يقتصر ابن النبيه على تعاطيه للخمر وتعلقه بها بشدة بل نراه فى أكثر من موضع من ديوانه يدعو الآخرين إلى شرب الخمر وتعاطيها وأن يأخذ الإنسان كل مايستطيع فى حياته من متعة وأن يغتنم الفرصة للتمتع بالخمر وبكل شىء دون وازع أو مراعاة للدين، فيقول : (٢)

طاب الصبوح لنا فهاك وهات   واشرب هنيئاً ياأخا اللذات
كم ذا التوانى والشباب مطاوع   والدهر سمحٌ والحبيبُ مُواتى
قم فاصطبح من شمس كأسك واغتبقْ   بكواكب طلعت من الكاسات

ويقول : (٣)

دَعْ كدَرَ العيش وخُذْ ماصفا   تَحْىَ ويشْقَ الدائب الكادح

حيث يرى الشاعر أن الحياة الحقيقية تكمن فى شرب الخمر .

ويقول أيضاً : (٤)

أمِنْتَ الليالى وأقدارها   فَصِلْ بالأصائل أسحارها
وخُذْ ماصفا من رحيق الكؤوس   وخَلِّ لغيرك أكدارها

---

(١) ص٤٨٩ ديوان ابن النبيه المصرى . تحقيق / عمر محمد الأسعد . دار الفكر الطبعة الأولى عام ١٩٦٩ م .
(٢) ص١٢٣ - ١٢٤ ديوان ابن النبيه .
(٣) ص٣٤٠ ديوانه .
(٤) ص٣٥١ ديوانه .

ولقد كان ابن النبيه - بجوار تعاطيه الخمر دون هوادة ولاوازع من دين فقد كان صاحب غلمان أيضاً ويبدو ذلك من خلال شعره فيقول فى غزله بغلام : (١)

أغرُّ يناجى شَعْرُهُ حَلْىَ حضـره | كما يعتب المعشوقُ عاشقَهُ سراً
وصلتُ بداجى شَعره ليل وصله | فلم أخْشَ صبحاً غير غُرّته الغُرّا
أخوض عُباب الموت مـن دون ثغـره | كـذا يغـوصُ البحْرَ من طلب الدرا

بل إن الشاعر يصرح بنفسه أنه يفضل الغلام على المرأة، حيث تأتى أنثى جميلة لتعرض عليه نفسها فيرفضها ولايرضى بالغلام بديلا ويرى أن الغلام عنده بمثابة الإيمان أما المرأة فبمثابة الكفر فيقول بعد أن وصف جمال المرأة : (٢)

دعتـى إلى السلـوان عنـه بحبهـا | وماكنـت أرضى بعد إيمانى الكفرا

فضلاً عن الأشعار الكثيرة التى نظمها الشاعر فى الغزل بالمذكر ويقص فى بعضها أقاصيص ماجنة وأحداث عابثة له مع الغلمان .

وكان ابن النبيه مغرماً بالصيد والخروج إلى الصحراء مع رفقة حسان الوجوه يأنسى بصحبتهم ويحب الطبيعة الجميلة ويغرم بمفاتنها، فكان مذهبه فى الحياة أن يتمتع بكل شىء جميل ولايبخل على نفسه بشىء من متع الدنيا ولهوها حيث كان يرى أن الله سبحانه يغفر الذنوب جميعاً .

وإذا كان لنا أن نستشف من خلال شعر ابن النبيه حياته الماجنة العابثة التى قضاها فى أماكن اللهو وحانات الخمر وحب الغلمان فإننا أيضـاً - ومـن خلال شعـره - نجـد للشاعر نزعة دينية واضحـة

---

(١) ص٢٨٨ ديوان ابن النبيه .
(٢) ص٢٩٠ ديوان ابن النبيه .

تجلت فى مدائحه ويظهر منها اعتداله وحبه لدينه وفيها الحب العميق للإسلام والمسلمين والبغض البعيد للكفر والكافرين، حيث راح الشاعر يحرض الملك الأشرف وغيره من الممدوحين من رجال السياسة الى قتال الصليبيين وهزيمتهم وتدمير الصليب ورفع راية الإسلام عالية.

فيقول فى مدح الإمام "الناصر لدين الله العباسى" (١):

إمـام عـدل لتقـوى الله باطنه ... وللجلالـة والإحسـان ظاهـره
راع بطرف حمى الإسلام ساهره ... ساط بسيف أباد الكفر شاهرهُ

ويقول فى مدح "الملك العادل" : (٢)

بـه دمَّـر اللـه الصليب وأهلـه ... بـه ملـة الإسـلام عال منارها

ويقل فيه أيضا (٣)

أسهـره الـذبّ عـن دينـه لا ... عشـق ربيبـات المقاصيـر
طهرت بيت القدس من حسهم ... بكـر مـساوى للحناريـر

ويقول فى مدح الملك الأشرف (٤)

بقيـت للإسـلام مغـردا ... قمريـه فـى دوحهـا تسجـع

وقال فيه أيضا (٥)

جنحتْ ملوك المشركين لسلمه ... فأجاب متبعـاً لنـصِّ المصحـف

وقال فيه أيضاً : (٦)

معاقل الشرك قد رجّت بكم شرفاً ... وكـل ملكٍ على الإطـلاق منحصر
لكل جيوش إذا جاشتْ غدة وغىً ... بمثلهـا من جيـوش اللـه تنتصر

---

(١) ص٩٥ - ٩٦ ديوان ابن النبيه المصرى
(٢) ص١١٥ ديوان ابن النبيه المصرى
(٣) ص ١٢ - ١٢١ ديوانه
(٤) ص١٤٨ ديوان ابن النبيه
(٥) ص١ ٢ ديوان ابن النبيه
(٦) ص٣٤٨ ديوان ابن النبيه

والنماذج من هذا القبيل والتي [illegible] الدينية كثيرة ومنتشرة في ديوانه.

[illegible]

والعفو والحلم والصفح والبعد عن [illegible] قط ولم يرد في ديوانه بيت واحد في هجاء [illegible]

وقد قضى "ابن النبيه" حياته متكسباً بشعره حيث اتخذ الشعر حرفة يتكسب منها بجوار وظيفته في ديوان الإنشاء مع أنه شاعر موهوب كان ينظم الشعر عن طبع وسجية، والشاعر يصرح بنفسه بذلك فيقول في قصيدة مدح بها الملك الأشرف [1]

أعددت للدين والدنيا [illegible] [illegible] الشبيبة بعد الشيب والهرم
أنا الذي شملتني منك [illegible] [illegible]
عرستني بيد [illegible] [illegible]

فقد كان [illegible] حرفة وصنعة لهم يعيشون على [illegible]

وكان ابن النبيه دائم التنقل و[illegible] فقضى حياته في أكثر من مدينة فقد سكن "القاهرة" وتعلم فيها [illegible] رائراً في مصر للعديد من مدنها كالإسكندرية ودمياط وغيرهما، وقد زار "العراق" وقضى في "بغداد" مدة بجوار الخليفة "الناصر لدين الله" العباسي يمدحه ويشيد بقوته وشجاعته وينال جوائزه وعطاياه كما أقام في "دمشق" مدة طويلة بجوار الملك "الأشرف" وسكن "نصيبين" وظل بها بقية حياته إلى أن توفي عام ٦١٩ هـ [2] وقيل عام ٦٢١هـ [3]

---

(١) [illegible] ص٤٥٣ [illegible] ٤٥٤ [illegible]
(٢) ينظر وفيات الأعيان جـ٥ ص٣٣٦ [illegible] ص٢٤٢ [illegible] الذهب جـ٥ ص٨٥ وفوات الوفيات جـ٣ ص٧٣ وغيرها من المصادر
(٣) ينظر : حسن المحاضرة جـ١ ص٥٦٦ وسير أعلام النبلاء جـ٢٢ ص١٧٨

ثقافتـــه :

عاش ابن النبيه المصرى فى عصر تقدم ونهوض للأدب والعلم بوجه عام، حيث قضى الشاعر حياته الأولى فى مصر تحت حكم الأيوبيين حيث انتشرت الثقافة فى مختلف الفروع والفنون وساعد على ذلك ماخلفه العصر الفاطمى من أعمدة للثقافة حيث المدارس المنتشرة والمساجد المتعددة فى ربوع مصر وعلى رأسها "الأزهر الشريف" الذى كان بمثابة جامعة إسلامية يؤمها الطلاب من كل فج عميق، وحيث المكتبات التى تزخر بأمهات الكتب فى مختلف العلوم والمعرفة، فضلاً عما قام به الأيوبيون من جهد مشكور لتوسيع وتعميق روافد الثقافة العربية والإسلامية والعلمية فى عصرهم : من إنشاء المدارس ودور الكتب، فضلاً عن تشجيعهم للعلم والأدب وإغداق الأموال الطائلة على العلماء والشعراء والكتاب وتقريبهم إليهم .

فمن الضرورى أن يتثقف ابن النبيه من ثقافة عصره ويتعلم فى دور العلم المنتشرة فى ربوع مصر والقاهرة بوجه خاص وأن يكون قد جالس كبار العلماء والفقهاء والأدباء من شيوخ عصره وتتلمذ على أيديهم واغترف من علمهم وتزود من زادهم خاصة وأنه قد أصبح فيما بعد كاتب الإنشاء للملك الأشرف وشاعره الخاص وبالطبع لايصل إلى هذا المنصب وتلك المكانة إلا أديب عملاق استطاع بمقدرته الفائقة وثقافته الغزيرة الوصول إلى ذلك الأمر الخطير .

وكما يبدو من خلال شعره فقد كان "ابن النبيه" مثقفاً ثقافة واسعة تدل على أنه خبر الثقافة الدينية بعلومها المختلفة من فقه وتوحيد وحديث وحفظ للقرآن الكريم حفظاً جيداً[١] ، وخبر الثقافـة

---

(١) أنظر على سبيل المثال ديوانه: ص١٠٢، ص١٣٤، ص٢٠١، ص١٠٤، ص١٩٤.

العربية من نحو وصرف ولغة ومعاجم وبلاغة وعروض وتمكن من اللغة العربية تمكناً عظيماً.(١) كما يظهر من ديوانه أنه ثقف الأدب العربى فى عصوره المتعددة السابقة حيث درس الأدب الجاهلى والإسلامى والأموى والعباسى والفاطمى وثقفه ثقافة واعية وحفظ كثيراً من شعره خاصة شعر "امرىء القيس" "والفرزدق" "وأبى نواس" وأبى تمام "والبحترى" والمتنبى" وأبى فراس الحمدانى " "وابن هانىء الأندلسى" "وتميم بن المعز لدين الله الفاطمى" والشريف العقيلى" وغيرهم من شعراء العصور السابقة حيث تأثر الشاعر بشعر هؤلاء الشعراء جميعاً فى شعره وبدا ذلك واضحاً فيه . فمن ذلك قوله متأثراً بامرىء القيس :(٢)

هـذا اللوى والحيُّ من أمامـه ... قـد خفق البرق على أعلامه
وهـذه مرابـع السِّرْب الـذى ... تخـوف الآسـاد مـن آلامـه

ومن دلائل ثقافته لشعر "الفرزدق" قوله متأثراً به فى مدحه للأشرف:(٣)

طربتْ له عرفات واهتز الصفا ... والبيت مع أركانـه وحجونـه
لو كان للحجـر الشريف فم شكـا ... ماعنـده مـن شوقـه وحنينـه

وهذه المعانى فى قصيدة الفرزدق التى يمدح فيها الإمام زين العابدين ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب والتى يقول فيها :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم(٤)
يكـاد يمسكـه عرفـان راحتـه ... ركن الحطيم إذا ماجاء يستلم

(١) انظر على سبيل المثال ديوانه : ص١٩٣ ص١٩٤ .
(٢) ص٣٨٣ ديوانه .
(٣) ص٢١٩ ديوان ابن النبيه .
(٤) ص ١٧٨ ديوان الفرزدق . الجزء الثانى / دار صادر.

وقال متأثراً بأبى نواس فى الدعوة إلى ترك الوقوف على الأطلال والاستعاضة عنها بوصف الخمر :(١)

دع النوح خلف حدوج الركائب ... وسلّ فؤادك عن كل ذاهب
بيض السوالف حمر المراشـ ... ـف صفر الترائب سود الذوائب

وله أشعار كثيرة انتحى فيها مذهب أبى نواس فى الدعوة إلى ترك البكاء على الأطلال والدعوة إلى شرب الخمر ووصفها والإغرام بها مثل أبى نواس تماماً مما يدل على أنه ثقف شعره وتأثر به فى شعره .

ومايدل على ثقافته شعر أبى تمام ماجاء فى قوله يمدح الملك الأشرف :

قضيت فى الغرب مفروض الجهاد ولو ... فرغت للشرق ماقامت أعاجمه
أنسيت من فتح عموريّة شرفاً ... ومات دون أبى تمام ناظمه(٢)

فابن النبيه يشير إلى فتح "عمورية" من جانب الخليفة العباسى "المعتصم" وإلى القصيدة التى نظمها "أبو تمام" بهذه المناسبة والتى يبدؤها بقوله :(٣)

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب

ومن تأثر ابن النبيه كذلك بقصيدة "أبى تمام فى فتح" عمورية: قوله فى مدح "الملك الأشرف" :(٤)

عليه نور إلهىّ أشعته ... تغنيه عن كثرة الحجاب والحجب

---

(١) ص١٨٧ ديوان ابن النبيه .
(٢) ص٤٦٠ ديوان ابن النبيه .
(٣) ص ٤٠ ديوان أبى تمام . الجزء الأول تحقيق / محمد عبده عزام.
(٤) ص٢٣٩ ديوان ابن النبيه .

مت ياحسود انتظاراً إن مَولده　　قد كان فى برج سعد غير منقلب

فالشطر الثانى من البيت الثانى من قول أبى تمام: [١]

وصيروا الأبرج العليا مرتبة　　ماكان منقلباً أو غير منقلب

ومما يدل على إطلاعه على شعر "البحترى" ودراسته قوله يصف فوارة :

وسقيط الغمام يرشح دراً　　فوق أوراقه فيصبح دراً

جادها وابل السماء رشاشا　　فهى تبكى طوراً وطوراً تضحك [٢]

فقد تأثر الشاعر بذلك بوصف البحترى للطبيعة الصامته من أمطار وفوارات ورياض[٣] .

كذلك تأثر ابن النبيه تأثراً واضحاً بأشعار "المتنبى" فى مدح "سيف الدولة الحمدانى" وتدلنا هذه الأشعار التى مدح بها "ابن النبيه" الملك الأشرف" على أن ابن النبيه تأثر خطى "أبى الطيب" وطريقته وأفكاره ومعانيه فى سيفياته. ومن هذا القبيل قول "ابن النبيه" يمدح "الملك الأشرف" :[٤]

موسى الذى أنفت شهامة عزمه　　أن يستمد النصر من هارونه

ملك غرار السيف خير دروعه　　والصافنات الجرد خير حصونه

ملك يُرى بين الصوارم والقنا　　كالليث فى أشباله وعرينه

ملك إذا ماجاش بحر جيوشه　　ملأ الملا بسهوله وحزونه

فهذه الأبيات - وكثير غيرها فى ديوانه - تذكرنا منذ أول وهلة حين قراءتها بشعر "المتنبى" فى مدح "سيف الدولة الحمدانى"

---

(١) ص ٤٠ ديوان أبى تمام . الجزء الأول.

(٢) ص٤٦٧ ديوان ابن النبيه .

(٣) ينظر ديوان البحترى جـ٤ ص٢٠٩٠ وص٢٣١٦ جـ٤ .

(٤) ص٢١٧ - ٢١٨ ديوان ابن النبيه المصرى .

ومما يدل دلالة واضحة على أن "ابن النبيه المصرى" درس شعر "المتنبى" وثقفه ثقافة واعية . كذلك تأثر ابن النبيه - ومما يبدو من خلال شعره - بشعر "أبى فراس الحمدانى"(١) وابن هانى الأندلسى"(٢) وتميم بن المعز لدين الله الفاطمى"(٣) وغيرهم من كبار شعراء العصور السابقة على العصر الأيوبى .

ومن خلال أشعاره أيضاً نستنتج أن ابن النبيه قد ألم ببعض الثقافة الفارسية والتركية والثقافة العلمية الحديثة من فلسفة ومنطق وطب وكيمياء وغيرها من العلوم الحديثة(٤) .

فابن النبيه المصرى كان مثقفاً ثقافة واعية متنوعة بجانب موهبته التى أعطاها الله له وعبقريته الفذة واستطاع أن يكون شاعراً عملاقاً فى عصره وأن يترك ديواناً كبيراً يضم بين طياته فنوناً شعرية متنوعة من مدح وغزل وطبيعة وخمر ورثاء وشكوى وعتاب وحكمة وغيرها، واستطاع أن ينظم القصيدة والمقطوعة والموشحة والد وبيت والزجل وكان من الشعراء الذين "صاغوا منظومهم بسلاسل من الذهب وهو وإن لم يكن ليستطيع أن يناصى شعر أبى الطيب المتنبى وأبى تمام والبحترى وأبى العلاء المعرى فهو فى بعضه لايقل قيمة أدبية ولغوية وقدرة تصويرية عن الشعر العربى القديم والمعاصر"(٥)، وابن النبيه المصرى يعد الشاعر الأيوبى الكبير الذى استطاع أن يوازن فى مذهبه الشعرى بين المذاهب الشعرية التى عرفت فى عصره، فنرى بعض شعراء العصر ينتمون إلى مدرسة

---

(١) ينظر ديوان ابن النبيه ص٢٣٣ .
(٢) ينظر ديوان ابن النبيه ص٢٨٣ .
(٣) ينظر ديوان ابن النبيه ص١٩٧ .
(٤) ينظر ديوانه : ص١٣١ ص٤٣٨ ص٤٧٢ .
(٥) ص٩ مقدمة الديوان .

التقليد "كالأبيوردى" وبعضهم إلى مدرسة الرقة والسهولة وبعضهم إلى مدرسة الصنعة وأولئك وهؤلاء كثيرون، أما ابن النبيه المصرى فلم يكن صاحب مذهب معين أو مدرسة محددة ولكن كان شاعراً فناناً أخذ بنصيب من كل هذه المذاهب والمدارس الأدبية فقد أخذ من القديم ومدسة التقليد وظهرت الرقة والسلاسة فى شعره فى الغزل والخمر وظهرت العقائد فى مدائحه ظهوراً واضحاً وأثر الصنعة ومذهب الكتاب أحياناً فى شعره إلا أنه ابتعد عن التكلف والتصنع فلم يغال فى صنعة أو يتكلف فى بديع ولكنه استخدم البديع فى خفة ودون إفساد فى شعره، فابن النبيه المصرى صاحب مذهب خاص كونه من جميع المذاهب التى عرفت فى عصره لذا رأينا بعض الباحثين ينسبونه إلى هذه المدرسة حيناً وتلك المدرسة حيناً وتلك المدرسة حيناً آخر ولكنه فى الحقيقة أخذ بنصيب من كل هذه المدارس واستطاع أن يكون لنفسه مذهباً خاصاً به فكان شاعراً ماهراً فناناً وشعره نموذج واضح لشعر عصره وصورة دقيقة للحياة الاجتماعية والسياسية والأحداث التاريخية والعادات والتقاليد الجارية فى عصره آنذاك، وبلغ من عظم شاعريته ونبوغه فى فن القريض أنه كان ينظم الشعر ارتجالاً(١) وقد نالت بعض أشعاره شهرة واسعة وتغنى بها المغنون فى العصر الحديث، كقصيدته التى يقول فيها: (٢) .

أفديه إنْ حفظ الهـوى أو ضيَّعا	ملكَ الفؤادَ فما عَسى أنْ أصنعا
مَنْ لم يذقْ ظُلم الحبيب كَظُلمـه	حلواً فقد جهـل المحبّة وادَّعَـى
يا أيها الوجهُ الجميل تدارك الصّـ	ـبَّ النحيل فقد عفا وتضعْضَعَا

---

(١) ينظر على سبيل المثال : ديوانه : ص٢٩٦ ، ص٢٩٧ ، ص٢٩٩ ، ص٣٠٠ ، ص٣٠١ ، ص٣٠٣ .

(٢) ص١٤٩ ديوان ابن النبيه المصرى .

وهى قصيدة مدح فى "الملك الأشرف" وبدأها بمقدمة غزلية رقيقة حيث سلخت هذه المقدمة الغزلية ولحنت للغناء وغنتها "أم كلثوم" .

وله قصيدة أخرى لحن بعضها للغناء وهى التى بدئت بقوله: (١)

أماناً أيها القمر المطل   على جفنيك أسياف تُسَلُّ

مما يدل على أن شعر الشاعر يصلح لكل عصر وكل زمان وهذا من مقدرة الشاعر الفنان .

(١) ص٢٥٥ ديوان ابن النبيه المصرى .

الباب الثانى

«شعر ابن النبيه»

بلغ التراث الشعرى قبل عصر "ابن النبيه المصرى" وفى عصره مبلغاً عظيماً من الحياة والقوة والابتداع، فشدا بآمال الحياة وآلامها وأحداثها المختلفة من سياسية واجتماعية ودينية وترنم بالجمال الإنسانى فى كل مظاهره وعبر عما يجول فى صدور المجتمع وعواطفه وماتسطمح إليه النفس الإنسانية من مثل عليا فى السياسة والاجتماع وغيرهما من شتى مناحى الحياة كما رسم لنا صورة حية لما كانت عليه حقيقة المجتمع فى العصور المختلفة وتصوير مظاهر الجمال والفساد فى دنيا الإنسان والطبيعة، فضلاً عن تطور الشعر فى أسلوبه مثل تطوره فى اتجاهاته فاتسع التعبير عن جميع هذه الأفكار القديمة منها والجديدة .

فجمع ابن النبيه المصرى هذه الثروة الأدبية الضخمة وأوعاها وأعانته موهبته العريقة وطبيعته الشاعرة وفطرته الحساسة واجتمعت فى نفسه كل أسباب الشعر وبواعثه والتفوق فيه : من الذوق الأدبى البليغ والدراسة الأدبية الواسعة والمتعمقة لمختلف فنون الأدب وألوانه فى العصور السابقة والعاطفة الشعرية المتأججة والنشأة الأدبية بين رجال الأدب والعلم فى عصره .. كل ذلك وغيره فجر عيون الشاعرية وينابيعها فى عقله وأفاض ماء الشعر فى قلبه وعلى لسانه فى فنون كثيرة من فنون الشعر العربى .

وقد نبغ "ابن النبيه المصرى" فى فنون الشعر العربى المتعددة المعروفة من : مدح وغزل ووصف وطبيعة وخمر ورثاء وشكوى وعتاب واعتذار وغير ذلك مما هو معروف فى فنون الشعر العربى، إلا أنه كان عظيماً حين نراه مادحاً متغنياً ببطولة ممدوحيه ومجدهم وتصوير المعارك الحربية التى دار بين المسلمين والصليبيين فى وقائع عديدة أو متغزلاً غزلاً رقيقاً عذباً أو وصّافاً لجمال الطبيعة وإظهار جمالها وتصوير مفاتنها وإشاعة البهجة والحركة بين مظاهرها أو وصافاً للخمر مصوراً لها عظيم التصوير .

وشعر "ابن النبيه المصرى" يصور حياته ويمثل ثقافته ويسجل أحداث عصره تسجيلاً عظيماً سواء كانت أحداثاً سياسية أو اجتماعية أو دينية ويمثل عادات عصره وتقاليده تمثيلاً واضحاً سواء كانت حسنة أم قبيحة . وسوف نتحدث عن أغراضه حديثاً مفصلاً منفرداً حتى يتسنى لنا الوقوف على أهمها وخصائص كل غرض من هذه الأغراض .

الفصل الأول

المدح في شعر ابن النبيه»

يعد المدح من الأغراض الشعرية القديمة التى عرفت فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى ومن أكثرها شيوعاً وانتشاراً حيث اتسع فيه القول فى العصور الأدبية المتعددة وكان وسيلة الشعراء إلى الغنى والجاه والوصول إلى قصور الخلفاء والملوك والوزراء لنيل عطاياهم ومنحهم وهباتهم خاصة فى العصر الأيوبى الذى كثر فيه هذا اللون من الشعر حيث كان الشعر حرفة وصناعة يعيش منها الشعراء ويتكسبون أرزاقهم بسببه وأصبح المديح سلعة تباع وتشترى مثله فى ذلك مثل باقى ألوان التجارة والبيع والشراء .

وابن النبيه المصرى - وهو الشاعر الذى قضى حياته متكسباً بشعره - كان من أكبر الشعراء وأكثرهم نتاجاً لشعر المديح حيث يحتل شعر المدح الجانب الأوفى من ديوانه ويستحوذ على النصيب الأكبر من شعره وبما يعده فى عداد شعراء المديح فى العصر الأيوبى بل والشعر العربى بوجه عام ويبلغ ديوان الشاعر نحو عشرين وأربعمائة صفحة أكثر من نصفه فى شعر المدح ويتناسب ذلك مع حياة الشاعر ونفسه فقد عاش حياته متكسباً بشعره ومتخذاً شعر المديح حرفة وصناعة بجانب وظيفته فى ديوان الإنشاء التى تولاها فيما بعد أيام "الملك الأشرف" الذى اتخذه كاتباً لإنشائه.

وقد مدح "ابن النبيه المصرى" ممدوحين كثيرين : فمدح الخليفة "الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيىء بن المستنجد" ومدح "الملك العادل" و "الملك الأشرف" إلا أنه لم يمدح "صلاح الدين الأيوبى" كما زعم البعض حين عده ضمن مجموعة من الشعراء مدحوا صلاح الدين الأيوبى بقوله : "وحظى صلاح الدين بكثير من المدائح من كثير من الشعراء "كابن سناء الملك "وابن الساعاتى "وعماد الدين الأصبهانى" "وابن قلاقس السكندرى "والأسعد بن مماتى" وابن النبيه وغيرهم من الشعراء"[١] .

---

(١) ص٣٢ ابن سناء الملك : حياته وشعره . تحقيق : محمد إبراهيم نصر. مراجعة : د/ حسين محمد نصار . طبع : وزارة الثقافة المصرية عام ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م .

فابن النبيه لم يمدح "صلاح الدين الأيوبي" ولم يتصل به لأنه كان حديث السن حينذاك ولم يرد في ديوانه بيت واحد يمدح به هذا البطل المسلم .

كما مدح : "المظفر شهاب الدين غازي"ابن "الملك العادل" والحاجب "حسام الدين على بن حماد الموصلى" و "على بن الخليفة الناصر" و "القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على العسقلانى" و "الأسعد بن مماتى" و "الصاحب بن شكر" ، وولده .

وأكثر مدائح ابن النبيه فى الملك "الأشرف موسى بن الملك العادل" حيث تبلغ قصائده فى مدحه أكثر من سبعين قصيدة أما مدائحه فى "الخليفة الناصر" العباسى فتبلغ ثلاث قصائد ومدح "الملك العادل" بقصيدتين اثنتين .

ومدح "القاضى الفاضل" بست قصائد والصاحب "نجم الدين بن المجاور "بثلاث قصائد وولده" عليا "بقصيدة "والمظفر بن العادل" بقصيدة واحدة والحاجب "حسام الدين" بقصيدة واحدة .

والأسعد بن مماتى بقصيدة واحدة كذلك .

"مدائحه فى الخليفة "الناصر" "الخليفيات" :

مدح "ابن النبيه المصرى" الخليفة العباسى "الناصر" بثلاث قصائد شعرية انتحى فيها نهج شعراء الشيعة فى مدائحهم لأئمتهم: من المبالغات والخروج عن الحد المألوف فى المدح، فلم يكتف الشاعر بتصوير الممدوح ووصفه بالشجاعة والمروءة والقوة والكرم والوفاء بالعهد وأنه البطل الفاتح الذى قاد الجيوش للدفاع عن الإسلام والمسلمين وأنه يبيع نفسه فى سبيل الله لايريد مالاً ولاجاهاً أو تضمين مدائحه بأوصاف وأخلاق جاء بها الدين الإسلامى: من الصدق والعدل والتقوى والورع والحب لله ورسوله والمحافظة على شعائر الدين وغير ذلك بل بالغ فى مدائحه وغلا

غلواً كبيراً كأنه شاعر شيعى يمدح إمامه مضفياً عليه صفات الإمام وخصائص الإمامة متخذاً من عقائد الشيعة كثيراً من الأفكار والمعانى والألفاظ التى اختص بها شعراء الشيعة والتى استمدوها من صميم عقيدتهم الشيعية .

وقد تأثر "ابن النبيه" فى ذلك بشعر العقائد الفاطمية التى كانت موجودة فى مصر أيام الحكم الفاطمى وظلت مدة فى مصر بعد زوال الدولة على الرغم من محاربة "صلاح الدين الأيوبى" لها وتحويل مصر إلى المذهب السنى والحكم السنى، فقد ظلت العقيدة الشيعية فى نفوس بعض المصرين وإن كانوا قلة حتى قضى على التشيع فى مصر نهائياً بعد قرنين من الزمان من حكم الأيوبيين لها وأصبح سكان مصر جميعاً يدينون بالمذهب السنى وحتى اليوم .

وشاعرنا "ابن النبيه" كان أجرأ شاعر سنى فى عصر الأيوبيين مبالغة وغلواً فى الأخذ من عقائد المذهب الشيعى الفاطمى وكان أكثر شعراء عصره استخداماً فى مدائحه للخلفاء حتى ذهب البعض بسبب ذلك إلى تكفيره واتهامه فى دينه .

ومضى "ابن النبيه" على هذه الشاكلة فى مدائحه للخليفة العباسى وكأنه يمدح إماماً من أئمة الشيعة .

فمن ذلك قصيدته التى يمدحه فيها فيقول : (١)

بَغْدادُ مكتنا وأحمد أحمد ... جحُوا إلى تلك المناسك واسْجدُوا
يامذنبين بها ضعوا أوزاركم ... وتطهّروا بتربها وتهجّدوا
فهناك من جسد النبوة بضعة ... بالوحى جبريل لها يتردَّدُ
بابُ النجاة مدينةُ العلم التى ... مازال كوكب هدْيها يتوقَّدُ
مابين سدْرته وسُدَّة دسْته ... نبأ يُقرُّ له الكفور الملحدُ

(١) ص٨٣ - ٩٠ ديوان ابن النبيه المصرى من بحر : الكامل .

هذا هو السرُّ الذى بَهَـر الورى ... فى ظهـر آدم فالملائـك سُجَّدُ
هذا الصراط المستقيم حقيقـةً ... من زلَّ عنه ففى الجحيم يُخلَّدُ
هذا الذى يسقى العطاش بكفّه ... والحوض مُمتنع الحمى لايـورد
سمعـاً أميـر المؤمنين لمدْحَـةٍ ... صدقتْ فهل أنا قارىءٌ أو منشد
القائـم المهدىُّ أنـت بقيّـة الـ ... إسـلام تَمْهـدُ سـارة وتشيَّـدُ
بُعْداً لمُنْتَظرٍ سواهُ وقـدْ بَـدَتْ ... منـه البراهيـنُ التى لاتُجْحَدُ
إن كـان فوق الطـور ناجـى ربَّهُ ... موسـى نبلعـراج أنتم أزيَـدُ
أو كان يوسفُ عَبَّرَ الرُّؤيا فكـمْ ... للغيـب منكم مصدرٌ أو مـورد
اللـهُ أنـزل وحْيَـهُ لمحمـدٍ ... وإليكُـمُ أُفْضـى بـذاك محمـدُ
ياساكنـى دار السـلام لجاركـم ... شـرفٌ أنافـكـم عليـه وأحْسدُ
إنِّـى أودُّ إذا وطئتـم أرضهـا ... لـو أنَّ تُرْبتهـا لعينـى إثمدُ(١)
إن الخليفـة مـن ذؤابة هاشـم ... للديـن والدنيـا دليـلٌ مرشـد
الدهـرُ فـى يده فجـودٌ مُرْسَـلٌ ... سَبطٌ وبأسٌ مكفهـرٌّ أجْعَـدُ
يامـن لمبغضه الجحيـمُ قـرارُه ... ولمـن يُوَالِيـه النعيـمُ السَّرْمَـدُ
لـولا التقيـه كنتُ أوّلَ معْشرٍ ... غالـوا فقالـوا أنت ربٌّ تُعْبـدُ

فهذه الأبيات التى مدح بها "ابن نبيه المصرى" الخليفة العباسى "أحمد الناصر لدين الله" لاتقل مبالغة وغلواً عن مدائح الشيعة لأئمتهم إن لم تكن أشد غلواً وإسرافاً، ويظهر فيها ظهوراً واضحاً مدى تأثر الشاعر بالعقائد الفاطمية ومدى ثقافته إياها ثقافة واعية لاتقل عن ثقافة شاعر شيعى اتخذ التشيع له عقيدة ومذهباً، كما نلحظ هذا الغلو الشنيع فى وصف الممدوح والمبالغة الممقوته فى وصفه لدرجة أننا لانكاد نجد لذلك شبيهاً أو مثيلاً حتى من بين الشعراء الشيعيين، وإذا كان للشاعر الشيعى أن يمدح إمامه بما يعتقد هو فيه فإنه لايجوز ذلك لشاعر سنى المذهب "كابن النبيه المصرى" الذى فاق الشعراء الشيعيين أنفسهم غلواً وإسرافاً.

---

(١) الإثمد : حجر يكتحل به . وقيل هو ضرب من الكحل كما جاء فى اللسان .

وواضح فى الأبيات تأثر ابن النبيه بالعقائد الفاطمية بل إن الأبيات تغرق فى سيل من هذه العقائد واستمد الشاعر أفكاره ومعانيه وبعض ألفاظه من المذهب الشيعى، ففى البيت الأول يجعل الشاعر بلد الخليفة "بغداد" يجلعها "مكة المكرمة" التى يقصدها المسلمون لتأدية مناسك الحج وذلك على حسب عقيدة الشيعة فى عقيدة "التأويل" و "الظاهر والباطن" حيث يعتقد الشيعة أن الحج فى التأويل الباطن : قصد الإمام ولو مرة فى العمر، بخلاف الحج الظاهر الذى يتفقون فيه معنا نحن أهل السنة، وكذلك قوله : "وأحمد أحمد" : حيث جعل الشاعر "أحمد الناصر" هو "أحمد" صلى الله عليه وسلم تبعاً لعقيدة الشيعة التى يقولون فيها "بالأدوار" أى أن كل نبىّ يأخذ دور النبى السابق وهكذا حتى أخذ علىٌّ بن أبى طالب دور النبى "محمد" صلى الله عليه وسلم ثم أخذ أولاده دوره من بعده وهكذا، فمحمد هو عيسى وهو موسى وهو إبراهيم ونوح ألخ .

ويبالغ الشاعر ويفصح عن هذه العقيدة فى الشطر الثانى من البيت الأول والبيت الثانى معاً، ثم يجعل الشاعر الخليفة العباسى بضعة من جسد النبى صلى الله عليه وسلم تبعاً لقول الشيعة وتأثراً بحديث النبى صلى الله عليه وسلم "فاطمة بضعة منى" ولطالما مدح شعراء الشيعة أئمتهم ووصفوهم بذلك وذلك على الرغم من أن الشاعر والخليفة يعلمان أن الخليفة ليس من سلالة النبى صلى الله عليه وسلم ولكنه الغلو والإسراف فى الأخذ من عقائد الشيعة، حيث جعل الشاعر الخليفة من أولاد فاطمة الزهراء رضى الله عنها وإن لم يكن كذلك .

ثم يصف الشاعر الممدوح بأنه "باب النجاة" وأنه "مدينة العلم" وذلك من قول النبى صلى الله عليه وسلم : "أنا مدينة العلم وعلى

بابها" وهذا الحديث يرويه الشيعة ويستدلون به على عظم مكانة "على" رضى الله عنه، وابن النبيه لم يجعل ممدوحه باب المدينة كما يرى الشيعة بل جعله هو المدينة ذاتها غلواً وإسرافاً وكأنه جعل الممدوح فى مقام النبى صلى الله عليه وسلم، ثم يستمر الشاعر فى الأخذ من العقائد الشيعية بجرأة وصراحة وغلو وإسراف فيجعل الممدوح : "باب النجاة" وأنه "الصراط المستقيم" وأن محب الخليفة فى الجنة ومبغضه فى النار مثلما يعتقد الشيعة فى أئمتهم، وأنه هو الذى "يسقى الظمأى" وأنه هو "السرّ الذى بهر الورى" تبعاً لعقيدة الشيعة فى مرتبة النبوة والإمامة وتنقلهما من إمام إلى إمام، ثم يرى أن ممدوحه "القائم المهدى" أخذاً من عقيدة : "المهدى المنتظر" الذى يملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً وظلماً، ثم نرى الشاعر يشبه الممدوح "بموسى" و "يوسف" عليهما السلام بل ويرفعه عليهما حيث يفوق "موسى" بالمعراج ويفوق "يوسف" بعلم الغيب وهذا غلو شنيع ومخالفة لما جاء به القرآن الكريم الذى يقصر علم الغيب على الله تعالى حيث يقول : "وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو" بل إن ابن النبيه تجرأ وبلغ المدى فى غلوه حينما شبه الممدوح بالله وأنه لولا التقيةُ لظن الناس أن الممدوح إلهٌ يعبد .

فنرى إلى أى حد بلغ ابن النبيه فى غلوه وأنه بذلك فاق شعراء الشيعة أنفسهم الذين كانوا فى العصر الفاطمى حيث لم يجرؤ شاعر منهم على أن يجعل الإمام إلهاً وأنه يعلم الغيب كما جعل "ابن النبيه" ممدوحه العباسى بل إن الخلفاء الفاطميين أنفسهم حاربوا هذه الدعوة "دعوى الألوهية" أيام الخليفة" الحاكم بأمر الله" الفاطمى الذى صب نيرانه على هذه الطائفة التى زعمت به هذا الزعم الكافر فشتتهم وفرق شملهم فى الجبال وفروا وسكنوا "لبنان" خوفاً من بطش الحاكم. إنه الغلو الذى مابعده غلو بل هو الفسق والفجور ومغالطة الضمير والعقيدة من أجل حفنة من المال يريدها من الخليفة الممدوح .

ثم يستمر الشاعر فى قصيدته يمدح ممدوحه الخليفة فيقول :

مَلِكٌ إذا ظمئتْ شفاهُ رماحه ... فى معرك فَدَمُ الوريد المَوردُ
ملكٌ إذا التطمت صفوفُ جيوشه ... أيقنْتَ أنَّ البرَّ بحرٌ مُزبِدُ
يَعْلُوهُ من زمر الملائك فيلقٌ ... بالرعب يَنْصُرُ عزمه ويُؤيِّدُ
ياعاقداً للطعْن فَضْلَ لوائه ... مهلاً فأجنحةُ الملائك تُعْقَدُ
أنفَتْ صوارمُه الجفون فأصبحتْ ... بالنَّصْر فى قمم الخوارجُ تُغْمَدُ
إن كان أطمع مَنْكلياً صَفْحُهُ ... فوراء ذاك الصفح ناراً توقَدُ
عصفت رياح الصافنات بجيشه ... شداً فطار هباؤه المتبددُ
سد العجاجُ عن الهزيمة سُبْلَه ... فسقاه ماء الموت دجْنٌ أسودُ
ثم انجلى عنه القتامُ فهاربٌ ... ومُزمَّلٌ بدمائه ومصفَّدُ
خلط القنا بعظامه فتشابهتْ ... هى والقنا المتقصِّف المتقصِّدُ

وهكذا يمضى الشاعر يمدح الخليفة العباسى ويشيد بقوته وشجاعته فى ساحات المعارك موضحاً أن الله ناصره ومؤيده ومُمده بجند من ملائكته وبالرعب والفزع الذى يحسه أعداؤه عند لقائه، ويرى أن النصر دائماً حليفه وتأبى سيوفه إلا النصر دائماً على الخارجين عليه، وأنه حين يعفو ويصفح فإنه يفعل ذلك مع المقدرة فوراءه جيوش جرارة تعصف بالأعداء عصفاً وتتركهم مابين قتيل مغطى فى دمائه وهارب فار من لقائه وأسير مقيد فى أسره .

وفى الأبيات التالية يستمر الشاعر مصوراً هلاك أعدائه من الخارجين وموضحاً أنهم هم الذين خسروا وهلكوا بعصيانهم أما الخليفة فقد فاز بطاعة الله وسعده، ثم يختتم القصيدة منسباً الخليفة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعده من آل البيت وأن الله قد صلى وسلم عليه دائماً ثم يجعله إماماً من الأئمة .

وهكذا نرى "ابن النبيه" يخرج عن المألوف فى المدح وينحو نحو الغلو والإسراف فيه إسرافاً شديداً حتى إنه فاق غلو شعراء الشيعة أنفسهم فى أئمتهم واستخدم كثيراً من العقائد والمصطلحات الشيعية مؤثراً أسلوب القوة والألفاظ الجزلة التى تتلاءم وشعر المدح مضمناً أبياته بعضاً من الألفاظ المعجمية التى تحتاج إلى معاجم اللغة لشرحها وتوضيحها وذلك مثل: "العجاج" و "القتام" و "دجن"، ومقتبساً المعانى والأساليب القرآنية : مثل : "فوق الطور ناجى ربه موسى" وقوله : "يوسف عبر الرؤيا" ولفظ : "الصافنات" و "المزمّل" وغير ذلك .

ويلاحظ على هذه القصيدة أن الشاعر لم يمهد لها بمقدمة مطلقاً بل إنه دخل فى الموضوع الأصلى للقصيدة - وهو المدح - مباشرة وراح يمدح ممدوحه من أول بيت فيها حتى آخر بيت دون تمهيد أو تقديم بمقدمة .

وجاءت معانى الشاعر واضحة جلية لالبس فيها ولاغموض اللهم إلاما يتصل منها بالعقائد الفاطمية فإنها تخفى على غير الدارسين لهذه العقائد، وقد استمد الشاعر معانيه من العقائد الفاطمية ومعانى الشعراء الأقدمين وصاغها بأسلوبه صياغة جيدة رائعة تنم عن مقدرة الشاعر وعظم شاعريته إلا أنها تخلو من الجديد والمبتكر سواء كان ذلك فى المعانى أو التصوير أو الأفكار .

والقصيدة الثانية التى مدح بها "ابن النبيه" الخليفة العباسى" "أحمد الناصر لدين الله" استهلها بمقدمة طويلة تحدث فيها عن الخمر والطبيعة وتغزل فيها بالمذكر فى سبعة عشر بيتاً ثم تخلص منها إلى مدحه فقال : (١)

---

(١) ص٩٥ - ٩٩ ديوان ابن النبيه المصرى . من بحر البسيط .

فليس يُخْذَلُ في يوم الحساب فتى ... والناصر ابــن رسول اللـه ناصره
إمـامُ عـدلٍ لتـقوى اللـه باطنه ... وللجلالــة والإحســان ظاهره
تجسّد الحقّ في أثنــاء بردتــه ... وتوّجت باسمه العالى منابــره
نه على سرِّ سترِ الغيب مُشْترفٌ ... فمــا مــوارده إلا مصــادره
راعٍ بطرْفٍ حمى الإسلام ساهره ... ساطٍ بسيفٍ أباد الكفر شاهره
فى صدره البحر أو فى بطن راحته ... كلاهمــا يغمــرُ السُؤْل زاخـره
تقضى بتفضيله سادات عترتــه ... لـو كـان صادقــهُ حياً وباقره
كلُّ الصـلاة خـداجٌ لاتمام لهـا ... إذا تقضّتْ ولم يذكـرْهُ ذاكـرهُ
كل الكلام قصيـر عـن مناقبـه ... إلا إذا نظـم القـرآن شاعــرُه
مُحجّبٌ فى سجـوف العزِّ لو فرجتْ ... عن نور وجْهٍ يباهى الصبحَ باهـرهُ
رأيت ملكـاً كبيـراً فـوق سُدَّتـه ... جبريل داعيه أو مكيـالٍ زائـرهُ
طُوراً أضاءتْ لموسى نارَ جذْوته ... حتـى انجلـتْ لمناجـاة بصائـرهُ

نلاحظ أن هذا القسم من مدحه يزخر بالعقائد الشيعية ويفيض بالمبالغة والغلو فى المدح شأنه شأن القصيدة الأولى، حيث يمدح الشاعر ممدوحه العباسى وكأنه إمام من أئمة آل البيت لافرق حيث يجعله شافعاً لأتباعه يوم القيامة وهذا ماقالت به العقيدة الشيعية فى الأئمة، ثم يستخدم لفظى: "الظاهر" و "الباطن" وهما لفظان شاع استعمالهما فى شعر الشيعة وعقيدة التشيع حيث يجعل الشيعة لكل شىء ظاهراً وباطناً ويؤولون كثيراً من آيات القرآن الكريم على هذا. ثم يغالى ابن النبيه ويسرف إسرافاً شديداً فى مدحه للخليفة العباسى فيصفه بأنه يعلم الغيب - كما ذكر ذلك فى قصيدته الأولى - ولايخفى عليه سر مستور، وهو بهذا يفوق شعراء الفاطميين غلواً حيث لم يدَّع الفاطميون أنهم يعلمون الغيب بل إنهم تبرأوا من ذلك ومن كل من وصفهم به .

ثم يصف الشاعر ممدوحه ببعض الأوصاف الإسلامية فيرى أنه حامى حمى الإسلام ومبيد الكفر ومحطمه ويصفه بالجود والكرم وأنه عم السائلين بعطاياه بل إن البحر - الذى يضرب به المثل فى الجود - مقيم فى صدره وفى كفه .

ثم يغالى الشاعر فى أفكاره ومدحه لممدوحه فيفضله على كبار أئمة الشيعة ويرى أن هؤلاء الأئمة أنفسهم لو كانوا أحياء لأقروا بتفضيله عليهم وقد ذكر الشاعر : جعفر الصادق والإمام محمد الباقر لأنهما كانا على علم غزير ودراية واسعة بعلوم الشيعة المختلفة ؛ فى العقائد والعبادات والمعاملات بل كانا هما العلمان الكبيران اللذان وصل عن طريقهما علوم الشيعة إلى المتشيعين .

ثم يستمر الشاعر فى نهجه فيرى أن الصلاة لاتقبل بدون الصلاة والسلام على الخليفة الممدوح وذلك تبعاً لما يقوله الشيعة فى أئمتهم على الرغم من أن الممدوح ليس إماماً وليس من آل البيت وبالرغم من أن المادح سنى المذهب والعقيدة. إلا أنه النفاق والوصول إلى عطاء الخليفة ولو كان ذلك على حساب العقيدة والصدق فى القول .

ثم يستمر الشاعر فى مدح ممدوحه فيرى أنه مهما صور الإمام ووصفه فإنه أكبر وأعظم مما يقوله فيه ، ويرى ابن النبيه أن القرآن الكريم قد مدح الخليفة وأثنى عليه فى آياته وذلك على حسب عقيدة الشيعة الذين يؤولون بعض آيات القرآن الكريم على أنها فى الأئمة والثناء عليهم وتقديسهم .

ثم يصف الممدوح بأوصاف قدسية فيرى : أنه محجب فى سجوف العز، وأنه ملك كبير و "جبريل" داعيته و "ميكائيل" زائره

وذلك حسبما تقول العقيدة الإسماعيلية فى "التأويل" حيث يؤلون" الملائكة" على "الدعاة" والحجج فأخذها ابن النبيه ومدح بها ممدوحه الخليفة، ثم يجعل الشاعر "الخليفة " "موسى" نبى الله تبعاً لعقيدة "الأدوار" التى قال بها الشيعة .

ثم يستمر الشاعر فى مدح ممدوحه في قصيدته فيقول :

نضـاه سيفاً على أعداء دولتـه	ماكلُّ سيف له تُثْنَى خناصرُهُ
تَهْنَّ نُعْمى أميـر المؤمنيـن ودُمْ	ياأيها الأشرفُ الميمون طائـرهُ
بحدِّ سيفك آيات العصا نُسختْ	إذا تغـر عـن يوم الروع كافرهُ
سلْ الكُلى والطُّلى يامن يُساجله	فالرمحُ ناظِمه والسيـف ناثـرُه
تَنجَّستْ بدم القتلـى صوارمـهُ	وطُهرتْ بيـد التقـوى مـآزره
نَـضُّ النـوال سريـع البطش مُتَّئدٌ	كالدهر تُرْجى كما تُخْشى بَوادرهُ
إذا حبـا أغنـتْ الأيدى مواهبُهُ	وإن سطا سدَّتْ الدنيا عساكره
أيـن المفـرُ لمـن عـاداه من يده	والوحشُ والطير أتبـاعٌ تسايـره
إن يصعد الجوَّ ناشَتْـهُ خواطفـهُ	أو يهبط الأرض غالتْهُ كواسره
ياجامعـاً بالعطـا ياشَمْلَ عتْرتـه	كالقُطب لولاه ماصحَّتْ دوائـره
إنْ جاد شعرى فهذا الفضل علمنى	من غاص فى البحر جاءتـه جواهرُه

نرى "ابن النبيه" فى هذه الأبيات الأخيرة من القصيدة يمدح ممدوحه بمعان وصور مألوفة قد طرقها الشعراء السابقون فى مدائحهم حيث مدحه بالشجاعة والقوة والبطولة والحزم وشدة البطش ولايستطيع العدو النجاة من بطشه حتى ولو طار فى الجو أو هبط فى الأرض، كما وصفه بالجود والكرم والتقوى والشرف وبيمن الطالع، وكل هذه المعانى زخر بها شعر المدائح فى العصور السابقة وصاغها الشاعر بأسلوب جيد يتلاءم مع شعر المديح قوة وجزالة، وقد وفق الشاعر فى اختيار ألفاظ وأسلوب قصيدته حيث آثر الألفاظ القوية والأسلوب المحكم المتين الذى يتلاءم مع شعر المديح

وجاءت الألفاظ مختارة موحية معبرة عن معانى الشاعر وأفكاره تعبيراً دقيقاً واضحاً ولانحس فى أبياته نبواً أو نفوراً بين الكلمات بل جاءت متسقة مع الوزن العروضى وغرض المدح فزاد ذلك من جمال الأبيات وحسن سبكها فضلاً عن أن القصيدة تزخر بالعقائد الشيعية التى جعلها الشاعر محوراً أساسياً فى أفكاره ومعانيه وكانت كقطب الرحى الذى دارت عليه قصيدته، ويلاحظ استخدام الشاعر لألوان البديع - من طباق وجناس ومراعاة نظير وغيرها - فى قصيدته ولكن دون تكلف أو تصنع بل جاءت فى موقعها الملائم واستدعاها المعنى وزادت الأسلوب جمالاً على جمال .

فالقصيدة تتجمع فيها كل طاقات البلاغة والتصوير وخصائص الشاعرية وأدوات البيان وخرجت فى وحدة فنية رائعة .

والقصيدة الثالثة التى مدح بها الشاعر خليفته العباسى "الناصر لدين الله" هى التى يقول فيها :[١] .

آنسْتُ بالعراق بَرْقـاً مُنيـرا   فَطَوتْ غيْبها وخاضتْ هجيـرا
واستطابـتْ ريَّـا نواسم بغدا   دَ فكادتْ لولا البُرى أن تطيرا

وقد استهلها الشاعر بمقدمة تمهيدية تحدث فيها عن الطبيعة : من برق وهواء ورياض وماء ونور وهى مقدمة قصيرة تبلغ أربعة أبيات خلص منها إلى مدح الخليفة بقوله :

بلَّغينـا دارَ الخلافـة يانـا   قُ لنقْضـى بعد السُّجود النذورا
عتبـاتٌ تُرابهـا ينبـت المجـ   ـدَ وجَوْ بالجـود أضحى مطيرا
قبلتهـا الملـوك حتىٌ شككْنـا   أحَصـىً فى رحابهـا أم ثُغُـورا

---

(١) القصيدة : ص.١٠٠ - ١٠٣، بحر : الخفيف .

حيث نجد الشاعر يبالغ فى مدح ممدوحه ويرفعه إلى درجة مقدسة، فالشاعر يريد الذهاب إلى دار الخليفة ليخرّ ساجداً ويقضى نزراً عليه للممدوح وذلك لايكون إلا لله تعالى وقد جعله الشاعر للخليفة - سامحه الله - ثم يرى أن عتبة دار الملك تنبت المجد وينتشر الجود والكرم فى أجوائها وأنها لعظم مكانتها قد قبلتها الملوك وكأنها نسك مقدس يقبله العباد .

ثم يستمر الشاعر فى مدح الخليفة ويمدحه بمعان وأفكار شيعية أخذها من صميم المذهب الفاطمى ومضى يمدح بها الخليفة وكأنه يمدح إماماً من أئمة الشيعة فيقول :

ياإمام الهـُدى سلامـاً سلاماً	زاد طيبـاً فزدتـه تكريـرا
نظـم اللـه فيـك فضْلَ أنـاس	كـان فيهم مقسمـاً منثـوراً
أهْل بيت قد أذْهب اللـه عنهم	كلَّ رجـس وطهّـروا تطهيـرا
ياابـن آل النبـىّ خابتْ صـلاة	لم تكنْ فى خلالها مذكـورا
قرن اللـهُ اسمه باسمـك العـا	لـى فـزاد جلالـةً وظهـورا
فَهْوَ عقدٌ على صـدور التحيّـا	ت وتـاجٌ جلابـه التكبيـرا
يامعينى إذا دجـتْ ظُلمةُ القَبْـ	ـر وخاطبتُ مُنكراً ونكيـرا
يامجيرى إنْ خفْتُ يوماً عبوساً	مُكْفهـّراً مستصعباً قمطريرا
يامغيثـى والنـارُ تُوقَـدُ بالنّـا	س وترْمى شررها المستطيرا
يادليلى على الصـراط إذا مـا	أدْهَشَ الخوفُ ناظرى تحْييدا
بولائى أُمنْـتُ مـن سيئاتـى	حيـن ألقى كتابىَ المنشـورا
فيـك سـرٌ لولاه ماقسم اللـ	ـهُ على الناس جنةً وسعيرا
قـد هداتـات بك السبيـل فإمّا	مؤمنـاً شاكـراً وإمّـَا كفُـورا
فعليـك السلام ياأقـرب النـا	س لمـن جـاء شاهـداً ونذيرا

حيث يصف "ابن النبيه" ممدوحه العباسى بأنه : إمام الهدى، وأن الله فضله كما فضل آل البيت - ويجعل الشاعر الخليفة

العباسى من أهل البيت وابن آل النبى صلى الله عليه وسلم وهو يعلم علم اليقين أنه ليس من آل البيت، ويرى أن الصلاة لايقبلها الله إذا لم يصلِّ على الأئمة ولم يذكر فيها الممدوح العباسى الذى جعله ابن النبيه من آل البيت والأئمة الشيعيين، وأن الله قد قرن اسمه بذكر اسمه فى الصلاة وفى الآذان، ثم يرى أنه المعين فى ظلمة القبر حين سؤال منكر ونكير وأنه الشفيع له يوم القيامة وأنه المنجى له من عذاب النار وأنه الذى سيقوده على الصراط وسيغفر الله له الذنوب بسبب حبه واعترافه بإمامه الخليفة وأنه يقسّم الناس بين الجنة والنار فمحبه فى الجنة ومبغضه فى النار وأنه الذى أخرج الناس من الكفر إلى الإيمان. وكل هذه الأفكار وتلك المعانى استمدها الشاعر من عقائد الشيعة فى مدح أئمتهم واتخذ هذه المعانى وجعلها لممدوحه الخليفة العباسى وكأنه إمام من أئمة الشيعة حيث لايوصف بهذه الصفات إلا أحد الأئمة من آل البيت وقد جعل الشاعر خليفته العباسى من آل البيت ومن آل النبى صلى الله عليه وسلم بل جعله أقرب الناس جميعاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كما ورد فى البيت الأخير .

وهذه القصيدة - التى تعد أقصر قصائده فى الخليفة العباسى حيث تبلغ واحداً وعشرين بيتاً - تتجلى فيها نزعة الشاعر الإسلامية حيث اقتبس الشاعر من أسلوب القرآن الكريم وضمنه قصيدته وذلك مثل :

أهل بيت قد أذهب اللهُ عنهم   كــل رجْـس وطهــروا تطهيــرا

فإن ذلك مقتبس من قوله تعالى : "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا"[١]

---

(١) سورة : الأحزاب . الآية رقم ٣٣ .

ومثل :

يامجيـــرى إن خفتُ يوماً عبوساً مكفهـراً مستصعباً قمطريـــرا

فإنه أخذه من قوله تعالى : "إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا"(١)

وقوله :

يامغيثـــى والنـار توقــد بالنـــ ـس وترمى شرارهـا المستطيـرا

فإنه أخذه من قوله تعالى : "إنها ترمى بشرر كالقصر"(٢) .

وقوله :

قـــد هدانـا بـك السبيـــل فإمّـا مؤمنـــاً شاكـــراً وإمّـا كفــورا

فإنه أخذه من قول الله تعالى : "إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا"(٣) .

وقوله فى البيت الأخير أخذه من قوله تعالى : "إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا"(٤) .

كذلك استخدم الشاعر بعض ألوان البديع من طباق وجناس ولكنها كانت قليلة ولم يتكلف فيها أو يتصنع .

وأسلوب القصيدة وألفاظها تدل على شاعر ماهر فنان قد وفق فى اختيار الأسلوب القوى والألفاظ الجزلة المعبرة الموحية التى تلائم شعر المديح .

وهكذا مدح الشاعر الخليفة العباسى وكان موفقاً فى شعره من الناحية الفنية حيث اختار الأسلوب والألفاظ القوية التى تلائم شعر المديح، وكانت معانيه وأفكاره فى معظمها تقليدية استقاها الشاعر من شعر المدائح فى العصور السابقـة، وإن أهم مايميــز مدائحــه فى

(١) سورة : الإنسان . الآية رقم ١٠ .
(٢) سورة : المرسلات . الآية رقم ٣٢ .
(٣) سورة : الإنسان . الآية رقم ٣ .
(٤) سورة : الفتح . الآية رقم ٨ .

الخليفة العباسى عن بقية شعره فى المدح : كثرة العقائد الشيعية التى سطرها الشاعر واعتمد فى معانيه وأفكاره وألفاظه اعتماداً كبيراً على هذه العقائد. وإن بدت العقائد الشيعية من أهم خصائص مدائحه بوجه عام إلا أن الشاعر قد أكثر منها كثرة مفرطة فى مدائحه للخليفة بشكل لا مثيل له فى مدائحه الأخرى، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن الشاعر يمدح خليفة يتصل بصلة القرابة من آل البيت وينتسب إلى العباسيين الذين كانوا يرون الخلافة حقهم لقربهم من النبى صلى الله عليه وسلم فضلاً عما قيل من أن الخليفة العباسى "أحمد الناصر لدين الله" كان يتشيع . فمدحه الشاعر وأسبغ عليه عقائد مذهبه حتى ينال الشاعر أقصى عطاء من الخليفة فقد كان "ابن النبيه" من المكتسبين بشعرهم كما قدمنا من قبل .

مدح الملك "العادل" "العادليات" :(١)

يطلق على الأشعار التى مدح بها "ابن النبيه" الملك "العادل" اسم "العادليات" نسبة إلى الملك الممدوح مثلما أطلق على القصائد التى مدح بها "ابن النبيه" الخليفة العباسى "أحمد الناصر لدين الله" الخليفيات" نسبة إلى الخليفة الممدوح .

وقد مدح ابن النبيه الملك "العادل" بقصيدتين اثنتين وردتا فى ديوانه القصيدة الأولى : تبلغ سبعة وعشرين بيتاً مهّد لها الشاعر بمقدمة غزلية أخذ فيها يتغزل بمحبوبته على عادة الشعراء العرب القدامى الذين كانوا غالباً مايبتدئون قصائد المدح - وغيرها - بمقدمة غزلية يتحدثون فيها عن الحب ويصفون المحبوبة ويبرزون جمالها ومفاتن الحسن منها .

وقد قدم ابن النبيه لقصيدته بمقدمة غزلية طويلة فاقت الأبيات التى خصصها للمدح وهو الغرض الأصلى لقصيدته، حيث تبلغ المقدمة نحو خمسة عشر بيتاً بينما أبيات المدح لم تتجاوز إثنى عشر بيتاً فقط .

ويقول "ابن النبيه" بعد مقدمته الغزلية الطويلة بمدح الملك "العادل" (٢)

سقَى اللهُ ميَّافارقين وقَدْ سَقَا سجالَ سَحابٍ لاتَغبُّ قطارُها (٣)

---

(١) هو : سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب بن شاذى أخو السلطان "صلاح الدين" الأيوبى . وقد ولد بدمش عام ٥٤٠ هـ ثم استقر بمصر عام ٥٩٦ هـ وملك معها البلاد الشرقية والشامية واليمن وبلاد أرمينية و "خلاط" إلا أنه أخطأ كأخيه حيث قام بتقسيم مملكته الواسعة بين أبنائه الأربعة فأعطى "الكامل" مصر . و "المعظم" بلاد الشام. و "الأشرف" البلاد الشرقية و "الأوحد" ميافارقين" وكان ملكاً عظيماً سياسياً مخلكا يحب العلماء وتوفى بدمشق أثنا خروجه للقاء الفرنج عام ٦١٥ هـ .

(٢) ص١١٣ - ١١٥ ديوان ابن النبيه . بحر الطويل .

(٣) ميافارقين: أشهر مدينة بديار بكر وهى من بلاد الروم وقد ذكر صاحب معجم البلدان: أن خالد بن الوليد اجتاحها وفتحها عنوة" ينظر ص٢١٤ جـ٨ معجم البلدان.

ومالىَ أستسقى لها صَيِّبَ الحيا ... وراحةُ سيف الدين تطفو بحارُها
ففى بحار مال قد تطلّع قَصرُها ... وفــى بحر مـاء يستقرُّ قرارهـا
هو العادل الظّلّامُ للمال والعدى ... خزائنــه قــد أقفــرتْ وديارُهـا
كريـمٌ لـه نفـس تجـود بمـا حـوتْ ... وأعجب شىء بعد ذاك اعتذارهـا
عليـمٌ بنـور اللـه ينظـر قلبُـه ... فلـم يُغْـنَ أسرار القلوب استتارها
حسـامٌ لــه حـدٌ يــروعُ مضاؤُه ... وصفْحة صفْح للذنوب اغتفارها
له راحةٌ فى السلمُ تُجنَى جنائُها ... ويـوم هيـاج الحرب تُوقَدُ نارُهـا
فأنملــه طــوراً غصــون نواضــرٌ ... وطوراً سيـوفٌ داميـاتٌ شفارهـا
إذا خطبـتْ مـن كفّـه فوق منبر ... فسـود جلابيب الشعور شعارها
بــه دمَّـر اللـهُ الصليـب وأهلـه ... به ملّـة الإســلام عــالٍ منارهـا
فلازالت الأفـلاك تجرى بنصـره ... ولازال عنــه قطبهــا ومدارهــا

حيث نجد الشاعر يمدح الممدوح بمعان وأفكار وصور تقليدية ابتكرها الشعراء السابقون واحتذاها اللاحقون ومنهم ابن النبيه، فنراه يمدح الممدوح بالكرم ويشبهه بالبحر وأنه عادل ومع ذلك نراه ظلاماً للمال فينفقه وللأعداء فيدمرهم وأنه صاحب نفس كريمة يجود بكل مايملك وأنه مسالم وقت السلم ويبلغ المدى فى قوته وشدته وقت الحرب فأنمله ناضرة وقت السلام دامية قاطعة فى الحرب، ثم يشيد به وبانتصاراته على الصليبيين ويرى أن الله دمرّ به الصليب وأهله ورفع به راية الإسلام والمسلمين وأن الأفلاك تجرى بنصره، وكل هذه المعانى والأفكار قديمة احتذاها الشاعر إلا أنه صاغها بأسلوبه صياغة رائعة تنم عن شاعر فنان ملك ناصية اللغة وكل أدوات الشاعرية .

والشاعر قد وفق فى اختيار الألفاظ والأسلوب الذى يتلاءم مع شعر المديح حيث آثر الألفاظ القوية المعبرة الموحية بالمعنى القوى والتى تنبعث منها معانى القوة فى موطن القوة والإشادة بها، وإننا لانجد فرقاً بين أسلوب هذه الأبيات وطرق التعبير فى الشعر

العباسى حتى ليخيل إلى قارئها أن شاعرها عاش فى العصر العباسى .

وابن النبيه - كعادته - يستخدم بعض العقائد الشيعية فى قصيدته مع أنه يمدح ملكاً أيوبياً سنى المذهب ومن بيت قضى على الشيعة ومذهبهم فى مصر وغيرها من البلدان التى ملكوها إلا أنه التأثر العميق بعقائد الشيعة والغلو الواضح فى مدحه، حيث يصف الممدوح بأنه : ينظر بنور الله ويعلم الغيب ويغفر الذنوب كما هو وارد فى بيتيه : السادس والسابع، ومع ذلك فلم يتأثر الشاعر فى قصيدته بعقائد الشيعة كتأثره بها فى قصائده التى مدح بها الخليفة العباسى من قبل حيث فاضت بعقائد الشيعة ومذهبهم وغطت على أفكارها ومعانيها وصورها بل وألفاظها .

والقصيدة الثانية التى مدح بها الملك "العادل" تبلغ واحداً وثلاثين بيتاً وسار فيها على نهج القصيدة القديمة حيث بدأها بالغزل والحديث عن المرأة والحبّ وتصوير مفاتنها وإبراز مواضع الجمال منها وذلك فى نحو عشرة أبيات تخلص منها تخلصاً حسناً إلى غرضه الأصلى فى مدح الملك "العادل" ويذكر بناءه لقلعة الطور بالساحل فيقول : (١)

ياليلة الوصل استقرِّى ويا ... سيرة سلطان الورى سيرى
الملك العادلُ مَنْ أمَّهُ ... فقد رأى موسى على الطور
إن كان قد دُكَّ قديماً فقد ... عَمَّرْتُه أحسن تعْمير
كأنه تاج على مفرقٍ ... لمَّا استدارتْ شُرَفُ السُّور
يُزاحم النَجْمَ له مَنْكبٌ ... كالنجم فى الرفعة والنور
كأنما أوْ قَفْتَهُ حارساً ... ينظر من عكَّا إلى صور
فكلَّما لاح له بارق ... يرْتعد الصخرُ من الدَّور

---

(١) القصيدة ص١١٦ - ١٢١ ديوان ابن النبيه . بحر : الكامل .

بنــى سليمــان بأعوانــه   وأنــت بالغُــرِّ الجماهيــر
تصافـح الأحجــار أيــدٍ لهم   لاتَرْتضــى لَمْسَ الدنانيــر

حيث يجعل الشاعر ممدوحه سلطان الورى وشبهه "بموسى" نبى الله ويذكر بناءه لقعلة الطور ويشيد بعظمتها وقوتها وارتفاعها فهى: تزاحم النجوم فى الرفعة والنور ويرتعد الصخر من دورها ومقاصيرها وقد بناها وشيدها تشييداً قوياً لايقل عن تشييد سليمان وأعوانه لملكه .

والشاعر فى أبياته التى وصف فيها قلعة "الطور" قد تأثر بشعر المتنبى فى مدح سيف الدولة والإشادة ببنائه لقلعة "مرعش" (١).

ثم يمدح الملك فيقول :

دانــت لك الدنيــا وسكانهــا   مابيـــن أمَّــارٍ ومأمــور
تجـرى المقاديـر بمـا تشتهــى   مابيـــن تعسيــر وتيْسيــر
سعــادةٌ ليــس لهــا آخــرٌ   ولا ليـوم النفـخ فـى الصـور
هل يقدر الأعـداء أن يمسحـوا   ماخُــطَّ فــى لــوح المقاديـر
ياملكــاً تنســخ أيامــه   ماخُــطَّ من إفــك الأساطيـر
أسهــره الــذَّبُّ عــن الديــن لا   عشــق ربيبــات المقاصيــر
مؤيـد الرايـات والــرأى فــى   حالــة تدميــر وتدبيــر
إن جنحــوا للسلـم فاجنـح لهـا   ماخَــدَعُ الحــرب بتقصيــر
كـم لك في يافا وفى المرج من   وقائـــعٍ غــرٍّ مشاهيــر
عشـرون ألفـاً غيــر أتباعهــم   مابيــن مقتــول ومأســور
طهرت بيت القدس من رجسهم   وكــان مــأوىً للخنازيــر
ياذاكــراً للـــه ياناسيــاً   للعُــرْف مَــع كثْــرة تكريــر
إنىَّ محــلَّ الأجــر والشكر يــا   أكــرم مأجــورٍ ومشكــور

---

(١) ينظر ص ٦٦ جـ ١ ديوان المتنبى . تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى، وعبد الحفيظ شلبى

فالشاعر يمدح ممدوحه ويصفه بأوصاف رائعة مع أنها تتسم بالمبالغة حيث يرى : أن الدنيا وأهلها دانوا وخضعوا للمدوح وأن المقادير تجرى بما يقضى ويريد وأن الأعداء لايستطيعون مسح ماخط فى لوح المقادير من نصر مقدر قدره الله للملك وأن الملك قد نسخ بأفعاله وأعماله ماخط من إفك فى الأساطير، ثم أخذ يشيد به وبجهاده ضد الصليبيين والذب عن حياض الإسلام وأهله وأنه جعل كل همه نصرة الإسلام والدفاع عنه ولم يعشق الدنيا ولاحسناواتها ومفاتنها وراح يشيد بانتصاراته المتعددة على الصليبين فى "يافا" و "المرج" وتحرير "بيت المقدس" من رجس الصليبيين ثم يشيد بإيمانه وتقواه وذكره الدائم لله عز وجل .

فإننا نلاحظ فى الأبيات حماساً شديداً يعكس فى صدق صدى البطولات الرائعة التى أبداها الملك فى مقاومة الصليبيين وتلك الانتصارات الرائعة التى حققها على أعداء الإسلام، فالشاعر هنا فى أبياته قد تأثر بالحروب الصليبية تأثراً ،اضحاً أو أثرت الحروب فى شعره فراح يسجل تسجيلاً حياً هذه المعارك التى خاضها الممدوح ضد الصليبيين ويبرز الانتصارات التى حققها على أعدائه وأعداء الإسلام .

وماأجدر بهذه القصيدة أن توضع إلى فرائد "المتنبى" فى مدح "سيف الدولة الحمدانى" ، حيث راح الشاعر - وبنفس القوة والأسلوب - يمدح الممدوح ويسجل حروبه وانتصاراته تصويراً رائعاً متغنياً ببطولة ممدوحه ومشيداً بمجده كأنها ملحمة شعرية من ملاحم النضال والصمود والبطولة فى الشعر العربى وأتت الأبيات متوهجة بالحماس وفيها كل معانى العروبة والإسلام إلى أبعد مدى .

وقد صاغ ابن النبيه قصيدته صياغة فنية تتجلى فيها روح القوة والحياة وجاءت قوية فى ألفاظها وأسلوبها ومعانيها حيث

أفاضت روح القوة في نفسه على قصيدته، كما تمثل الأبيات ثقافته الواسعة المتعددة من أدبية وعقائدية ودينية ومذهبية .

والأبيات وإن كانت تكثر فيها ألوان البديع من جناس وطباق إلا أنها جاءت دون تكلف أو تصيد واستخدمها الشاعر فى موضعها بحيث لاتقوى على أسلوبه، فكان شاعراً ماهراً فناناً حقاً.

مدح الملك "الأشرف" : الأشرفيات "[١]

يعد الملك "الأشرف" أكثر المدوحين مدحاً وأعظمهم أثراً فى شعر ابن النبيه المصرى حيث استحوذ على الجانب الأعظم من شعره فى المدائح واحتل المرتبة الأولى بين ممدوحيه، وقد بلغت قصائد المدح التى نظمها "ابن النبيه " فى "الأشرف" نحو ثمان وسبعين قصيدة.

ويرجع ذلك إلى طول المدة التى قضاها ابن النبيه فى صحبة ممدوحه حيث لازمه فى حله وترحاله مدة طويلة وأصبح أثيراً لديه يستصحبه فى رحلاته وتنقلاته وأصبح شاعره الخاص وكاتب الإنشاء له يدبج عنه الرسائل ولقى منه كل إعزاز وإكبار وأغدق عليه الأموال

---

(١) الملك الأشرف : هو : أبو الفتح موسى بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب. الملقب بالملك الأشرف مظفر الدين. وكان محبوباً إلى الناس مسعوداً مؤيداً فى الحروب من يومنه . وقد ولد بقلعة الكرك عام ٥٧٨ هـ وقد ملك من البلاد مدينة الرها وقد سيره أبوه إليها من الديار المصرية عام ٥٩٨ هـ ثم أضيفت إليه حران ولم توفى أخوه الملك الأوحد أخذ الأشرف مملكته إضافة إلى مملكته ثم ملك نصيبين الشرق فى عام ٦٠٦ هـ وسنجار فى عام ٦١٧ هـ وله وقائع حربية كثيرة ضد الصليبين وانتصر عليهم فى معظمها. وتوفى الأشرف يوم الخميس رابع المحرم سنة ٦٣٥ هـ بدمشق ودفن بقلعتها وكان كريماً حليماً واسع الصدر كريم الأخلاق كثير العطاء لايوجد فى خزائنه شىء من المال مع اتساع مملكته وكان يميل إلى أهل الخير والصلاح ويحسن الاعتقاد فيهم . وقد مدحه أعيان شعره عصره وخلدوا مدائحه منهم : ابن النبيه " .

ينظر وفيات الأعيان جـ٥ ص٣٣٠ إلى ص٣٣٦ .

والمنح والهبات مقابل مدائحه إياه، وحينما اتصل "ابن النبيه" بالملك "الأشرف" انقطع إليه وحده ولازمه وأخذ يشيد به وبحروبه وانتصاراته على جيوش الصليبيين وراح يحرضه لقتال الصليبيين ويدفعه دفعاً لحربهم ولهذا التحريض كما نعلم أثره الوطنى فى النفوس، وظل "ابن النبيه" بجوار "الملك الأشرف" إلى أن توفى عام ٦١٩ هـ أو فى ٦٢١ هـ كما قيل .

وتعد مدائح "ابن النبيه" فى الملك الأشرف" أروع مدائحه على الإطلاق بل تعد أروع مدائح نظمت فى العصر الأيوبى ومن أخلد المدائح فى الشعر العربى بوجه عام، حيث تذكرنا بغرر مدائح "المتنبى" فى "سيف الدولة الحمدانى" "السيفيات" وأجدر بهذه المدائح أن تضم إلى فرائد" المتنبى" فى "سيف الدولة" حيث ترسم ابن النبيه خطى المتنبى فيها وراح يسجل فيها أحداث عصر ممدوحه بجوار مدحه وأضحت وكأنها ملاحم شعرية رائعة تصور البطولة والصمود الإسلامى ضد جحافل الكفر من أتباع الصليب .

وفى هذه القصائد تسجيل حىٌ لتلك المعارك والحروب التى خاضها الملك "الأشرف" وهذه الانتصارات التى حققها على أعدائه وأعداء الإسلام وتطفح بالتحريض على القتال ضد الصليبيين .

وقد تأثر "ابن النبيه" فى هذه المدائح تأثراً كبيراً بالحروب الصليبية وطبعت هذه الحروب بصماتها ظاهرة قوية عليها وراح الشاعر من خلال هذه الأشعار يدفع المسلمين دفعاً إلى قتال الصليبين وخوض المعارك معهم ليدرأوا الخطر الصليبى عن الإسلام والمسلمين وراح يثير النخوة الإسلامية فى نفوس الملك وجنوده ويشيد بمهاراتهم فى فنون القتال حتى يقوى من عزيمتهم ويشد من أزرهم وراح يتغنى ببطولاتهم ويسجل مفاخرهم فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين فى

شعر حماسى رائع أطلق على مثله بعض الباحثين "فن الشعور بالقومية الإسلامية"(١) حيث راح الشاعر - شأنه شأن معظم شعراء العصر الأيوبى - يدعو المسلمين جميعاً على اختلاف أجناسهم إلى الوحدة والوقوف صفاً واحداً للدفاع عن الإسلام لافرق بين عربى وتركى وفارسى وراح يشيد بالأتراك والعرب على السواء فى قصائده فكلهم مدافعون عن الإسلام وكلهم حققوا النصر على الصليبيين .

وقد تنوعت قصائد المدح فى "الأشرف" واختلفت فى بنائها ونهجها فأحياناً يمهد الشاعر لقصيدته بمقدمة غزلية تقليدية أخذ يتغزل فيها بالمرأة ويتحدث عن الحب ويبرز المفاتن منها وجاء ذلك قليلاً فى مدائحه، وأحياناً يمهد لقصيدته بمقدمة غزلية ولكنها تغزل فى المذكر لافى المرأة وشاع ذلك شيوعاً عظيماً فى مدائحه حيث احتلت المقدمة الغزلية بالمذكر المرتبة الأولى فى مدائحه وأصبحت وكأنها مقدمة مألوفة معهودة طبيعية وذلك وفقاً لأذواق العصر الذى عاش فيه الشاعر حيث عشق ذلك العصر وأحبه الناس على اختلاف طبقاتهم وأضحت القصيدة التى لايمهد لها صاحبها بهذا الغزل لاتلق رواجاً وانتشاراً بل يصيبها الخمول والكساد وشاعرنا - كما نعلم - شاعر متكسب بشعره فلابد وأن يساير أذواق العصر الذى يعيش فيه وهو عصر انتشرت فيه سيئة الشذوذ لكثرة الغلمان وماجلبه الفرس وغيرهم من غير العرب من عادات وتقاليد غريبة إلى المجتمع الأيوبى .

وأحياناً يمهد الشاعر لقصيدته بمقدمة يتحدث فيها عن الخمر ووصفها أو الدعوة إلى شربها وأحياناً بمقدمة يتحدث فيها عن

---

(١) ينظر ص٣١ دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبيين . الدكتور : محمد كامل حسين .

الطبيعة وتصويرها ووصف مفاتنها ومظاهرها وأحياناً يجمع الشاعر فى مقدمته بين الغزل والطبيعة أو الخمر والغزل أو الخمر والطبيعة أو الخمر والغزل والطبيعة معاً، وأحياناً يبدأ الشاعر قصيدته فى مدح الممدوح دون مقدمة مطلقاً وجاء ذلك قليلاً فى مدائحه .

ومن مدائحه فى "الأشرف" قصيدته الأولى التى يبدؤها بالدعوة إلى شرب الخمر ووصفها ثم يتغزل فى المذكر وذلك فى مقدمة تبلغ اثنى عشر بيتاً يخلص منها إلى مدحه بقوله: (١) .

أشكو إلى شَاهَ ارْمنٍ موسى المليـ ـك الأشْرف السبَّاق للغايـات
ملكٌ إذا اعتكر العجـاجُ رأيتـه طلْـق المحيـا واضح القسمـات
لو كـان قبـل اليوم كـان جبينُـه أولـى من التمثيـل بالمشْكـاة
جـرار أذيـال الجيـوش يحفُّهـا طيرُ السمـاء وكاسرُ الفلـوات
ضمنتْ لها عاداتُ نصْر اللـه أنْ تجـرى جرايتهـا على العـادات
أسْدٌ برائنهـا النّصـال تقحَّمـتْ أجَمَ الوشج فَغبْنَ فى غابـات
طلعتْ من الخُود الحديد وجوهُهم فكأنهـا الأقمـارُ فى الهـالات
واستلأمَتْ حَلَقَ الحديد جسومُهم فكأنهـا لُجـجٌ علـى هضبـات
يَرْمى بهـا سُبُلَ المهالـك ماجـدٌ كم خاض دون الدين من غمـرات
كم ركْعـة لقَنَـاهُ فـى ثُغَر العـدى ولسيفه فى الهمام من سجـدات

حيث راح الشاعر يمدح الممدوح مضفياً عليه صفات تقليدية فيصفه بالكرم وأنه سباق إلى الغايات وأنه طلق الوجه واضح القسمات، يقود الجيوش القوية التى تحفها الملائكة ويحوطها نصر الله دائماً وأن جنودها شجعان كالأسود التى تربّت فى الغابات، وكثيراً ماحقق النصر على أعدائه وأن سيوفه تظل متعطشة إلى أن ترتوى من دماء الأعداء .

وهذه المعانى والأفكار تقليدية إلى أن الشاعر صاغها بأسلوبه القوىّ الذى يتلاءم مع شعر المديح والحروب ونسجهـا بثـوب جديـد

(١) القصيدة : ص١٢٣ - ١٢٩ ديوان ابن النبيه المصرى . بحر : الكامل .

وأخرجها فى هيئة جديدة فبدت جديدة فى شكلها ونسجها .

ومع ذلك لانعدم فى الأبيات معنى أو صورة مبتكرة مثل قوله:

فى البيت السابع : فكأنها الأقمار فى الهالات" وقوله : فى البيت الثامن : فكأنها لجج على هضبات" أو ماجاء فى البيت العاشر.

ثم يستمر الشاعر فى بقية قصيدته مصوراً قوة الممدوح وقوة جيشه جنوداً وعتاداً إلى أن قال فيه :

هذا الذي أرضى العباد وربهم ... بغرائب الإحسان والحسنات
هذا الذي استغنى عن الوزراء فى ... تدبير عقد الرأى والرايات
هذا الإلهى الذى فى يومه ... ينبيك قبل غد بما هو آت
عينٌ بنور الله تنقلُ ماترى ... عن خاطر أصفى من المرآة
سبحان من جمع المكارم عنده ... وقضى على أمواله بشتات

حيث يصف الممدوح بالتقوى وفعل الحسنات ورجاحة العقل وحسن التدبير وأنه إلهى يعلم الغيب - سامحه الله - وأنه ينظر بنور الله وقد جمع عنده المكارم وبلغ المدى فى جوده وكرمه .

فهذه معان وأفكار وصور قديمة إلا أن الشاعر صاغها فى ثوب جديد من عنده وقد بالغ الشاعر - كعادته - فوصف الممدوح بأنه يعلم الغيب وهذه صفة طالما وصف بها ممدوحيه ولاأدرى لماذا يلحق الشاعر هذه الصفة بالممدوحين وهو يعلم علم اليقين أن الغيب لايعلمه إلا الله تعالى فهذا غلو قبيح وقع فيه الشاعر كثيراً وقد تناسى فيه مبادىء دينه من أجل المال وزينة الحياة الدنيا. ويرى الممدوح ينظر بنور الله كما يصف شعراء الشيعة أئمتهم ويلاحظ أن الشاعر لم يعتمد على العقائد الشيعية فى قصيدته مثلما اعتمد فى مدائحه للخليفة العباسى .

وقد كان الشاعر بارعاً فناناً حيث استخدم الألفاظ والأسلوب القوى الذى يناسب شعر المديح ووصف المعارك والحروب وآثر منها الألفاظ القوية المعبرة التى توحى بالقوة وينبعث منها لهيب الحرب انبعاثاً ويلاحظ عليه شيوع الألفاظ المعجمية فى أبياته، واستخدام ألوان البديع – خاصة الطباق والجناس – وإن جاءت عفوية دون تكلف أو تصيد فزادت أسلوبه جمالاً فوق جمال .

ومن مدائحه "للأشرف" قصيدته التى يذكر فيها هزيمته لعسكر "الموصل" على أبى شزه[١] ويبدؤها بالحديث عن الغزل فى المذكر حديثاً ماجناً وهو وإن لم يتفق مع شعر المديح بوجه عام إلا أنه أصبح فى العصر الأيوبى عادة مألوفة وبدعاً محموداً فى استهلال قصائد المديح وغيرها من القصائد تبعاً لأذواق العصر وأهله، وقد خلص الشاعر إلى مدحه بعد مقدمة تبلغ نحو ثلاثة عشر بيتاً فقال: [٢] .

تلقى أعادى موسى كما لقيتْ ... كُراتُهُ عند ضـــرْب جـــو كانـــه
الملـــك الأشـــرف الكريـــم يداً ... شـــاه أرمـــن عـــزّ سلطانـــه

ومضى على هذه الشاكلة يمدح ممدوحه ويصفه بأوصاف ويمدحه بمعانٍ تقليدية تدور فى معظمها حول : الوصف بالكرم والشجاعة وتصوير البطولة والإشادة بقوة الممدوح وتصوير المعركة تصويراً رائعاً حياً مصوراً جيشه بالبحر رائياً أن الله سبحانه هو الذى شيد ملك الملك فلا يستطيع أحد أن يهدمه رافعاً قدْره على كسرى وديوانه على إيوانه متوجهاً إلى آل الممدوح مخبراً إياهم أن شرف "الأشرف" زادهم شرفاً على شرف .

---

(١) أبو شزه : قرية أوقع فيها الأشرف بعساكر الموصل . ص١٥٧ جـ٣ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .

(٢) القصيدة : ص١٣٠ – ١٣٥ ديوان ابن النبيه . بحر : المنسرح .

وقد صاغ الشاعر قصيدته بأسلوب قوىّ وكسا معانيه وأفكاره ثوباً جديداً وظهرت فى أبياته سمة الاقتباس من القرآن الكريم التى اعتمد عليها الشاعر اعتماداً كبيراً فى مدائحه واستخدام ألوان البديع دون تكلف أو تصيد كما هو الحال فى شعره كله .

ونراه يمدحه بقصيدة أخرى مهّد لها بالغزل فى المذكر كذلك فى نحو ثلاثة عشر بيتاً وأخذ يمدحه ويشيد بقوته وشجاعته وقوة جيشه وعظمته ويرفعه على "آدم" عليه السلام فيقول :[1]

ملك له الفضلُ على آدمٍ والفضل لا يكسب بالمولد

وهذا غلو ممقوت وقع فيه الشاعر إذ كيف يرفع هذا الملك على "آدم" نبى الله وأبى البشر جميعاً؟ إنه الغلو والإسراف ومغالطة الضمير للوصول إلى قلب الممدوح وماله .

ومدحه كذلك بقصيدة رائعة مهد لها بالغزل فى المذكر فى نحو أحد عشر بيتاً ثم انتهى إلى مدحه فى أسلوب قوىّ محكم النسج والبناء غزير المعانى والأفكار مضمناً أبياته بعضاً من عقائد الشيعة منتهجاً فيها المبالغة فى إضفاء الصفات على ممدوحه فيقول :[2]

إن غاص ماء الرزق موسى وإن تغربُ شمسى إنه يوشع
ملك له الأملاك من رهبة ورغبة، أعناقها خُضّعُ

ثم يختتم القصيدة بالدعاء للممدوح بأن يبقى زخراً للإسلام مابقيت الحياة .

ومن قصائده الرائعة قصيدته التى يمدحه ويستعطفه فيها وقد استهلها بمقدمة غزلية رائعة أخذ فيها يتحدث عن الحب وظلم الحبيب

---

(١) القصيدة : ص١٣٦ - ١٤١ ديوان الشاعر . بحر السريع .

(٢) القصيدة : ص١٤٢ - ١٤٨ ديوانه . بحر : السريع .

ويصف المحبوب وصفاً رائعاً عفيفاً ويطلب وصاله وعطفه ورحمته ورضاه، وذلك فى نحو ثمانية أبيات وقد استهلها بقوله :(١)

أفديه إنْ حفظ الهوى أو ضيَّعا ... ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
من لم يذقْ ظلم الحبيب كَظُلْمِه ... حلواً فقد جهل المحبة وادّعى

وقد أخذت هذه الأبيات الغزلية شهرة واسعة ولحنت للغناء فى العصر الحديث حيث غنتها "أم كلثوم" .

وقد تخلص الشاعر من هذه الآبيات الغزلية إلى مدح ممدوحه تخلصاً حسناً بقوله :

الله أبدى البدر من أزراره ... والشمس من قسمات موسى أطلعا

ومضى يمدح الأشرف مدحاً رائعاً واصفاً إياه بأوصاف قديمة لكنها فى ثوب أسلوبه الجديد فوصفه بأنه : ساد الورى وأنه سهل فى مواقف السهولة، صعب فى مواقف الشدة، مفضلاً إياه على البرق والمطر والروض والبحر والسهم والسيف والصبح والنجم حيث فاق الممدوح كل هذه الأشياء فيقول :

يابرق هذا منك أصدق شيمة ... ياغيث هذا منك أحسن موقعا
ياروض هذا منك أبهج منظراً ... يابحر هذا منك أعذب مَشْرَعا
ياسهم هذا منك أصوب مقصدا ... ياسيف هذا منك أسرع مقطعا
ياصبح هذا منك أسفر غُرَّةً ... يانجم هذا منك أهدى مطلعا

ويلاحظ على الأبيات عذوبة ألفاظها ورقتها عن القصائد السابقة كما يلاحظ براعة الشاعر فى التوفيق بين المقدمة الغزلية وبين أبيات المدح والاستعطاف فكل منهما مدح واستعطاف وإظهار الخصال الحميدة .

---

(١) القصيدة : ص١٤٩ - ١٥٣ ديوان ابن النبيه . بحر : الكامل .

ومدحه بقصيدة رائعة قدم لها بالحديث عن الحب وعذابه وآلامه وذكر الشوق تجاه المحبوبة في غزل رقيق عفيف فى الأنثى فى نحو أربعة عشر بيتاً وخص أبيات المدح بأحد عشر بيتاً فقط حيث نلاحظ طغيان المقدمة الغزلية على الغرض الأصلى للقصيدة وهذه خاصية وقع فيها كثير من شعراء العصر الأيوبى .

وقد تخلص الشاعر تخلصاً حسناً من مقدمته إلى غرضه الأصلى وهو مدح الملك "الأشرف" بقوله :(١) .

إنما خدمة موسى جنة　　　عندها أوطاننا قد نسيتْ

ويمضى فى قصيدته مشيداً بممدوحه وقوته وشجاعته وبلائه فى ساحات المعارك والحروب وأنه مليك الدنيا والدين معاً وصفوة المجد وكم أذاق الأعداء من شدة بأسه .

وقال يمدحه بقصيدة تعد من قلائد مدائحه وغرر شعر المديح فى العصر الأيوبى عامة وهى التى يبدؤها بقوله :(٢)

من سحر عينيك الأمانَ الأمانْ　　　قتلت ربَّ السيف والطيلسان

حيث استهلها بمقدمة غزلية فى المذكر بلغت أحد عشر بيتاً ثم خلص منها إلى مدح "الأشرف" فيقول :

أعزّنى موسى ولولا هوى　　　معذِّبى ماذقتُ طعْم الهوان
الملك الأشرف شاه ارْمنٍ　　　مظفر الدين كريم الزمان
والله لو قيس به حاتمٌ　　　لقلَّ ماقد قيل عنه وهان
ذا ملأ الأرض بإحسانه　　　وذاك يمْتَنُّ بملْءِ الجفان
قد نظم الله له نسبةً　　　كالدر تجلوه نحور الحسان
طلق الندى طلق الحيا طلق نصْـ　　　ـل السيف طلق الأمر طلق اللسان

(١) القصيدة : ص١٥٤ - ١٥٨ ديوان ابن النبيه المصرى . بحر : الرمل .

(٢) القصيدة : ص١٥٩ - ١٦٤ ديوان ابن النبيه . بحر : السريع .

ومدحه بقصيدة رائعة أيضاً استهلها بمقدمة غزلية فى المؤنث ثم وصف الطبيعة وأظهر جمال مظاهرها من رياض وأشجار وطيور وأمواه وغدران ثم أخذ يصف الخمر ويصف ساقيها وذلك فى مقدمة تبلغ ثمانية عشر بيتاً تخلص منها إلى مدح الملك "الأشرف" بقوله: (١) .

فى أحسن الناس أشعارى إذا نَسَبتْ ... وفى أجلِّ ملوك الأرض إنْ مَدَحَتْ
ياطالب الرزق إنْ سُدَّتْ مذاهبُه ... قُلْ ياأبا الفتح ياموسى وقد فُتحتْ
لله كم روَّضتْ يُمناهُ من زمنٍ ... جَدْبٍ وراَضَتْ جيادَ الجُود إذْ جَمحَتْ
يُخْفى عطاياهُ والأيامُ تُظْهرها ... هيهات تخفى ريَاحُ الميسك إنْ نَفَحَتْ
سامَى السِّماك علواً فاسْتطال ولو ... ناوتْ ندى يده الأنواء لافتضحتْ
ملكٌ إذا التطمتْ أمواجُ عسكره ... سَبَّحْتُ والخيلُ بالأبطال قد سَبَحَتْ
ريحٌ إذا ركضتْ رعْدٌ إذا صهلتْ ... برقٌ سنابكها فى الصخْر قَدْ قَدَحَتْ
جُرْدٌ إذا لاعبتْ أعطافها مُلئتْ ... تيهاً وإنْ لمحتْ أقرانَها مَرِحَتْ

فالأبيات رائعة قوية فى أسلوبها وأفكارها ومعانيها وألفاظها وقد وفق الشاعر فى الملائمة بين التعبير والتصوير والموضوع فى وحدة فنية رائعة، وهو وإن كانت معانيه فى معظمها معانٍ قديمة إلا أن الشاعر قد صاغها بأسلوب جديد رائع وصور شعرية رائعة ومع ذلك نجد بعض المعانى الجديدة والصور المبتكرة التى جاءت بها مخيلته مثل ماهو كائن فى الأبيات : الثانى والرابع والخامس والسابع والثامن .

ويستمر الشاعر فى بقية القصيدة يمدح الملك "الأشرف" ويصور قوته وقوة جيشه وجنوده ثم يختم القصيدة بالدعاء للممدوح .

ويلاحظ خلو الأبيات من العقائد الشيعية وأسلوب الاقتباس وإن بدت فيها ألوان البديع واضحة إلا أنها عفوية دون تكلف وتصيد بل زادت جمال الأسلوب ورونقه وبهاءه .

---

(١) القصيدة : ص١٦٥ - ١٧٢ ديوان الشاعر . بحر : البسيط .

ومن مدائحه الرائعة للملك "الأشرف" قصيدته التى استهلها بالغزل فى غلام تركىٍ حيث أخذ يتغزل بالغلام وكأنه يتغزل فى امرأة وسط صور ومعان ماجنة ألم بها الشاعر فى مقدمته التمهيدية وذلك فى ثلاثة عشر بيتاً تخلص منها إلى مدح الملك "الأشرف" بقوله: (١)

أبو الفتح موسى الأشرف الملك الذى   يلوح كبدر التم بين القنا القانى
فتخضرُّ طوراً من ندى بطن كفّه   وتذبلُ طوراً من سُطاهُ بنيران

ويمضى فى مدحه معدداً صفاته ومثله ومايتمتع به من كرم وجود وشجاعة وأنه مليك ملوك الأرض وقد فاق كسرى فى ملكه وراح يشيد بحروبه وانتصارات التى حققها على الصليبيين ويفخر بقلاعه التى بناها وشيدها على الحدود بين دولته والصليبيين ويصفها وصفاً ينم عن عظمتها وعظمة بانيها متأثراً فى ذلك بشعر "المتنبى" فى مدح "سيف الدولة" والإشادة بقلاعه وحصونه التى بناها على أطراف دولته وعلى حدود الروم .

ومن مديحه الذى خطا فيه خطى "المتنبى" فى مدح "سيف الدولة" قصيدته التى يقول فيها يمدح "الأشرف" :

فالناس بين بنانه وبيانه   فى نعمتين رغائب وغرائب
وتهزّه فى السلم نَغْمة طالب   طرباً ويوم الحرْب صرخة طالب
سلْ عن مواقف بأسه لَمّا الْتقتْ   يوم الهياج كتائب بكتائب
لمعتْ أسنته على أعلامها   فكأنها شهبٌ ذوات ذوائب
وتأوّدتْ بين السيوف رماحُه   فكأنها الأغصان بين مَذَانب
تهوى الملوكُ إلى التثام تُرابه   فثغورهم كالدُرّ فوق ترائب
وتراهمُ زمراً على أبوابه   قد حُجّبوا بمهابة لاحاجب

(١) القصيدة : ص١٧٣ - ١٧٩ ديوان ابن النبيه المصرى . بحر : الطويل .

فقد تأثر "ابن النبيه" بشعر "المتنبى" فى الأفكار والصور والمعانى والمبالغة فى مدح الممدوح والوصول به إلى عنان السماء .

ومن مدائحه له قصيدته التى قدم لها بمقدمة طويلة بلغت خمسة وعشرين بيتاً من مجموع أبيات القصيدة التى تضم أربعة وأربعين بيتاً، حيث راح يتحدث فى المقدمة عن ترك البكاء على الأطلال وأخذ يصف الخمر والطبيعة حية وصامتة ثم انتهى إلى مدح ممدوحه بقوله :(١)

مليــك إذا ســار بين السيــوف ترى البدر بين اشتباك الكواكب

وهو تصوير رائع مبتكر ومعنى جميل . .

وقد مضى الشاعر يصف ممدوحه بالقوة والشجاعة وشدة البأس ويصور حربه تصويراً رائعاً مظهراً قدرة الممدوح على تحطيم جيوش الصليبيين وتهاوى تحصيناتهم أمام جيوشه الزاحفة مختتماً القصيدة بالدعاء للممدوح .

ومن مدائحه الرائعة والتى انتحى فيها نحو "المتنبى" فى مدائحه "وأبى فراس" فى رومياته قصيدته التى قدم لها بوصف الطبيعة والحديث عن الغزل وتخلص منها إلى المدح بقوله :

مليك يخوض الجيشُ ضَرباً بسيفه ومازال موسى بالعصا فالق البحر
عليم له سهـم من الغيب صائـب وماكل موسى مستمد من الخضـر
سيملك أقصى الأرض بشرى ضمانُها على الرأى والرايات والنصل والنصر
وجيش لعيـن الشمس كُحْلٌ بنقْعـه إذا رمدت من لمـع أسيافـه البُتْـرُ
دمـاء أعاديهـم شـرابُ رماحهـم وأجسامُهـم هدىً إلى الذئب والنسر
بقيـت لدين اللـه تُعلـى منـاره وتهـدم بالإسـلام قاعـدة الكفـر

---

(١) القصيدة : ص١٨٧ - ١٩٦ ديوان ابن النبيه المصرى . بحر : المتقارب .

حيث نرى التأثر واضحاً بين أبيات "ابن النبيه" ومدائح "المتنبى" وروميات "أبى فراس الحمدانى" سواء كان ذلك فى الأفكار أو المعانى أو التصوير أو المبالغة فى الصورة والمعانى إلا أن "ابن النبيه" قد غلا غلواً ممقوتاً - كعادته - حيث وصف ممدوحه بأنه يعلم الغيب سامحه الله تعالى .

ويلاحظ أن الشاعر كان فناناً ماهراً فى اختيار أسلوبه الملائم وألفاظه القوية المعبرة والموحية بالمعنى والتى تناسب مقام المدح ووصف الحروب والمعارك. كما يلاحظ تأثر الشاعر بالاقتباس من القرآن الكريم ويدا ذلك واضحاً فى البيت الأول والثانى .

ومن مدائحه الرائعة التى تعد من غرر المدائح وأجدر بها أن تضم إلى غرر "المتنبى" فى سيفياته قصيدته التى يقول فيها بعد أن مهّد لها بالغزل فى المؤنث فى أربعة عشر بيتاً [(١)]:

فعيـنُ هذا تُراعى وصْل غانية ... وعينُ موسى عن الإسْلام لم تَنم
الأشـرفُ الملك الوهّاب مبتدئـاً ... شمُّ الأنـوف بما فيها من النعم
نال العُلى بيدٍ بيضـاء مابرحتْ ... من فوق كلّ يدٍ أو تحت كل فم
اللـه أكبر كم رزقٍ وكم أجـلٍ ... يُجريها بين حدّ السيـف والقلم
ياموقد النار للأضياف من كـرم ... وموقـد النـار للأعـداء من نقم
السيفُ مثلك طلْق الوجه مبتسم ... إذا اكفهرّتْ وجوهُ الخيـل والبُهُم

إلى أن قال :

شرّفْتَ أبوب ياموسى كما شرفت ... بالمصطفى نفس إبراهيم فى القدم
أعـدت للديـن والدنيـا وساكنهـا ... عصر الشبيبة بعد الشيب والهرم

---

(١) القصيدة : ص٤٤٨ - ٤٥٤ ديوان ابن النبيه المصرى . بحر : البسيط .

فالقصيدة رائعةَ تفوح بالقوة فى ألفاظها ومعانيها وصورها ووزنها وقافيتها على السواء وتطفح بالثناء على الممدوح وتزخر بالتحريض على قتال الصليبين وتعبر فى صدق عن عاطفة الشاعر نحو ممدوحه ونحو أبناء دينه .

ومن مدائحه الرائعة أيضاً فى "الأشرف" قصيدته التى مدحه فيها وهنأه بفتح "دمياط" وقد بدأها بالحكمة فى بيتين ثم أخذ يمدح الملك فى القصيدة ويشيد بقوته وشجاعته ويهنئه بفتح "دمياط" فيقول : (١)

يَسْتَوْجِبُ النصرَ منْ صحَّتْ عزائمهُ ... ويقتنى الشكر من عمَّت مكارمه
بالنفس والمال نال المجْدَ طالبُه ... إنَّ العظيم لَمَنْ هانَتْ عظائمه
فى كل دَوْرٍ لهذا الدين منتظرٌ ... يشيده بعد ماتخفى معالمه
فاليوم كل إمامىّ يُوافقنا ... بأنَّ شاه ارمن المهدىّ قائمه
من يملأ الأرض عدلاً بعد ماملئت ... جوراً وتكشف عمّاها صوارمه
يايوم "دمياط" ماأبقيتَ من شرفٍ ... لمن تقدّم إلا أنت هادمه
عذراءُ نادت على بُعْدٍ فأنقذها ... ملك غيور مصونات كرائمهُ
رأتْ بنو الأصفر الأعلام طالعة ... والنقع يُرْمدُ عين الشمس فاحمُه
والجيش يلتف قطراه على مَلك ... كالليث يزأر حوليه ضراغمه
والجو يبكى سهاماً كلما ضحكتْ ... عن كل برقٍ يمانى غمائمهُ

فقد بدأ الشاعر قصيدته بحكمة تلائم موضوع القصيدة والمناسبة التى نظمت فيها وخرج منها إلى مدح الملك وأصبغ عليه الصفات الشيعية التى أصبغها الشيعة على أئمتهم حيث جعل "الممدوح" هو "المهدى المنتظر" الذى عاد ليملأ الأرض عدلاً بعد ماملئت جوراً وظلماً" وذلك وفقاً لعقيدة الشيعة فى "المهدى المنتظر"

(١) ص٤٥٥ - ٤٦٣ ديوان ابن النبيه المصرى - بحر : البسيط

وقد بالغ الشاعر حينما جعل الشيعة أنفسهم يؤمنون بأن ممدوحه - السنى المذهب - هو "المهدى المنتظر".

ثم أخذ الشاعر يتغنى بالنصر العظيم الذى حققه الملك "الأشرف" على الصليبيين وطهر "دمياط" من رجسهم ومضى يصور المعركة التى دارت بينه وبين الصليبيين مظهراً شجاعة ممدوحه وشدة بأسه وجبن الأعداء، وذلتهم فى هذا اليوم الذى نصر الله فيه الإسلام على الشرك وأهله :

ذلّوا لملك أعزّ اللـه صاحبـه	موسى سليمانُه والسيف خاتمه
وسلموها وردوا أهلها ومضوا	والثغر من فرح يفتر باسمه
كأنهم أبصروا ماقد مضى زمناً	كما يرى مزعج الأحلام نائمه
طهرت محرابها العالى ومنبرها	من رجسهم بعد ما ارتجست قوائمه
وقمت تكْسرُ تمثال المسيح به	برغم من هو باللاهوت لائمهُ
أشبهت جدك إبراهيم واتفقتْ	على عزائمك العُليا عزائمُه

ثم أخذ يصور الحزن الشديد الذى عم الصليبيين لهزيمتهم فى هذا اليوم المشهود، وراح يربط بين فتح "عمورية" وهزيمة الروم على يد "المعتصم" الخليفة العباسى وبين فتح "دمياط" وهزيمة الصليبيين على يد الملك "الأشرف".

والقصيدة بحق تعد من غرر شعر المديح فى عصر الشاعر والأدب العربى كله وتنبىء عن ناظم فنان ماهر ملك أدوات الشاعرية وموهبة فذة فى نظم القريض حيث لاتقل فى روعتها عن مدائح "أبى تمام" و "المتنبى".

ومن مدائحه الرائعة قصيدته التى يمدحه فيها هو والملك "الصالح محمود بن أرتق" صاحب "آمد"(١) حيث أخذ يمدحهما

(١) آمد : أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذكراً كما يقول ابن ياقوت فى معجم البلدان. ص٦١ جـ١.

ويشيد بهما ويهنئهما بالصلح الذى جرى بينهما وذلك بعد مقدمة طويلة تحدث فيها عن الغزل بالمذكر ووصف الخمر وذلك فى ستة عشر بيتاً ثم خلص إلى مدحهما بقوله : (١)

وجادت الدنيا على أهلها ... واصْطلح الأشرفُ والصالح
مَلْكان صنْوان كريمان ذا ... بحرٌ وهذا عارض سافح
طودان للأرض هُما المُلتجا ... بدران يستهديهما اللامح
موسى ومحمودٌ إذا استجمعا ... قُلتُ وقولى صادقٌ واضح
ذا يوسف رُدَّ أخوه له ... ومات النَّازع النازح

حيث أخذ "ابن النبيه" يمدح ممدوحين معاً فى هذه الأبيات ومضى يشيد بهما ويصفهما بمعان وأوصاف طالما رددها فى أماديحه إلا أنه كساها بقالب جديد، وهى فى معظمها معان وأوصاف وصور قديمة تقليدية، حيث وصفهما بالكرم وشبههما بالبحر والمطر وبالجبلين وشبههما "بيوسف" وأخيه حين رُدَّ إليه. وكلها معان وصور طالما تغنى بها الشعراء فى العصور السابقة إلا أن الشاعر قد أضاف فى معانيه وتصويره : حيث شبه رجوعهما إلى بعضيهما بعد الصلح برجوع أخو يوسف إليه .

ثم مضى "ابن النبيه" مبيناً أثر صلحهما على الإسلام من ناحية وعلى أعدائه من الصليبيين من ناحية أخرى :

اليوم تصْطلى صفحات العدى ... نيرانَ حرْب ريحُها لافحُ
اليوم تهتز متون القنا ... ويستطير الشيظم القادح
اليوم دار الشرك مأهولة ... يأوى لها الصَّائح والنائح
موسى جزاك الله عن دينه ... خيراً فما أنصفَك المادح
سعيت فى جميع شتات العُلى ... لله هذا العمل الصالح
أقررت عين المصطفى أحمد ... فوجهه مستبشرٌ واضح

---

(١) ص٣٤١ ومابعدها . ديوان ابن النبيه . بحر : السريع .

ومضى يشيد "بالأشرف" الذى حقق وحدة بين المسلمين بصلحه هذا .

وهكذا وفق "ابن النبيه" فى قصيدته أعظم توفيق حيث : لاءم بين الموضوع والأسلوب وجاءت أبياته معبرة عن مشاعره بكل الصدق والوضوح ونحسُّ فيها حماساً ونزعة إسلامية حقيقية وتحريضاً على قتال الصليبيين ودحر عدوانهم .

وقد اختار الشاعر الألفاظ القوية الموحية التى تنبعث منها المعانى القوية والتى تناسب شعر المدح والحروب .

وإذا كان "ابن النبيه المصرى" قد جاءت معظم قصائده فى المدح مقصورة على المدح وأحياناً مع التهنئة فإن له قصيدة جمع فيها بين المدح والرثاء وهذا من صعب الشعر ولايقدر عليه إلا شاعر فنان ملك ناصية الفن وأدوات الشاعرية حيث ينظم الشاعر شعراً فى فنين متعارضين وفى موقفين متضادين : موقف الثناء وموقف البكاء والعزاء، والقصيدة فى مدح الملك "الأشرف" وتعزيته فى ابن عمه الملك "الظاهر" صاحب "حلب" العزيز محمد " فيقول بعد مقدمة غزلية فى المذكر :[1]

ملك إذا ماطغى طوفان راحته	أرسى سفينةَ راجيه على الجودى
ياقاصد الأشرف أمسك عن سؤال فتى	إلى المكارم صبٌّ القلب معمود
أغرُّ يلقاك بالإحسان معتذراً	عُذْر المسيىء على مَطْلٍ وترديد
العاقد الرأى فى أعلام عسكره	فإن نشرْنَ فَعَنْ نَصرٍ وتأييد
والقائد الجيش كالبحر الخضمِّ وما	أمواجه غير صيْدٍ أو صناديد

ويستمر "ابن النبيه" على هذه الشاكلة وبنفس الأسلوب القوى والمعانى والصور القوية يشيد بممدوحه وقوته ويعدد خلاله وخصاله مشبهاً له بالبحر والليث فى الاندفاع والقوة إلى أن عزاه فى ابن عمه بقوله :

---

(١) ص٣٦٧ ومابعدها ديوان ابن النبيه المصرى . بحر البسيط .

إن كانت الأرض أخفت شخص ظاهرها فبالعزيز سلونا كل مفقود

ومضى فى تعزيته ثم عاد إلى مديحه وراح يحرضه إلى قتال الصليبيين ويدفعه دفعاً إلى قتالهم حماية للدين وأخذ يثير النخوة الإسلامية فى قلبه وقلوب أتباعه لتحرير بلاد المسلمين من أيدى الصليبيين فيقول :

جهزْ جيوشك إنَّ الثغر قد عبثتْ به الفرنُج فأضحى غير منضود
أيدركون بـه أوتـار قُدْسهم منكمْ وذلك ملك غير مردود
يا للرجال أناديكم لنازلـة تستنزلُ الماءَ من صُمِّ الجلاميد
أيـن الحميّةُ هبّوا من مناكمُ إمّا لعاجل دُنْيا أو لمعبود
مولاى خُذْها عروساً دُرُّ لَبَّتها من ابتكار وتزييد وتوليد
واستقبلْ العيد فى عزٍّ وفى نعم فالناس فى كل يوم منك فى عيد

وللشاعر مدائح أخرى كثيرة تفيض روعة وبراعة وتزخر بهذا الحماس الوطنى الإسلامى ومضى "ابن النبيه" على نفس الشاكلة يمدح الملك "الأشرف" ويسجل حروبه ويشيد بانتصاراته فى ملاحم شعرية رائعة قوية .

وإذا كان الشاعر قد جعل القصيدة هى القالب الشعرى لمدائحه فإنه أحياناً ضمن مدائحه فى موشحة[١] أو زجل[٢] أو فى صورة رسالة[٣] وبلغ من عظم شاعريته أنه كان يرتجل شعر المديح ارتجالاً[٤] ويشجر قصيدة المدح باسم الممدوح[٥] ويمدحه بقصيدة يذكر فيها فنوناً من الشعر ويخرج من كل فن إلى مدحه[٦] وهكذا.

(١) ص٣١١ ديوانه .
(٢) ص٣١٤ ديوانه .
(٣) ص٣٢٩ ديوانه .
(٤) ص٢٥٥ ديوانه .
(٥) ص٣٢٢ ديوانه .
(٦) ص٢٧٦ ديوانه .

مدح آخرين :

ومن الشخصيات التى مدحها "ابن النبيه أيضاً" الملك "شهاب الدين غازى" ابن الملك "العادل" الملقب "بالمظفر"، ولكن يبدو أن صلة الشاعر لم تتوثق به جيداً حيث لم يمدحه إلا بقصيدة واحدة فقط مما يدل على أنه لم يكن شديد الصلة به كأخيه "الأشرف" أو كأبيه "العادل" .

وقد مهد الشاعر لقصيدته بالحديث عن الخمر ثم انتقل إلى التغزل فى المذكر ثم انتقل إلى الغزل بالمؤنث ثم تخلص من ذلك إلى مدح الممدوح فقال :(١)

ذاك شهاب الدين مَنْ بابُه	كعبة جود كلُّ يوم تُزار
مُحتجبٌ بالجود يوم القرى	مُتوّجٌ بالمجد يوم الفخار
له بنانٌ طافحٌ بالندى	فَهُنَّ إمّاديمٌ أو بحار
بيض الأيادى خُضْر روض الرضى	حمر المواضى فى العَجاج المثار
يقظان ربّانيةٌ نفسُهُ	حمر المواخى فى العَجاج المثار
يقظان ربّانيةٌ نفسُهُ	فما أسرُّ الغيبُ منه استتار
مؤيدٌ تنصرُ أعلامه	بجيش أقدار وجيش اقتدار

ومضى الشاعر يمدح الممدوح بنفس المعانى والصور التى رددها من قبل ذلك فى شعره وإن جاءت بثوب جديد وقالب مختلف، فهو كعبة جود ويشبه البحر، وبيض الأيدى ويعلم الغيب ومؤيد بنصر الله وزلزل الأرض بغاراته وغير ذلك من هذه المعانى والصور المعروفة، ويلاحظ أن الشاعر قد خرج فى مدحه عن حد المألوف حيث جعل الممدوح يعلم الغيب وهو مارَدده كثيراً فى مدائحه سامحه الله تعالى .

(١) ص ٣٨٠ - ٣٨٢ ديوان ابن النبيه . بحر : السريع .

مدح القاضي الفاضل : (١)

يعد "القاضى الفاضل" من أبرز الشخصيات التى اهتم بها "ابن النبيه" فى مدائحه وخصه بخمس قصائد وموشحة من قصائده المدحية، ويدل ذلك على بعد الصلة وعظم العلاقة التى كانت بينهما كما يدل على أن الممدوح كان أثيراً لدى "ابن النبيه" وكيف لايكون ذلك كذلك والممدوح أديب كبير وشاعر عملاق وأستاذ جيل بأكمله من أدباء عصره ولانستبعد أن يكون "ابن النبيه" نفسه أحد تلاميذه الذين ربّاهم "القاضى الفاضل" وساعدهم وشجعهم نحو الأدب والشعر وحظوا بعنايته ورعايته .

وقد مضى "ابن النبيه" فى مدائحه "للقاضى الفاضل" يشيد به ويثنى عليه فى السلم والحرب مستخدماً معانيه وصوره المكررة فى مدائحه إلا أنه ألبسها ثياباً جديدة فبدت وكأنها جديدة، فمن مدائحه قوله فيه بعد مقدمة غزلية فى المذكر : (٢) .

والدهرُ بعد الجماح قد عطفتْ ... عنانَــهُ لى عنايــة الفاضــلْ
بحــرٌ إذا سحَّ والسَّحاب معاً ... يغيضُ غيظاً منه الحيا الهاطلْ
كــم راعٍ يوماً يراعُــهُ بطــلاً ... أىُّ شجــاعٍ فــى كفِّــه ذابــل
من قصب السبق حازه فغدا ... بكــل نُعْمَــى جُسيمُــهُ ناحــلْ
مـن سيفه السـمُّ للعـداة وفى ... راحــة راجيــه راحــة الآمــل

(١) اسمه : عبد الرحيم بن على العسقلانى البيانى . ولد عام ٥٢٩ هـ بعسقلان وكان أبوه قاضياً لمدينة بيسان فنسب إليها . وهو وزير صلاح الدين وتمكن منه وبرز فى الإنشاء وله فى الشعر أشياء حسنة. استمرت مكانته عند العزيز بعد وفاة صلاح الدين وعند ولده الملك المنصور بعده .
ولما استولى الملك العادل على مصر عام ٥٩٦ هـ خاف على نفسه من ابن شكر وزير العادل فإنه كانت بينه وبينه وحشة وصادف موته ليلتئذ .
ينظر النجوم الزاهرة جـ٦ ص١٥٧ .

(٢) ص٣٩٥ ومابعدها : ديوان ابن النبيه المصرى . بحر : المنسرح .

وفى هذه الأبيات نرى بعض المعانى الجديدة مثل قوله : "أى شجاع فى كفه ذابل" وقوله : "بكل نعمى جسيمه ناحل" .

ومن مدائحه فى "الفاضل" أيضاً قوله بعد مقدمة غزلية فى المذكر :(١)

أنـا عبـدٌ للفاضـل بـن علـى ... قـد تبتَّلـتُ للثنـا تبتيـلا
لا تَسُمْـهُ وعـداً بغيـر نـوالٍ ... إنه كـان وعـده مفعـولا
وإذا كان خَصْمَكَ الدهرُ والحكـ ... ـمُ إلى اللـه فاتخـذه وكيلا
جـلَّ عن سائـر الخلائق مدحاً ... فاخترعْنا فى مدحه التنزيلا
إنَّ مدْحـى لـه أشـدُّ وطـاءً ... وقريضى أقوى وأقوم قيـلا
راع أعـداءَهُ بصُغـر اليـراعـا ... ت فأنسى صَريرَهُنّ الصَّليـلا
فاستمـعْ لَفْظَـهُ ولُـذْ بحمـاه ... تَلْقَ قـولاً جزلاً ونَيْلاً جزيـلا
لا أذُمُّ الزمـانَ إذْ كُنْـتَ فيـه ... ياسَحَـاب الندى لرزقى كفيلا

نلاحظ فى الأبيات تكرير المعانى والصور إلا أن الشاعر قد أكثر من الاقتباس من القرآن الكريم فى هذه الأبيات أكثر من قصائده التى مضت فى مدح الممدوحين السابقين، ففى البيت الأول اقتباس من قوله تعالى : "واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا"(٢)، وفى البيت الثانى اقتباس من قوله تعالى : "السماء منفطر به كان وعده مفعولا"(٣) . وفى البيت الثالث اقتباس من قوله تعالى : "رب المشرق والمغرب لاإله إلا هو فاتخذه وكيلا"(٤) وفى البيت الخامس اقتباس من قوله تعالى "إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلا(٥)" فضلاً عن المبالغة فى المدح حيث جعل الشاعر نفسه

(١) ص٤٠٠ - ٤٠٢ ديوان ابن النبيه المصرى . بحر : الخفيف .
(٢) سورة المزمل الآية رقم ٨ .
(٣) سورة المزمل الآية رقم ١٨ .
(٤) سورة المزمل الآية رقم ٩ .
(٥) سورة المزمل الآية رقم ٦ .

عبداً للممدوح ورزقه فى يده وفاته أن الأرزاق كلها من عند الله والعبودية أيضاً لله تعالى .

وله أربع مدائح أخرى على هذا النهج فى الأسلوب والمبالغة وتكرير المعانى والصور إلا أنها جاءت فى ثياب جديدة[١] .

وقد مدح الشاعر كثيراً غير هؤلاء الممدوحين فقد مدح الحاجب "حسام الدين على بن حماد الأشرف"[٢] و "الصاحب الصفى بن شكر"[٣] و "الأسعد بن مماتى"[٤] و "علم الدين بن الصاحب بن شكر"[٥] و "الصاحب نجم الدين بن المجاور العزيزى"[٦] .

وقد سار الشاعر فى قصائده على نفس المنوال والمنهج والأسلوب الذى اتبعه فى سائر مدائحه حيث لم تكن مدائحه مختلفة المعانى والصور وإن اختلفت فى مبناها وشكلها وقالبها الذى صاغه الشاعر، ومع ذلك كنا نرى بين الحين والآخر معنى مبتكراً أو صورة مبتكرة استمدها الشاعر من بيئته وحياته وثقافة عصره وإن كان ذلك قليلاً .

---

(١) ينظر ديوانه : ص٤٨٣ ، ص٤٩٣ ، ص٤٩٧ ، ص٥٠٠ .
(٢) ينظر ديوانه ص٣٨٣ .
(٣) ينظر ديوانه ص٤٠٣ ، ص٤١٩ ، ص٤٢٦ .
(٤) ينظر ديوانه ص٤١١ .
(٥) ينظر ديوانه ص٤٢٧ .
(٦) ينظر ديوانه ص٤٧٣ .

خصائص مدائحه :

تتميز مدائح "ابن النبيه المصرى" بخصائص فنية واضحة .

تتلخص فى الآتى :

أولاً : سار "ابن النبيه" فى قصائد المدح أحياناً على منهج الأقدمين : من التقديم للقصيدة المدحية بالغزل وأطال التقديم إطالة واضحة حيث بلغت بعض المقدمات أحياناً إلى خمسة وعشرين بيتاً وجاءت فى بعضها متفوقة فى عدد أبياتها أبيات المديح .

وهذا التقديم للقصيدة بالغزل عرف منذ العصر الجاهلى حيث جاءت القصيدة العربية مبدوءة به وبذكر الأطلال ووصف الناقة التى تحمل الشاعر إلى الممدوح أو تبلغه ديار أحبابه وظل هذا التقليد إلى العصر العباسى عند كثير من الشعراء بل ظل إلى مابعده وحتى العصر الحديث .

ولكن يلاحظ على الشاعر (ابن النبيه) إكثاره من استخدام المقدمة بالغزل فى المذكر وجاءت معظم قصائده فى المدح بالتقديم فى التغزل بالمذكر وذلك مسايرة لروح العصر وأذواق الشعب الأيوبى حيث أحب ذلك كل طوائف الشعب تقريباً حتى الفقهاء منهم ولم يسلم شاعر من شعراء العصر الأيوبى من التغزل بالمذكر - خاصة فى التمهيد لقصيدة المدح - مسايرة لرغبات المجتمع الأيوبى وحتى تلق أشعارهم رواجاً فى سوق القريض خاصة وأن معظم الشعراء - ومنهم ابن النبيه - كانوا يتكسبون بأشعارهم فكان لزاماً عليهم أن ينهجوا هذا النهج فى شعرهم وإلا لبارت أشعارهم وأصابها الكساد وأفلس الشعراء .

ولم يقتصر "ابن النبيه" - وكما ظهر من خلال النماذج التى تعرضنا لها فى مدائحه - على التقديم لقصيدة المدح بالغزل سواء

كان مؤنثاً أو مذكراً بل استهل قصائده المدحية بمقدمات أخرى مثل المقدمة الخمرية والمقدمة الطبيعية أو التقديم لها بأبيات من الحكمة، وأحياناً يمهد للقصيدة بالحديث فى أكثر من موضوع فيجمع فى مقدمته بين الغزل والخمر أو بين الخمر والطبيعة أو بين الغزل والخمر والطبيعة معاً ثم يخلص منها إلى غرضه الأصلى فيتحدث فى المدح.

وقليلاً ماجاءت قصائده فى المدح دون تمهيد أو تقديم وخلت من المقدمة نهائياً وذلك مثل قصيدته الأولى التى مدح بها الخليفة العباسى "أحمد الناصر لدين الله" ومثل قصيدته الرائعة التى يمدح فيها الملك الأيوبى "الأشرف" لما حضر مع أخيه المعظم إلى دمياط والتى يقول فيها :[(١)] .

للـذة العيش والأفـراح أوقـات	فانشـر لواءً له بالنصر عادات
أمام جيشـك أنّى سـار أرْبَعَةٌ	نصْـلٌ ونصْـرٌ وآراءٌ ورايـات
وتحت غيل القنا فرسان معركة	لها ثباتٌ وفى الهيجاء وثْباتُ

ومضى يشيد بالأشرف ويصور قوة جيشه ويصفه وصفاً رائعاً مصوراً المعركة التى دارت بين الملك "الأشرف" والصليبيين تصويراً رفيع المستوى دقيق اللمسات رائع الصورة والوصف وذلك فى ملحمة شعرية رائعة تذكرنا بملاحم "المتنبى" فى سيفياته حتى آخر القصيدة دون تمهيد أو تقديم لها بأى نوع من أنواع المقدمات .

وتبعاً لذلك خلت معظم قصائده فى شعر المدح من الوحدة الموضوعية حيث عدد فى موضوعات القصيدة، إلا أنه ظهرت فى مدائحه الوحدة الفنية حيث جاءت الأساليب متلائمة مع شعر المدح ومع شعور الشاعر ومع معانيه وتلاءم الشعور مع التعبير فى وحدة فنية رائعة .

---

(١) القصيدة : ص٣٥٤ - ٣٦٣ ديوان ابن النبيه المصرى . بحر : البسيط .

ثانياً : استطاع ابن النبيه بقدرته الفذة وشاعريته العملاقة أن يختار الألفاظ والعبارات القوية التى تناسب أشعار المديح فجاءت ألفاظه وعباراته جزلة قوية مختارة موحية تنبع منها معانى القوة وتتلاءم مع شعر المديح تلاؤماً قوياً، فكان الشاعر موفقاً كل التوفيق فى اختيار ألفاظ وعبارات شعره فى المدح .

وكان الشاعر يتجه فى أسلوبه إلى محاكاة الشعراء العباسيين سواء كان ذلك فى أساليبهم وطرق تعبيرهم أو معانيهم وأصاب فى ذلك حظاً وافراً حتى ليخيل إلى قارىء مدائح "ابن النبيه" أنها نظمت فى العصر العباسى .

وقد استخدم الشاعر ألوان البديع واتجه نحو الزينة اللفظية ويكاد يشترك فى ذلك كل شعراء العصر الأيوبى إلا أن شاعرنا "ابن النبيه" استخدمها فى موضعها ودون إسراف أو تكلف أو تصيد بحيث لاتقوى على أسلوبه وتفسد معانيه، وجاءت ألوان البديع - مع كثرتها - عفوية قد استدعتها المعانى فزادت أسلوبه جمالاً فوق جماله .

كما اعتمد الشاعر على التصوير وألوانه المختلفة المعروفة فى الشعر العربى القديم من تشبيه واستعارة وكناية فى تصوير صوره وتوضيح معانيه وجاءت معظم تصويراته تقليدية حيث اتبع فيها شعراء العصور السابقة فى الأدب العربى .

كما تزخر مدائحه بثروة لغوية طائلة ومحصول عظيم من كلمات الشعراء السابقين وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على ثقافة الشاعر الواسعة واطلاعه على أشعار السابقين فى مختلف العصور الأدبية ودرايته العميقة بمعاجم اللغة العربية .

ثالثاً : **التأثر الواضح والعميق بعقائد المذهب الشيعي، حيث** أكثر "ابن النبيه" فى مدائحه من الاعتماد على العقائد الشيعية وتأثر بها تأثراً عظيماً وفاض شعره - خاصة فى مدائح الخليفة العباسى - بالعقائد والمصطلحات الشيعية وكان "ابن النبيه" أجرأ الشعراء المصريين فى العصر الأيوبى فى الأخذ من عقائد الفاطميين وأشدهم مبالغة فى ذلك حيث استخدم "ابن النبيه" العقائد الشيعية والصفات الخاصة بالأئمة وجعلها سبيلاً له فى مدائحه ووصف الممدوحين بنفس الصفات التى وصف بها شعراء الفاطميين أئمتهم بل إنه غالى فى مدح ممدوحيه بشكل لم يكن له مثيل فى العصر الفاطمى حيث ادعى أنهم يعلمون الغيب وكرر ذلك مراراً فى مدائحه ولم يقل بذلك شاعر فاطمى فى مدح إمام شيعى، ومضى ابن النبيه فى استخدام العقائد الشيعية والإكثار منها فى مدائحه وفاق فى ذلك كل شعراء عصره .

صحيح وجد هناك من شعراء العصر كابن الساعاتى[(١)] وابن مطروح[(٢)] وابن سناء الملك[(٣)] وغيرهم من شعراء العصر الأيوبى من استخدم العقائد الشيعية فى مدائحه ولكنهم كانوا أقل استخداماً لها وأقل مبالغة فيها من "ابن النبيه" الذى يعد الشاعر الأول والأكثر استخداماً وصراحة وجرأة من بين شعراء عصره .

رابعاً : غلبة الطابع الحماسى على مدائح "ابن النبيه" والحرارة المتدفقة والعاطفة الصادقة الحادة القوية التى تبعث فى شعره القوة والحياة وذلك بسبب اشتعال الحروب الصليبية ونيرانها المتأججة التى ظلت أعواماً عديدة، وتدل هذه المدائح على ماكان

---

(١) ينظر ديوان ابن الساعاتى ص٣٥ جـ١ طبعة : دمشق .
(٢) ينظر ديوان ابن مطروح ص١٧٥ جـ١ طبع الجوائب عام ١٢٩٨ هـ .
(٣) ينظر ديوان ابن سناء الملك صـ .

يعتمل فى نفس الشاعر - بل نفوس الشعب الأيوبى كله - من اشتعال نيران الحزن والأسى لضياع هذه الأرض الإسلامية واغتصاب الصليبيين لديار المسلمين ولما أصاب المسلمين فى هذه الأرض من ذبح وقتل وتعذيب وتشريد وانتهاك حرمات فى كل موضع من هذه البلاد الإسلامية المغتصبة كما تدلنا على أن المسلمين فى مصر وغيرها من بلاد الإسلام لم ينسوا هذه البلاد الإسلامية ولم يفقدو الأمل أبداً فى استردادها مرة ثانية من أيدى الصليبيين وذلك على الرغم من مرور سنين عديدة على اغتصاب هذه البلاد الإسلامية، كما تدلنا على تصميم المسلمين على ردع العدوان الصليبى ورده وخوض المعارك العديدة والشرسة التى خاضها المسلمون لتحرير أراضيهم .

كما تطفح مدائح الشاعر بالتحريض لدفع الملوك والشعب الأيوبى على مجابهة الصليبيين ودحرهم وتطهير ديار المسلمين من دنسهم .

وقد تأثر "ابن النبيه" تأثراً كبيراً بالحروب الصليبية فانعكس ذلك على شعره فى المدائح - خاصة مدائح الملوك الأيوبيين حيث أخذ يشيد بجهود الملوك وبطولاتهم ويحرضهم تحريضاً ويدفعهم دفعاً إلى قتال الصليبيين وخوض المعارك معهم ليدرأوا الخطر عن الإسلام والمسلمين وديارهم وراح يثير النخوة الإسلامية فى نفوس الملوك والسلاطين ويشيد بمهاراتهم فى القتال وفنون المعارك حتى يقوى من عزيمتهم ويشد من أزرهم وراح يتغنى ببطولاتهم ويسجل مفاخرهم فى الدفاع عن الإسلام وذويه ضد الصليبيين وقد مرت الأمثلة الكثيرة التى توضح ذلك وتؤيده عند الحديث عن المدائح.

وفى مدائح ابن النبيه تسجيل حى لتلك المعارك التى خاضها الأيوبيون خاصة الملك "الأشرف" ضد الصليبيين وتلك الانتصارات التى حققها الأيوبيون على أعداء الإسلام من الصليبيين .

خامساً : تأثر هذه المدائح بشكل واضح بثقافة العصر الأيوبى وحضارته حيث تأثرت ألفاظه ومعانيه وصوره وأخيلته تأثراً كبيراً بهذه الثقافات سواء كانت ثقافة دينية - استمدها الشاعر من القرآن الكريم والحديث النبوى وعلوم الفقه والتوحيد - أو لغوية - استمدها الشاعر من معاجم اللغة وعلوم اللغة العربية - أو علمية حديثة استمدها الشاعر من علوم : النجوم والكيمياء والهندسة والفلسفة والمنطق والطب والرياضة وغيرها .

سادساً : التغنى بالأتراك ومدحهم والإشادة بهم إشادة عظيمة وذكر فضائلهم وجهودهم والإشادة بشجاعتهم فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين والذود عن حومة الدين .

والحقيقة التى لاشك فيها أن روح القومية الإسلامية كانت الطابع الذى عم ربوع العصر الأيوبى - بالرغم من تعدد عناصر المجتمع - وكانت النزعة الإسلامية هى النزعة الواضحة والمسيطرة على أذهان الشعب الأيوبى حكاماً ومحكومين حيث جمعت بينهم وألفت قلوبهم الحروب الصليبية بشكل لم يسبق له مثيل وجمعتهم جميعاً تحت راية الإسلام والتوحيد وكانت الرابطة الإسلامية هى الرباط الوحيد والمتين بين أبناء المسلمين فى هذا العصر فلا فرق بين عربى وعجمى إلا بالتقوى والدفاع عن الإسلام وأهله فانعكس ذلك على مدائح "ابن النبيه" وعلى مدائح شعراء العصر الأيوبى جميعاً . فكانت القومية الإسلامية والنزعة الإسلامية تسيطر على مدائح الشاعر صوراً وأفكاراً ومعانٍ وأخيلة .

سابعاً : التزم الشاعر فى معظم مدائحه بالأوزان العروضية التى عرفت عن "الخليل بن أحمد" والقافية الواحدة : حيث لم ينوع فى قوافيه أو يعدد فيها، فضلاً عن وجود الموشحة والزجل والدوبيت فى شعره وإن كان ذلك قليلاً .

ثامناً : نحس فى مدائح "ابن النبيه" بظهور نغمة الاستجداء والعطف والسؤال من الممدوحين وهذه ظاهرة شاعت شيوعاً واضحاً بين شعراء العصر جميعاً حيث كان التكسب بالشعر هو الوظيفة الرسمية لمعظم شعراء العصر وبسببه يعيشون .

تاسعاً : تعد مدائح "ابن النبيه" سجلاً حافلاً مهماً لأحداث العصر الأيوبى سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية وتوضح كثيراً من عادات العصر وتقاليده وتبرز بعض مفاسده ومحاسنه ومن خلالها نستطيع أن نتعرف أحوال العصر الأيوبى فى مختلف النواحى والاتجاهات وماساد العصر من تحضر وتقدم .

عاشراً : تظهر مسحة التقليد ظهوراً واضحاً فى مدائح ابن النبيه وتدلنا على أن الشاعر قد درس الأدب العربى وثقفه فى عصوره المختلفة وتأثر به تأثراً عظيماً خاصة الشعر العباسى .

الفصل الثانى

«شعر الغزل»

الغزل فى شعر ابن النبيه :

يعد الغزل من أهم الأغراض القديمة التى عرفت فى الشعر العربى وأكثر أبوابه من حيث الكم وأغنى أبوابه من حيث الذوق والفن والعاطفة ولايكاد يخلو منه ديوان شاعر فى العصور المختلفة إلى أن جاء العصر العباسى فانتشر انتشاراً واسعاً وشاع شيوعاً عظيماً وتعددت ألوانه واتسعت مظاهره بين : غزل تقليدى وغزل حسى وغزل عفيف فضلاً عن ابتكار الغزل بالمذكر الذى لم يعرفه الشعر العربى قبل العصر العباسى .

وظل الغزل بألوانه التى عرفت فى العصر العباسى الأول بعد ذلك واستمر فى العصر الأيوبى وشاع فيه شيوعاً واضحاً ونظم فيه جميع شعراء العصر حتى من عرف منهم بالورع والتقوى والعفة، ولكن مايختلف فيه شعر الغزل فى العصر الأيوبى عن العصور السابقة أن أصبح الغزل بالمذكر ظاهرة أخلاقية طبيعية مألوفة غير شاذة سايرت أذواق العصر الأيوبى وأغرم به أهل العصر الأيوبى إغراماً شديداً فاق إغرامهم بالغزل فى المؤنث بمراحل طويلة ، وأصبح الغزل بالمذكر هو المقدمة التمهيدية المفضلة عند شعراء العصر جميعاً فى افتتاح قصائد المدح - وغيرها - بهذا الغزل الماجن واحتل مكانة الغزل التقليدى والمقدمة الطللية التى عرفت من قبل فى افتتاح القصائد .

وإذا نظرنا إلى شعر الغزل فى ديوان "ابن النبيه المصرى" نجده قد أكثر منه كثرة واضحة وشاع شيوعاً واضحاً واحتل المرتبة الثانية فى ديوانه بعد فن المدح مباشرة حيث أكثر منه الشاعر كثرة فائقة .

ولاغرابة فى ذلك فقد عاش "ابن النبيه" حياته ماجناً لاهياً يؤثر اللذة والمتعة ويطلبها فى أى وقت وفى كل مكان وقضى حياته بين الخمر وجمال الطبيعة ومصاحبة حسان الوجوه وعشقهم عشقاً

جماً فضلاً إذا أخذنا بعين الاعتبار ماساد العصر الأيوبى من انحلال فى الأخلاق والأذواق وشيوع الغزل بألوانه المختلفة شيوعاً واضحاً فى هذا العصر وقد عاش الشاعر حياته مسايراً لأخلاق العصر وأذواقه ويمثله فى كل جانب من جوانبه سواء كانت حسنة أم غير حسنة .

وقد عرف شعر الغزل عند "ابن النبيه" أنواع الغزل المتعددة التى عرفت فى العصر الأيوبى، فقد عرف الغزل التقليدى الذى تفتتح به القصائد والغزل المؤنث الرقيق والغزل بالمذكر الذى يحتل المرتبة الأولى من حيث الكم من شعره فى فن الغزل، وسوف أتناول كل لون منها بالحديث المفصل متناولاً إياه بالشرح والتحليل .

أولاً : الغزل التقليدى :

وأعنى به هذا اللون من الغزل فى المؤنث الذى تفتتح به قصائد المدح وغيرها من فنون الشعر الأخرى حيث يجعله الشاعر مقدمة أو تمهيداً لقصيدته فيتحدث عن المحبوبة وجمالها ويعبر عن حبه وهواه تجاهها ويصف جمالها ومفاتنها .

وهذا اللون من الغزل فيه من العفيف وفيه من الحسى إلا أنه لايستقل بقصيدة بعينها بل يأتى مقدمة وتمهيداً لها .

و"ابن النبيه المصرى" إذا كان قد عرف الغزل التقليدى الذى جاء مقدمة للقصيدة إلا أنه لم يقف على الديار ويبك الأطلال كما وقف وبكى الأقدمون بل إنه راح يهاجم فى شعره : البدء بالوقوف على الديار والأطلال وبكائها ويدعو إلى تركها ونبذها والاستعاضة عنها بالحديث عن الخمر ووصفها والدعوة إلى شربها فيقول :[1]

(١) ص١٨٧ ديوان ابن النبيه المصرى . من المتقارب .

دَعْ النّوحَ خلفَ حُدوجِ الركائب ... وسـلْ فـؤادك عن كـل ذاهـب
ببيض السّوالـف حُمرْ المراشـ ... ـف صفر الترائب سود الذوائب

ويقول فى موضع آخر : (١)
حَسْبُك لايُغنى سُؤال الديـار ... فصْرف الهمْ بصَرف العقـار

وإذا كان "ابن النبيه المصرى" قد عرف هذا اللون من الغزل - الغزل التقليدى - إلا أنه أيضاً لم يكثر منه كثرته فى أنواع الغزل الأخرى وربما يرجع السبب فى ذلك إلى حياة الشاعر التى قضاها فى اللهو والمجون ومسايرة رغبات وأذواق العصر الذى عاش فيه حيث فضل استهلال القصيدة بالتغزل فى المذكر وأحب التقديم للقصيدة بهذا الغزل الشاذ خاصة وأنه قضى حياته متكسباً بشعره ففضل البدء بالتغزل فى المذكر حتى تروج أشعاره فى سوق القريض وآثر الشاعر أيضاً أن يعبر بشعره عن حياته ورغباته ورغبات عصره تعبيراً صريحاً حياً ويصور بشعره حقيقة الحياة التى كان يحياها وتصوير واقع عصره ومجتمعه الذى عاش فيه وتسجيل أخلاقهم وأذواقهم وماانطوت عليه من قيم ومبادىء .

وقد تحدث الشاعر فى غزله التقليدى عن المرأة والحب بأوصاف ومعانٍ وأفكار قديمة عرفت من قبل فى الشعر العربى فى فن الغزل مثل : الوصال والهجر والعاذل والقد السمهرى والثغر الأقحوانى والطيب والنشر وصورة البدر وإشراقة الشمس وإبراز مفاتن المحبوبة وتصوير جمالها والإعلان عن حبها .. الخ ولكن كان ذلك فى روح مصرية خفيفة رائعة الافتنان جيدة السبك .

---

(١) ص٣٧٦ ديوان ابن النبيه المصرى . بحر : السريع .

ومن غزله التقليدى قوله فى مقدمة قصيدته التى يمدح فيها الملك "العادل" الأيوبى : (١)

لمن شجرٌ قد أثقلتها ثمارها	سفائن بَر والسرابُ بحارُها
وفى الكلة الحمراء بيضاءُ طفلةٌ	بزُرْق عيون السُّمْر يُحْمى احورارُها
لها طلعةٌ من شعرها وجبينها	تعانق فيها ليلها ونهارها
لها من مهاة الرمل جيدٌ مقلة	وليس لها استيحاشها ونفارها
وماسكنتْ وادى العقيق ولاالغَضَى	ولكن بعينى أو بقلبى دارها
إذا ماالثُّريّا والهلالُ تقارنا	أشَكُّكُ هلْ ذاقُرْطها وسوارها (٢)
فأىّ قضيب جال فيه وشاحُها	وأىُّ كثيب ضاق عنه إزارها
وماكنتُ أدرى قبل لؤلؤ ثغرها	بأنَّ نفيسات اللآلىء صغارها
هى البدر إلا أنَّ عندى مخافة	هى الخمرُ إلا أنَّ خطى خُمارُها

حيث يتغزل الشاعر فى محبوبته ويعلن عن حبه العميق لها ويبرز مفاتنها ويصور جمالها ويرسم صورة خيالية لمحبوبته وذلك بمعان وصور وتصوير وأفكار عرفها الشعر العربى القديم فى شعر الغزل، فمحبوبته بيضاء طفلة عيناها جميلتان يزين جمالها احورار عيونها ووجهها أبيض وشعرها فاحم أسود وتشبه المهاة فى جيدها وعينيها، وأنها سكنت قلبه، ثم يشبه قدها بالقضيب وردفها بالكثيب وأسنانها باللؤلؤ وجمالها بجمال البدر وغير ذلك من المعانى والصور القديمة ولكن فى ثياب جديدة وصياغة رائعة بلغ الشاعر فيها المدى روعة ودقة وافتناناً .

ويلاحظ فى هذه المقدمة الغزلية بعدها عن التحلل من الالتزام الأخلاقى وإطالتها إطالة فائقة حيث جاءت أبيات المقدمة الغزلية أكثر من حيث الكم من أبيات المدح فى القصيدة وهو الغرض الأصلى

---

(١) ص١٠-١١ - ١١٣ ديوان الشاعر . والأبيات من بحر الطويل .

(٢) القرط : حلقة الأذن .

لها، كما يلاحظ أيضاً انطباعها بطابع الغرض الأصلى للقصيدة - وهو المدح - من حيث الألفاظ والعبارات والصور والأخيلة والوزن الشعرى الملائم لغرض المدح حيث إن المدح من الأغراض القوية التى تحتاج إلى الألفاظ القوية والعبارات الضخمة والوزن العروضى ذات التفعيلات الطويلة، لذا انطبعت خصائص شعر المدح على هذه المقدمة - بل على هذا اللون من الغزل غالباً .

ومن روائع هذا اللون من الغزل فى شعر "ابن النبيه" أبياته التى يتغزل فيها بمحبوبه وجعلها مقدمة لقصيدته فى مدح الملك "الأشرف" الأيوبى واستعطافه فيقول :(١) .

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا ... ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
مَنْ لَم يَذُق ظُلْمَ الحبيب كَظُلْمه ... حُلْواً فقد جهل المحبّة وادّعى
ياأيها الوجه الجميل تدارك الصّـ ... ـبَّ النّحيل فقد عفا وتضعضعا
هل فى فؤادك رحمةٌ لمُتَيَّمٍ ... ضمّتْ جوانحُه فؤاداً موجعا
فتِّشْ حشاىَ فأنت فيه حاضرٌ ... تجد الحسود بضدٍّ مافيه سعى
هلْ من سبيلٍ أنْ أبُثَّ صبابتى ... أو اشتكى بلواى أو أتضرّعا
إنّى لأستحى كما عوّدتنى ... بسوى رضاك إليك أن أتشفّعا
ياعينُ عذرك فى حبيبك واضح ... سحّى لوحشته دماً أو أدمعا

فهذه الأبيات الغزلية أروع وأرق أبيات فى غزل "ابن النبيه المصرى" بل من أرق وأروع أبيات الغزل فى الشعر العربى بوجه عام وتدل على مقدرة الشاعر الفنية وروعته وبراعته الفائقة فى هذا اللون من الشعر كما تدل على حب عظيم ملك على الشاعر قلبه وسيطر على فؤاده .

(١) ص١٤٩ - ١٥٠ ديوان ابن النبيه . والقصيدة : من بحر الكامل .

وإننا نرجح أن الأبيات قيلت فى محبوبة جميلة غانية أحبها الشاعر حباً جماً وإن جاءت الأبيات فى أسلوبها بلفظ المذكر وذلك على عادة بعض الشعراء العرب الذين عبروا عن المؤنث بلفظ المذكر خاصة وأن الشاعر نفسه لم يصرح بأنها فى غلام أو ساق يدير عليه كؤوس الخمر كما هو معروف عنه فى أشعار الغزل بالمذكر الأخرى التى وردت فى ديوانه .

ولقد أخذت هذه الأبيات شهرة فائقة وراجت رواجاً عظيماً حيث غنتها السيدة "أم كلثوم" وقد هزت هذه الأبيات رؤوساً لايحصى لها عدد وترنحت فى خلال أرواح الهائمين والمتألمين فى دنيا الهوى والشباب. والأمل المنشود هو فيض حبٍ جريح وألم صوفى صابر عبر عنه ابن النبيه فى هذه الأبيات من قصيدته "(١)

والأبيات رائعة فى صورها بارعة محكمة فى أسلوبها ونسجها عفيفة فى معانيها لطيفة فى تصويرها تعبر فى صدق عن عاطفة صادقة وأحاسيس جياشة وحبٍ خالدٍ عظيم وابتعدت كلية عن الفحش أو الجسدية واللذة الحسية واقتصرت على شكوى المحب وتصوير ألمه لبعد المحبوب وتمنى وصاله والبكاء لهجره وفراقه فى عفة واضحة وعاطفة صادقة جياشة .

فالشاعر فى هذه الأبيات يتجاوب مع قلبه وعاطفته أكثر مما يتجاوب مع عقله مخالفاً بذلك المعهود والمعروف عن المقدمة الغزلية التى غالباً مايتجاوب فيها الشعراء مع عقولهم أكثر مما يتجاوبون مع عواطفهم وشعورهم وأحاسيسهم النفسية بل ربما كانوا يصطنعون هذه المقدمة الغزلية اصطناعاً دون أن تكون هناك عاطفة حب مطلقاً وذلك مسايرة للتقليد فى بدء القصيدة بهذه المقدمة الغزلية .

---

(١) ص٥ مقدمة الديوان .

ومن غزل "ابن النبيه" التقليدى الرائع هذه الأبيات التى يصرح فيها بعاطفته وحبه عن صدقٍ وشعور حقيقى نحو من ملك عليه قلبه فى أبيات غزلية عاطفية بعيدة عن اللذة والفحش فى القول، وذلك من خلال أبياته التى جعلها مقدمة لقصيدته التى يمدح فيها الملك "الأشرف" الأيوبى ويقول فيها :(١)

إنَّ عيناً منكُمُ قد ظمئت ... قد سقاها الدمع حتى رويت
آه من وجْدٍ جديدٍ لم يزلْ ... وعظام ناحلات بُليتْ
أنا والأظعانُ من شوْقٍ لكم ... نَحْوكم أعناقُنا قدْ ثُنيتْ
أنتمُ الأنجُم مُذْ غُيِّبتُم ... بسوى أنواركُم ماهُدِيتْ
ساكني الفُسطاط لو أبصرتكم ... جُليتْ مرآة عينٍ صديتْ
فوجوهٌ كرياضٍ أزهرتْ ... ورياضٌ كوجوهٍ جُليتْ
بأبى منكم غزالٌ، مهجَتى ... بظُبى ألحاظه قد غُزيتْ(٢)
ساحر الأجفان ألْوَى وعده ... فهو كالأصداغ لمّا لُويتْ
بلّغيه يانسيم الريح عن ... مهجة المشتاق ماذا لقيتْ
إنَّ أسرار الهوى مانشرت ... وملابيس الضّنى ماطُويتْ
لى عذر النوى عن أرضكم ... فسقتها أدمعى إنْ رضيتْ

الشاعر فى هذه الأبيات الغزلية يعبر عن مشاعره وأحاسيسه تجاه محبوبته بكل الصدق والمشاعر الجياشة والعفة فى القول وبأسلوب جديد وألفاظ مختارة وإن اعتمد على كثير من المعانى والصور القديمة التى عرفت من قبل وذلك مثل : الشكوى من الحب والتعبير عن مكنون قلبه وتصوير ألمه وعذابه والاشتياق لمحبوبته وتشبيه المحبوبة بالغزال ولحظ عينيها بالسيوف الماضيات وأن المحبوبة ساحرة الأجفان ووجهها كالرياض وغير ذلك مما هو معروف

---

(١) ص١٥٤ - ١٥٦ ديوان ابن النبيه .

(٢) الظُبىَ : السيوف .

فى غزل القدماء إلا أن الشاعر ألبس معانيه ثياباً جديدة فبدت جديدة فى شكلها ومظهرها وجميلة فى معانيها وصورها .

ومن غزله التقليدى أبياته التى استهل بها قصيدته التى مدح بها الملك "الأشرف" ويقول فيها :(١)

ياساكنى السَّفْح كمْ عينٍ بكُمْ سَفَحَتْ   نَزَحْتُمُ فهى بعد البُعْد قد نزحتْ
لهفى لظبيةِ إنسٍ منكمُ نفرتْ   لابل هى الشمس زالتْ بعد ماجنحتْ
بيضاءُ حجَّبَها الواشون حين سرتْ   عنِّى فلو لمحتْ صبْغَ الدُّجَى لمحتْ
يقتصُ من وجْنتيها لحْظُ عاشقها   إنْ ضَرَّجَتْ قلبَهُ باللحظ أو جرحتْ
مَنْ لي بِسَلْمٍ وفى أجفان مقلتها   للحرب بيضٌ حدادٌ قَطُّ ماصَفَحَتْ
يهتزُّ بين وشاحيها قضيب نَقَا   حمائمُ الحَلْى فى أفنانه صدحتْ
وأسْودُ الخال فى مُحمرِّ وجنتها   كمسْكةٍ نَفَحَتْ فى جَمْرةٍ لَفَحَتْ
لها جفونٌ وأعطافٌ عجبتُ لها   بالسُّقْم صَحَّتْ والسكر الشديد صَحَتْ

نرى الشاعر يتغزل غزلاً تقليدياً فى عفة وبُعدٍ عن الفحش فى القول والألفاظ النابية وبأوصاف عرفها شعر الغزل منذ القدم ولكن فى ثياب جديدة وأسلوب جديد نستطيع من خلاله أن نلمس منه الروح المصرية .

وقد تحدث الشاعر فى أبياته عن الحب بوصاله وهجره والوشاة والعازلين ولكنه أيضاً تعرض لوصف المحبوبة وتصوير جمالها وإبراز مفاتنها : حيث شبهها بالظبية التى نفرت وبالشمس فى جمالها وأنها بيضاء جميلة تأخذ بالأفئدة والقلوب وعيناها سهمان قاتلان وقدّها قضيب نقا وجفناها سقيمان تسكر من ينظر إليهما .

والشاعر مصور فنان وشاعر ماهرٌ فى صوره وتصويره وأسلوبه وقد برع فى تصوير جمال محبوبته وأتى بالرائع والساحر من الصور

(١) ص١٦٥ - ١٦٧ ديوان ابن النبيه . والقصيدة من بحر البسيط .

والمعانى التى تزخر بها أبيَاته وذلك مثل ماورد فى أبياته : الثانى والثالث والرابع والسادس والسابع والثامن حيث تزخر الأبيات بالمعانى والصور الجميلة الرائعة وتدل على ناظم فنانٍ ومصور موهوب .

كما يلاحظ على الأبيات أنها انطبعت بطابع الغرض الأصلى للقصيدة وهو المدح حيث أثرت قوة المدح بأسلوبه وألفاظه ووزنه ومعانيه على المقدمة الغزلية فانطبعت عليها خصائصه وسماته فضلاً عن إكثار الشاعر من الألوان البديعية خاصة الجناس والطباق ولكن دون تكلف أو تصنع فزادت الألوان البديعية معنى الأبيات وأسلوبها جمالاً فوق جمال .

ومن غزله التقليدى الرائع قوله فى مقدمة قصيدة يمدح فيها الملك "الأشرف" :[١]

أما وبيـاض مبسمك التقـىٍّ ... وسُمْرة مسكـة اللَّعَس الشَّهِىِّ
ورُمَّـانٍ من الكافـور تَعْلـو ... عليـه طوابـع النَّدِّ النَّـدِىِّ
وقـد كالقضيـب إذا تثنـى ... خشيـتُ عليـه من ثقل الحُلِىِّ
لقد أسْقَمْت بالهجْران جسمى ... وأعْطشنـى وصَالُـك بعْـد رِىِّ
إلى كَمْ أكْتمُ البلْوى ودمعـى ... يبـوحُ بمُضْمـرَ السِّرِّ الخفـىِّ
وكم أشكـو للاهيـة غرامـى ... فويـلٌ للشجـىِّ مـن الخلـىِّ
مُمَنَّعَـةٌ لهـا جفـنٌ سقيـم ... شديـدُ الأخـذ للقلـب البرىِّ
تغازلنـى وتـزْوى حاجبيهـا ... كما انبرتْ السهام عن القسىِّ
وتَخْتَـرقُ الصَفوف بِرَوْقٍ فيَهـا ... وهلْ يخفى شذى المسْك الذكىِّ؟
وشَاجاهـا علـى خَصْرٍ عديـمٍ ... ومئزرُهـا علـى رِدْفٍ مَلـىِّ
ومِعْجرُهـا علـى ليـلٍ بهيـمٍ ... وبُرْقُعُهـا علـى قمـرٍ سَنِىّ[٢]

---

(١) ص٢٦٨ - ٢٧١ ديوان ابن النبيه والقصيدة من بحر : الوافر .

(٢) المعجر : ثوب تشده المرأة على رأسها .

يَذُودُ شَبَــا القَنَـا عن وجنتيها ... كمنْـع الشوك للــورد الجنيْ
إذا مارُمْـتُ أقْطفُــهُ بعينــى ... يقولُ حَذَارِ من مَرْعَــىً وَبِــىٍّ
لسَانُ السيف من أدنى وُشَاتى ... ومــن رُقَبَاىَ طرفُ السمْهرىّ
كــأن لجفنهــا فــى كــل قلــب ... فعــالَ المشرفــىْ الأشرفــىّ

فالأبيات رائعة بارعة فى معانيها وصورها وأسلوبها وتدل على شاعر فنان موهوب بارع فى شعر الغزل .

والشاعر فى أبياته يصف محبوبته ويصور جمالها ويبرز مفاتنها ويعجب بها إعجاباً شديداً، حيث صور بياض أسنانها وشبه شفتيها بالمسك فى اللون والرائحة وصدرها برمان من كافور وقدها بالقضيب وأنها رقيقة منعمة وممنعة وجفنها سقيم يأخذ بالفؤاد ورائحتها طيبة كالمسك هيفاء الخصر ثقيلة الردف وشعرها فاحم كالليل ووجهها أبيض مضىء كالقمر، وكل هذه المعانى والصور تقليدية إلا أن الشاعر قد كساها ثياباً غالية جديدة من حرير مدبجة بخيوط من الذهب الخالص فبدت رائعة فى صورها ومعانيها وأسلوبها .

والشاعر فى أبياته يصف المحبوبة وصفاً حسياً صريحاً إلا أنه لم يصرح بذكر سوءات أو فحش فى القول بل إنه وصفها بالعفة والإباء وأكد على عفتها وعدم نيل متعة منها وهو المحب المعذب الذى أضناه حبها واستهواه حسنها وجمالها .

ويلاحظ على الأبيات انطباعها بخصائص شعر المدح خاصة فى معانيه وصوره وألفاظه، حيث يجعل عينيها كالسهام المسددة وجفنيها كالسيف القاطع التى تصيب القلوب فتدميها ويذكر : القنا والسيف والسمهرى والمشرفى فى معرض الغزل .

والأبيات صورة حية لمشاعره إذ ولع الشاعر بالجمال وأحب حسان الوجوه والعيون وكثيراً ماصور الشاعر جمال عيون المحبوبة

وعبر عن غرامه بها فى مواطن عديدة من شعره الغزلى كما كان الشاعر مغرماً فى غزله بالخصر الدقيق والردف الملىء الثقيل والبشرة البيضاء والوجه الأبيض والعيون الزرقاء والقامة الطويلة وهو ماسجله فى أبياته وردده فى شعره الغزلى ويطفح به ديوانه .

ومن غزله التقليدى الذى مهد به وجعله مقدمة لمدائحه أبياته التى قدم بها لقصيدة مدح فى الملك "الأشرف" وقال فيها يتغزل فى جارية: (١)

تأوّدت كالغُصْن الأملَد ... وابتسمتْ عن نَوْر ثغرٍ نَدى
وانتقبتْ بالصُبح لكنّها ... تقنّعَتْ بالحندس الأسْود
بيضاءُ كحْلاءُ لها ناظرٌ ... مُنَزَّه عن لوثة المِرْوَد
من ثغرها الوضّاح أو خدّها ... واخَجْلَة الجوْهر والعَسْجَد
ترْتجُ كالجدول من رقةٍ ... وقلبُها أقسى من الجلمد
أصبح فيها عاذلى عاذرى ... ومَلَّ من طُول الضّنى عوَّدى
كم ليلةٍ أحْيَيتُها كُلَّما ... قُلتُ انتهتْ فى طولها تبتدى
قال دُجاها لجُفونى لقد ... شَغَلْتَ عنّى فَرْقدى فارْقدى
جاريةٌ شَتّتَ شمْلى بها ... صَرْفُ الزمان الجائر المعتدى
تملك رقّى بهواها . ولو ... يشاء موسى ملكَتُها يدى

يتغزل الشاعر فى محبوبته غزلاً تقليدياً فى الشكل والمضمون، حيث جعل الأبيات مقدمة لقصيدة مدح واستقى معانيه وصوره وأفكاره من شعر الغزل فى العصور السابقة، فنراه يشبه محبوبته بالغصن وأسنانها بالنور ووجهها بالصبح وشعرها بالليل وبشرتها بيضاء وعينها كحلاء صحيحة وجسمها بالجدول وقساوة قلبها بالحجر الصلد وهذه كلها صور ومعانٍ قديمة إلا أن الشاعر

---

(١) ص٣٠٦ - ٣٠٨ ديوان ابن النبيه . والقصيدة من بحر : السريع .

كساها ثياباً جديدة وبرع فى تعبيره وأسلوبه فبدت الأبيات جديدة أو كأنها جديدة

والشاعر فى أبياته - مع أنه يتغزل فى جارية - لايسف ولايفحش فى قول أو لفظ بل إننا نراه يصف محبوبته بالعفة ويؤكد على عفتها بالرغم من أنه أحبها وهام فى حبها لدرجة أنه جعل نفسه عبداً لها ورقيق هواها.

ويلاحظ أن طابع شعر المدح - وهو الغرض الأصلى للقصيدة- قد ترك بصمات واضحة على أبيات الغزل وانطبعت عليها خصائص شعر المدح من القوة فى الألفاظ والمعانى والصور والوزن العروضى الطويل، فضلاً عن أن الشاعر قد استخدم فى أبياته ألفاظاً معجمية ضخمة لاتتناسب وشعر الغزل مثل : الأملد ، الحندس ، الجلمد ، وأنه قد زين أبياته بألوان البديع التى ابتعدت عن الغلو والإسراف والتكلف والتصنع

ومن غزله التقليدى قوله يتغزل فى مقدمة قصيدة مدح بها الملك "الأشرف"(١)

قد بلغتك خُطَا المَهْرِيَّـــة الرُسُــم ... دار الأحبّة فاشكر نعمة النعم

إلى أن قال :

من كل مُخطَفَة الأعْطاف مُثْقَلة ال ... أرداف ناعمــة الأطـراف كالعنــم
كأنما الثغر يهواهــا إذا خطــرتْ ... مثْلى فيلْثُمُ منها موطىء القدم
كأنما الموتُ يجرى فى محاجرها ... وكُـلُّ لحــظ رسـولٌ طالـبٌ بدم
وشاحهــا مُعْدمٌ والحجْــلُ مقتــدرٌ ... مُثْرٍ كذاك اختلاف الرزق فى القسَم
كأنمــا هــى مــن لينٍ ومــن تــرف ... مــا ءٌ تجسَّــد للأبصــار كالصَّنَم

---

(١) ص٤٤٨ - ٤٥٠ ديوان الشاعر . والقصيدة من بحر : البسيط .

إيّاك يادرُّ عن لألاء لبّتهَا	وارجع إلى اليمّ والأصداف والظُلم
ولاتقُلْ إننى من جنس مبسمها	فأنت توجدُ بالأدنى من القيمَ

حيث نرى "ابن النبيه" يتغزل فى أبياته بمحبوبته ويعدد أوصافها ويبرز مفاتنها معبراً عن شعوره وإحساسه النفسى ومايتجاوب مع ذوقه ومايصطفيه من خلال الجمال التى تعجبه وتفتنه ويضفيها على محبوبته حيث يراها : مخطفة الأعطاف وأردافها ثقيلة وأطرافها ناعمة، رائعة الثغر، ساحرة الطرف، هيفاء الخصر، وأنها لينة مترفة كأنها خلقت من ماء، ثم يجعل مبسمها لآلىء عظيمة بل يجعلها تفوق اللآلىء والدرّ فشتان بين مبسمها واللآلىء التى توجد فى قاع النهر أو البحر وسط الظلام بينما مباسمها فى القمة والعلا والنور .

وهذه الأوصاف وتلك المعانى مستمدة من معانى الشعر القديمة إلا أن الشاعر جلاها فى ثياب جديدة نفيسه وبأسلوب رائع بارع محكم النسج منتقى الألفاظ والعبارات .

وواضح تمام الوضوح إنطباع خصائص الغرض الأصلى للقصيدة على أبيات المقدمة الغزلية، سواء كان ذلك من حيث الأسلوب والصور والمعانى والوزن العروضى .

كذلك نجد للشاعر غزلاً تقليدياً فى المؤنث ذكر فيه بعض مساوئه مع محبوبته فضلاً عن تعداد محاسنها وتصوير مفاتنها وإضفاء صفات الجمال التى تعجب الشاعر فيها مستخدماً معانى الأقدمين وصورهم وخيالهم إلا أنه قد كساها أسلوباً جديداً له رونق وروعة متخيراً للألفاظ ومحكماً للأسلوب والعبارات(١) .

(١) ينظر ديوانه ص٤٧٣ ومابعدها ، ص٤٩٣ ومابعدها .

كما نجد له غزلاً تقليدياً تحدث فيه عن طيف المحبوبة[١] وغزلاً تقليدياً بدأ به موشحة فى المدح[٢] ونراه أحياناً يشرك مع الغزل التقليدى موضوعات أخرى فى المقدمة كوصف الطبيعة أو الخمر أو الغزل بالمذكر أو يجمع بين ذلك كله فى مقدمة واحدة[٣] .

وهكذا برع ابن النبيه فى غزله التقليدى ونوّعه بين المقدمة الطويلة والمقدمة المتوسطة واستعمل الأوصاف والمعانى القديمة فى الغزل وانعكست صفات المدح غالباً على غزله هذا سواء كان ذلك من حيث الألفاظ أو الأسلوب أو المعانى أو الصور أو الأوزان، ونجده يتجاوب أحياناً مع عاطفته أكثر مما يتجاوب مع عقله فيأتى بالساحر والرائع من الغزل وأحياناً يتجاوب مع عقله أكثر مما يتجاوب مع عاطفته فيقل عن سابقه سحراً وروعة، ولكن صاغه فى روح مصرية خفيفة رائعة الافتنان جيدة السبك والصياغة وبدت عليه المظاهر الحضارية والثقافية التى وجدت فى العصر الأيوبى .

(١) ينظر ديوانه ص٤٦٦ ومابعدها .
(٢) ينظر ديوانه ص٤٨٣ ومابعدها .
(٣) ينظر ديوانه على سبيل المثال : ص١٦٥، ص٢٧٦ ، ص٤٩٧ .

الغزل الرقيق :

وأعنى به : هذا النوع من الغزل الذى يتغزل فيه الشاعر بامرأة ويصف فيه جمالها ويعلن خلاله عن حبها أو يتحدث فيه عن الهجر والوصال ومايحدثه كل منهما على نفسه وقلبه وذلك من خلال قصائد أو مقطوعات مستقلة فى شعر الغزل وليست مقدمة أو تمهيداً لقصيدة ذات غرض آخر من أغراض الشعر المختلفة .

وهذا اللون من الغزل يتغزل فيه الشاعر فى أنثى ويتجاوب فى غزله مع مشاعره وعواطفه الصادقة ويصور فيه جمال المحبوبة ويبرز مفاتنها وماتتمتع به من صفات جسدية ومعنوية .

وقد كان "ابن النبيه" فى هذا اللون من غزله يتجه به نحو العفة فى القول والبعد عن الفحش أو التماجن وذكر السوءات وقص الفواحش والحرمات شأنه فى ذلك شأن معظم شعراء العصر الأيوبى "حيث كان غزل الأيوبيين فى أكثره عفيفاً ليس به الفحش الذى كان فى العصر السابق"[١] أو عصر العباسيين حيث بلغ الفحش مبلغه فى غزل العباسيين وكثر الإسفاف فى معانيه وصوره وألفاظه .

وهذا اللون من غزل "ابن النبيه" جاء رقيقاً عذباً بل يفيض رقة وعذوبة وينساب فى يسر وسهولة وقد عبر فيه الشاعر عن مشاعره وعواطفه الصادقة وجاءت ألفاظه رقيقة سهلة لينة تتلاءم مع شعر الغزل وتتفق مع رقته ويزخر بالصور والأخيلة الرائعة والمعانى والأفكار الواضحة مستمداً بعضها من واقع حياته وتجربته الذاتية وحضارة عصره وبيئته حيناً ومستمداً بعضها من ذخائر التراث الشعرى فى فن الغزل العربى القديم فضلاً عن ظهر الروح المصرية الخفيفة فى ثناياه .

---

(١) ص١٤١ دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين د / محمد كامل حسين .

ويعد هذا اللون أقل أنواع الغزل وجوداً فى ديوان الشاعر حيث يحتل المرتبة الأخيرة بعد الغزل بالمذكر والغزل التقليدى وربما يرجع السبب فى ذلك إلى عزوف الشاعر عن المرأة واتجاهه نحو الغلمان وغرامه بهم وتبعاً لذوق العصر الذى عاش فيه وعاداته وأخلاقه ومما يؤكد ذلك ماذكرناه فى حياته من أنه كان صاحب غلمان وكان يؤثرهم على النساء .

ومع ذلك فللشاعر نماذج عديدة فى هذا اللون من الغزل تدل على أنه أحبَّ المرأة كذلك وداعب حبها قلبه بل شغفه وأنحل جسمه وعبر عن حبه لها بكل الصدق فى العاطفة والرقة فى اللفظ والروعة فى المعانى والصور والأخيلة .

ومن هذا القبيل قوله يتغزل :[1]

بيضاءُ تسطُو بسَواد أُحْداق ... تقلدتْ منها دماء العشاقْ
فى خدِّها ماء الشباب قد راق ... فَطَائر القلب عليه خفَّاق
قد بلبلتْ قلب المحبِّ المشتاق ... بسحر جَفْنٍ هو فيه قد حاق
شمس من الوشاحِ لامن إشراق ... لها أصيلٌ منْ حلىً وأعناقْ
ترنَّمتْ كالوُرق بين الأوراق ... هى الغزال خلْقةً وأخلاق
وشاحها الفارغ يشكو الإملاق ... وحجْلُها فى ثروةٍ من الساق
وخالُها فى غرقٍ وإحراق ... مثلى بين أدمع وأشواق
قالتْ لطْرفى وهو دامى الآماق ... قطْعتنى والقطعُ حدُّ السُّراق
إن رمقتْ لم يبق فى أرماق ... والطرْفُ سمٌ والرُضاب دُرياق
فى خدِّها صدغٌ كسطر إلحاق ... أو فحمةٍ قد دبَّ فيها إحراق
وخالُها حبَّةُ قلب المشتاق ... كم وعدتْ وماوفتْ بميثاق
وكم دمٍ بمُقلتيها مَهْراقْ

---

(١) ص٤٤٥ - ٤٤٧ ديوان ابن النبيه . وهى من الرجز .

فقد تغزل الشاعر في امرأة ووصف محاسنها وأبرز سمات الجمال منها ووصفها وصورها بمعان وصور طالما تغنى بها شعراء الغزل من قبل : حيث وصفها ببياض البشرة وسواد الحدقة ونعومة الخد ورقته وسحر الجفون وشبهها بالشمس والورق والغزال وأعجب بنحافة خصرها وامتلاء جسمها ثم شبه طرفها بالسم ورضا بها بالدرياق، وهذه كلها معانٍ وصور قديمة عرفها شعر الغزل فى العصور السابقة إلا أن الشاعر ألبسها ثياباً جديدة رائعة فبدت وكأنها جديدة، ومع ذلك نجد معانيها رقيقة تنساب فى خفة ويسر وسهولة ورشاقة وألفاظها تزخر سحراً وروعة ورقة فضلاً عن الإيحاءات الجميلة التى تتبع هذه التعبيرات الحلوة، ومما زاد العبارات روعة وجمالاً هذا الإنسياب الذى يتمثل فى جروف المد التى زادت عدتها فى الأبيات .

ولقد كان الشاعر عفيفاً فى غزله غير فاحش فى لفظه نبذ السوءات وذكر الفواحش فلم يتماجن ويمعن فى المجون فى غزله مثلما كان الحال فى العصور السابقة .

كما يلاحظ استخدام ألوان البديع خاصة الجناس والطباق فى أبياته إلا أنها ابتعدت عن التكلف والتصنع فزادت الأبيات جمالاً فوق جمال .

ومن غزله الرقيق قوله يتغزل : (١)

وحقِّ الهوى عن ذكركمْ ليس لى شغلُ ... وماأنـا ممن ينسى المودة أو يسلـو
تعشقتكم طفلاً وهمتُ بكم فتـىً ... وأنفقـت فيكـمُ عُمرى وأنا كهْـلُ
ومازالتْ العشاق فى مذهب الهـوى ... يفرِّقُهـا بيـنٌ ويجمعهـا شمْـلُ
وصَـبٌ يعانـى الغانيـات وقلبـه ... تكلّمـهُ الألحـاظ والحدقُ النُّجْـلُ
ومن يعشق البيض الحسان تيقّنتْ ... ضمائـره بالقطع إن حَصَـلَ الوصـلُ

---

(١) ص٤٧٩ - ٤٨٠ ديوان ابن النبيه . من بحر : الطويل .

ألا إنّ قلبي قد أصابته أسهمٌ من البين حتى النصلُ صادفه النصْلُ
كأنّ مقادير الزمان قسيُّهُ رماني بها والحادثات لها نَبْلُ

حيث نرى الشاعر يتغزل غزلاً رقيقاً في عفة دون فحش في لفظ أو معنى وتفيض ألفاظه رقة وعذوبة وتزخر أبياته بالصور والأخيلة الرائعة والمعاني والأفكار الواضحة، ونرى في هذه الأبيات عاشقاً ولهاً أضناه الحب وشفه، والعاشق الوله حقاً الذى أضناه الحب يجد صدى هذه الأبيات في نفسه بل تقع وقعاً على قلبه فيحس بصدقها ويحس بالترجمة الصادقة التى تشتمل عليها الأبيات .

إنها عصارة نفس مقيمة على الحب وأغنية حب جميلة عبرت بكل الصدق والمشاعر السامية عن أحاسيس الشاعر ومشاعره .

كما تزخر الأبيات بالمعاني والأفكار الجميلة الرائعة والصور والخيالات التى تبعث الجمال والحياة في كل بيت من الأبيات، وقد استخدم الشاعر ألوان البديع من جناس وطباق ومراعاة نظير ومقابلة ولكنها دون إسراف أو تصنع فزادت جمال الأبيات جمالاً على جمال.

ومن غزله الرقيق قوله يعلن عن حبه وهواه في شعر عاطفي: (١) .

إذا رأيتُ الهلال والغُصْنَا ذكرْتُ قداً ومنظراً حَسَنَا
مهفهفُ القدّ مارنا ودَنَا إلا رأيتُ الغزالَ والغُصْنَا
كالروض عَرْفاً وبَهجَةً وجنىً والبدر حُسْناً ورفعةً وسنا
جسْمي ألفْتُ السقام فيه كما أنّ جفوني لاتعرف الوسَنَا
لله كم ليلةً نعمتُ بها ماشابها قطُّ ريبةٌ وَخَنَا
أيّام كان الحسود في سِنَةٍ فانتبهتْ عينُه ففرّقنا

---

(١) ص٤٦٢ - ٤٦٣ ديوان ابن النبيه . والقصيدة من : المنسرح .

نحس بعذوبة الأبيات ورقة الألفاظ ونراها تنساب فى خفة ويسر وسهولة وتعبر عن مشاعر صادقة وأحاسيس جياشة ومعانيها رقيقة وموسيقاها تنساب فى روعة وبراعة وتنبعث الموسيقى انبعاثاً طبيعياً من بين ثنايا الألفاظ من جهة ومن الوزن العروضى من جهة أخرى، فضلاً عن الإيحاءات الجميلة التى تتبع هذه التعبيرات الحلوة. وإذا كان الشاعر قد تأثر بمعانى الأقدمين وصورهم وخيالاتهم فإنه قد كساها ثيابه الجديدة وأسلوبه المناسب فظهرت الأبيات فى صورة مشرقة جديدة .

ومن غزله الرقيق قوله يتغزل فى بيت واحد : (١)

قـل لأحبابـى كسونى الأرقـا ... مـات صبـرى فلهـم طول البقـا

ومن غزله الجميل الرائع والذى يرجح أن يكون فى امرأة وإن كان بلفظ المذكر وذلك على عادة بعض الشعراء وفضلاً عن أنه لم يصرح بأنه فى غلام أو ساقٍ كما هو شأنه، فضلاً عما يدل عليه آخر الأبيات فيقول : (٢)

دعْ العين تأخذ منك مايشتهى القلبُ ... فقـد حان يوم البين واحتمل الركب
وقالوا صبا واستحسَنَ العشق جاهلاً ... ومن ذا رأى ماقد رأيتُ ولايصبـو؟
ومالـى ذنـبٌ غيـر أنىَ أحبُّـهُ ... وذلك ذنبٌ تركـه فى الهـوى ذنـبُ
ودارى مـن دار الحبيـب قريبـة ... ومابيننـا رُسـلٌ تمـرُ ولاكتـبُ
أناديــه مــن دون الحجاب مُخاطباً ... فمـا ضرَّ لو قدْ كشفتْ بيننا الحُجْبُ

فأى روعة لتلك الأبيات وأى لوعة وجوى تضم بين ثناياها ؟.

إن الأبيات تدل على حب عظيم ملك على الشاعر قلبه واستحوذ على عقله وسيطر على مشاعره وعواطفه، وقد برع الشاعر براعة فائقة فى أبياته : لفظاً ومعنىً وأفكاراً ومعانٍ ، حيث جـاءت

---

(١) ص٤٧١ ديوان الشاعر . من بحر الرمل .

(٢) ص٤٦٩ ومابعدها ديوان الشاعر . من بحر : الطويل .

ألفاظه رقيقة عذبة وتتناسب فى خفة وسهولة وتتلاءم مع شعر الغزل ومعانيه واضحة رائعة تفيض رقة ورشاقة كما تزخر الأبيات بالصور الرائعة والمشاعر الجياشة كما تنبىء عن شاعر فنان ملك أدوات البيان وخصائص الشاعرية .

وهكذا جال "ابن النبيه المصرى" فى غزله الرقيق وإن كان هذا اللون أقل ورودا فى ديوانه من النوعين الآخرين للأسباب التى قدمناها آنفاً . ويلاحظ على غزله هذا تجاوب الشاعر مع عاطفته ومشاعره أكثر من تجاوبه مع عقله فانطبعت فيه العاطفة الصادقة ومشاعر الحب الجياشة .

الغزل بالمذكر :

يعد الغزل بالمذكر ظاهرة من الظواهر التى تؤكد الانحلال الأخلاقى فى المجتمع الذى يوجد فيه هذا النوع من الغزل الشاذ وتثبت حياة اللهو والمجون والفساد فى هذا المجتمع الذى يضم هذا اللون وذلك لأن الشاعر إذا أحب امرأة وتغزل فيها ووصف مفاتنها وأبرز جمالها وصرح بحبه لها وعاطفته نحوها وراح يصف ماحدث له معها من هوى وحب فهذا شىء معقول تقبله الأذواق والعقول أما أن يتغزل الشاعر فى رجل أو غلام فهذا شىء شاذ يتنافى والأعراف الاجتماعية والأخلاقية ويخرج عن حد الأخلاق والذوق السوى بكل المعايير والمقاييس .

وقد نشأ الغزل بالمذكر ونبت أول مانبت فى العصر العباسى الأول على أيدى جماعة من الشعراء المجان فى هذا العصر أمثال : "مطيع بن إياس" و "حماد عجرد" و "أبى نواس" و "والبة" و "سلم الخاسر" و "الحسين بن الضحاك" وغيرهم من مجان العصر وفساقه من الشعراء .

وظل هذا اللون من الغزل بعد العصر العباسى الأول ونظم فيه شعراء العصور المتعاقبة ومنها العصر الأيوبى حيث شاع الغزل بالمذكر شيوعاً واضحاً وانتشر انتشاراً واسعاً لامثيل له من قبل وأصبح الغزل بالمذكر هو اللون المألوف والمفضل عند جميع أبناء العصر الأيوبى على اختلاف طبقاتهم وكأنه شىء مباح كالأكل والشراب والنوم لافرق .

وإذا كان الغزل بالمذكر قد عرف فى العصر العباسى الأول وشاع فيه شيوعاً كبيراً إلا أنه مع ذلك لم يكن بنفس القدر والكيفية التى أصبح عليها فى العصر الأيوبى لأنه فى العصر العباسى الأول

قد نظم فيه بعض شعراء العصر المجان الذين عرفوا بالخلاعة واشتهروا بالمجون فقط أما فى العصر الأيوبى فقد نظم فيه جميع شعراء العصر حتى من عرف منهم بالتقوى والورع وأصبح شيئاً مألوفاً تقبله أذواق الشعب الأيوبى كله بل إن القصيدة التى ينظمها الشاعر ولم يمهد لها شاعرها بالغزل في المذكر لم تلق رواجاً وانتشاراً حيث أحل الغزل بالمذكر محل الغزل التقليدى وأصبح المقدمة التقليدية التى تفتتح بها القصائد ذات الغرض الشعرى الأخر كالمدح والفخر والهجاء والوصف والرثاء وغير ذلك من الأغراض الشعرية المختلفة .

ولكن للحقيقة أن الغزل بالمذكر فى العصر الأيوبى لم يسف فيه الشعراء ولم يبلغوا فيه من الخلاعة والتماجن وذكر الفواحش والسوءات والتصريح بارتكاب المحرمات والفواحش مثلما كان ذلك فى شعر العصر العباسى الأول، ولكن كان ذلك فى شىء من العفة والبعد عن فحش القول والألفاظ النابية الخارجة عن حد الأخلاق والعرف وإن كان هذا اللون من الغزل فى حد ذاته فحشاً ومجوناً.

ويعد "ابن النبيه المصرى" من شعراء العصر الأيوبى الذين أكثروا من شعر الغزل بالمذكر ولاغرابة فى ذلك فقد كان الشاعر من أهل اللهو والمجون من شعراء العصر الأيوبى وقضى حياته لاهياً ماجناً عابثاً فى حانات الخمر ومجالس المجان يتعاطى كؤوس الخمر وسط الغلمان ذوى الوجوه الجميلة والأخلاق المنحلة فضلاً عن مسايرة الشاعر لروح العصر الذى يعيش فيه وموافقة أذواقه خاصة وأنه عاش حياته متكسباً بشعره فكان عليه أن يبدأ قصائده بهذا اللون من الغزل الماجن الشاذ حتى تروج أشعاره ولايصيبها البوار والكساد، فنراه يحرر قلمه لخوض غمار هذا اللون من الغزل وينظم فيه معظم أشعاره فى فن الغزل وأصبح الغزل بالمذكر أكثر ألوان

الغزل شيوعاً فى شعره الغزلى وأصبح يمثل موضوعاً واضحاً من موضوعات الشعر التى أكثر الشاعر من النظم فيها .

ونرى "ابن النبيه المصرى" يتغزل بالمذكر وكأنه يتغزل فى امرأة لافرق حيث نراه يصف جمال الفتى أو الغلام الساقى ويصور محاسنه ويشيد بذلك فى وجهه وعينه وخده وشعره وأردافه واعتدال قامته وجمال حديثه ودلاله ويصور كلفه به وتوجعه من حرقة هواه ولوعة فراقه وابتلائه بأنواع الصد والهجر إلى غير ذلك من هذه الأوصاف والمعانى التى يتغزل بها الشعراء فى الأنثى، حتى يكاد يخيل لقارىء هذا الشعر أنه غزل فى امرأة لافى رجل ولولا وجود الفارق بين المذكر والأنثى من الضمائر وتصريح الشاعر بأنه غزل فى غلام ومعرفة المناسبة التى قيل فيها هذا الشعر لما عرفنا أنه غزل فى المذكر .

فغزله بالمذكر لايختلف عن الغزل بالمؤنث فى الأوصاف والمعانى وتناول الأعضاء والصور والتصوير بل والألفاظ أيضاً .

وبلغ من شيوع الغزل فى المذكر عنده واستحواذه على فكره أنه كان يمهد لقصائده فى المدح بهذا الغزل الشاذ حتى ولو كان الممدوح ملكاً أو وزيراً أو الخليفة العباسى نفسه .

وتبعاً لذلك جاء غزله بالمذكر على لونين مختلفين :

أولهما : غزل جعله مقدمة لقصيدة المدح سواء اقتصر عليه أم ضم معه وصف الخمر أو الطبيعة وتخلص منها إلى الغرض الأصلى.

وثانيهما : غزل بالمذكر مستقل فى قصيدة بعينها .

وقد كان اللون الأول أكثر شيوعاً وانتشاراً واستحوذ على الجانب الأكبر من مجموع غزله فى هذا اللون من الغزل الماجن .

ومن اللون الأول قوله فى مقدمة قصيدة مدح بها الخليفة العباسى وبعد أن بدأها بوصف الخمر أخذ يتغزل فى غلام ساق بقوله: (١)

ساقٍ تكوّن من صبح ومن غسق ... فابيــض خدّاه واسودّتْ غدائـره
بيــض سوالفــه، لُعْسٌ مراشفــه ... نُعْــسٌ نواظره . خُرْسٌ أســاوره
مُفلجُ الثغر معسول اللّمــى غَنــجٌ ... مؤنّــثُ الجفْن فَحْلُ اللحظ شاطـره
مهفهف القد، يندى جسمــه ترفــاً ... مُخَصّــرُ الخصْر عَبْلُ الردف وافره
كأنــه بســواد الليــل مكتحــلٌ ... أو ركِّبتْ فـوق صُدغيه محاجـره
فلو رأت مُقلتا هــاروت آيتَــه الـ ... ـكبـرى لآمــن بعـد الكفر ساحره
قامتْ أدلّــة صُدْغيــه لعاشقــه ... علــى عـذولٍ أتــى فيــه يناظـــره

نرى الشاعر يتغزل فى الغلام الساقى وكأنه يتغزل فى أنثى دون حرج أو وازع من دين أو ضمير ويصف مفاتنه ويبرز محاسنه وكأنه يصور ويصف امرأة جميلة أعجبته فأحبها ويصف الأعضاء التى توصف فى المرأة عند التغزل فيها فيصور وجهه وغدائره وسوالفه ونواظره ومباسمه وشفتيه وجفونه وقده وخصره وردفه، ويعجب الشاعر ببياض الغلام وسواد شعره ولعس مراشفه وفتور جفونه وتفليج أسنانه وطول قده ونحافة خصره وثقل ردفيه وغير ذلك من المعانى والصور التى طالما تغنى بها الشعراء فى شعرهم الغزلى وتغزلوا بها فى المرأة .

ومن غزله بالمذكر الذى جاء مقدمة تمهيدية قوله يتغزل فى ساقٍ فى مقدمة قصيدة مدح بها الملك "الأشرف": (٢) .

من سحر عينيك الأمان الأمان ... قتلْتَ ربَّ السيــف والطيلسان
أسمــر كالرمــح لــه مقلــة ... لــو لم تكن كحلاء كانت سنان

---

(١) ص٩٢ ديوان ابن النبيه . من بحر : البسيط .
(٢) ص١٥٩ - ١٦٠ ديوان إبن النبيه المصرى .

أهيفُ عبْلِ الردف حلـو اللّمى | مرُّ الجفا قاسٍ رطيـب البنـان
يـزدادُ إذ أشكـو لـه قسـوةً | ولـو شكوت الحُبَّ للصخر لان
ساقٍ سها رضـوان عن حفْظه | ففـرَّ من جملـة حـور الجنان
بدرٌ وكأس الراح شمس الضحى | ياقـوم ما أسعـد هـذا القـران
بخـدّه أو طرفـه أو جنـى | لَماهُ سُكْرى لا ببنت الدنـان

نجد الشاعر يتغزل فى الغلام ويشكو من حبه وهجره وقساوة قلبه ويصف جماله ويصور مفاتنه ويعجب منه بدقة خصره وثقل ردفه وحلاوة شفتيه ورقة أصابعه ويشبهه بالحور العين فى الجمال وبالبدر فى الحسن والضياء، وكل هذه الأوصاف والمعانى والصور تقليدية قديمة إلا أن الشاعر كساها ألفاظاً جديدة وبرع فى نسجها وحياكتها فبدت الأبيات وكأنها جديدة .

وقد أعجب "ابن النبيه" فى غزله : بالوجه الجميل المضىء وبالبشرة البيضاء وبالخصر الدقيق وبالردف الثقيل وبالجفون الفاترة والخدود المتوردة والمباسم البيضاء اللامعة واللمىّ اللعسة والشعر الفاحم كالليل والعيون الزرقاء والقامة الطويلة والعنق الطويل والصدر الممتلىء ، كما صور حلاوة الريق وبياض الأسنان ولم يترك عضواً من أعضاء الجسم إلا وصوره وأظهر جماله وافتن فى كل ذلك افتتاناً وراح يكرر ذلك فى غزله ويلبسه ثياباً جديدة فى كل مرة .

ومن غزله بالمذكر فى مقدمة تمهيدية قوله يتغزل فى "تركى": (١)

رضا بك راحى، آس صدغيك ريحانى | شقيقى جنى خديك جيد سوسانى
وبيـن النقـا والبـدر تهتـز بانـةٌ | لهـا ثمـرٌ مـن جلّنـارٍ ورمـان

(١) ص١٧٣ ومابعدها . ديوان ابن النبيه . بحر الطويل .

غزال رخيم الدلّ يُطمع أنسه   وماصيدَ إلا فى حبائل أجفانى
من الترك فى خدّيه للحسن جنة   بمالكهــا محروسة لابرضــوان
تظن رياض الخدّ منه مباحة   وناظره الناطور يَجْنى على الجانى
تعمَّمَ بين الشَّرْب بالشَّرْبُ مذهباً   فلاح لنا برقٌ علــى قمرٍ ثــان
سَلَبْتَ كرى الأجفان ياسحر جفنه   فلستَ تُرى من بعدها غير وسنان

حيث نرى الشاعر يتغزل فى الغلام وكأنه يتغزل فى أنثى دون حياء أو خجل ولكنه برع فى صوره ومعانيه وتصويره ويبدو ذلك واضحاً فى كل بيت من الأبيات .

ولكننا نرى الشاعر يسف فى أبياته التالية فيذكر بعض مساوئه من تقبيل وعناق .(١)

ومن غزله الرائع فى صوره ومعانيه قوله يتغزل فى مقدمة قصيدة مدح بها "الملك الأشرف" ارتجالاً: (٢)

أماناً أيهــا القمــر المطلُّ   علــى جَفْنَيكَ أسيــافٌ تُسلُّ
يزيــد جمال وجهــك كــل يوم   ولــى جسدٌ يذوب ويضمحــلُّ
وماعرف السقامُ طريق جسمى   ولكــن دلَّ مــنْ أهــوى يَــدلُّ
يميــلُ بطرفــه التركــىّ عنــى   صدقتــم إنّ ضيــق العين بُخْلُ
إذا نُشِــرتْ ذوائبــه عليــه   تــرى مــاءً يرفُّ عليــه ظــلُّ
وقد يَهدى صباحُ الخدّ قومـاً   بليـل الشعر قد تاهوا وضلوا

نرى "ابن النبيه" يتغزل بغلام تركى ويبرز مفاتنه ويصف جماله ويشبهه بالقمر ويرى أن وجهه يزداد جمالاً كل يوم بينما هو يضمحل جسمه من حبه وهواه وأصابه السقام من دله وصده وهذه كلها معان قديمة عرفها الشعراء قبل عصر "ابن النبيه" ولكن نلاحظ

(١) تنظر الأبيات : ١٧٤ ديوان الشاعر .
(٢) ص٢٥٥ ومابعدها . ديوان ابن النبيه . من بحر الوافر .

أن الشاعر يعجب بالعيون الضيقة ويتغزل فيها مخالفاً بذلك المعهود والمعروف عن شعراء الغزل الذين طالما تغنوا فى غزلهم بالعيون الواسعة التى تشبه عيون المها أو عيون الجآذر .

ويبدو أن الشاعر كان مغرماً بالعيون الضيقة حيث تغزل بها فى مواضع عديدة من ديوانه(١) .

ونلاحظ أن الشاعر قد تأثر بأوصاف القدماء ومعانيهم التى ذكروها فى غزلهم ونرى تشبيهاته وأساليبه تظهر فيها الروح المصرية بوضوح - ويبدو ذلك فى غزله كله - ومن ذلك قوله هنا : "إن ضيق العين بخل" وهذا مايجرى على ألسنة المصريين .

وقد أخذت هذه الأبيات الغزلية شهرة واسعة ولحنت للغناء فى العصر الحديث وذاع أمرها بين الناس وجعلها ابن شاكر فى نماذجه التى ساقها للشاعر(٢) وأشاد بها الأستاذ "أدهم آل جندى" إلا أنه جانب الصواب حين قال : إنها مقدمة قصيدة مدح بها الخليفة "الناصر أحمد أمير المؤمنين"(٣) ولكنها مقدمة قصيدة مدح بها الملك "الأشرف" الأيوبى لا الخليفة العباسى .

وللشاعر نماذج أخرى كثيرة تغزل فيها بالمذكر وجعلها مقدمة وتمهيداً لقصائده ولم يقتصر فيها على التغزل بالمذكر(٤) .

---

(١) ينظر ديوانه : ص١٤٢ ، ص٢٤٢ ، ص٤٠٤ على سبيل المثال .

(٢) ينظر ص٧٣ جـ٣ فوات الوفيات .

(٣) ينظر ص٤٢٣ جـ٢ أعلام الأدب والفن .

(٤) ينظر ديوانه : ص١٨٠ ، ص١٩٧ ، ص٢١٤ ، ص٢٢١ ، ٢٣٤ ، ص٣٤١ ، ص٢٤٧ ، ص٢٦١ ، ص٢٧٦ ، ص٢٨٧ ، ص٣٣٧ ، ص٣٦٤ ، ص٣٥١ ، ص٣٨٣ ، ص٣٩٣ ، ص٤١١ .

ومن غزله فى المذكر المستقل حيث جعل القصيدة كلها فى الغزل ولم يجعلها مقدمة وتمهيداً قوله يتغزل :(١) .

لَمَاك والخدُّ النَّضرْ ... ماءُ الحياة والخَصرْ
أخذْتني ياتاركي ... أخذ عزيز مقتدرْ
أحلت سُلواني على ... ضامن قلب مُنكسرْ
ونمتَ عن ذى أرقٍ ... إذا غفا النجمُ سَهرْ
وما عَيْنيَّ التقى ... لابرحتْ على قدَرْ
مانصبتُ أشْراك ألـ ... حاظك إلاّ للحذر
قلبي على التُّرك بهـ ... ـذا البدويّ يفتخرْ
ولعيّ عهدُ البدْر إنْ ... غاب فإني مُنْتظرْ
خلعتُ إذ بايعتُهُ ... عذارَ من لايَعْتذر
عُقْدة قاف صُدْغُهُ ... تَحُل عقْدَ المصْطبرْ
في خَلقه وخُلقه ... طبع الغزال والنَّمرْ
ترعاه أحداق القنا ... فكيفما سار تسرْ
إنَّ طريق ناظري ... إلى محيَّاه خطرْ

يتغزل الشاعر ببدوىّ ويصف جمال لماه وخده وألحاظه ووجهه وصدغيه ويشبهه بالبدر فى الجمال وبالغزال فى خلقته وبالنمر فى أخلاقه ويفتخر بجماله على جمال الأتراك ويصور عظم حبه له ومايلاقيه فى سبيل هذا الحب من ألم وعناء وكأنه يتغزل فى امرأة أحبها وعشقها وذاق من حبها الآلام والعناء، بل إننا نرى الشاعر يخلع عذاره ويجاهر بذلك دون مراعاة لحرمة أو وازع من دين أو ضمير .

ومعانى الأبيات وأفكارها واضحة جلية وقد استقى الشاعر معظمها من معانى الأقدمين ولكنه قد برع فى نسجها واختار لها

(١) ص٤٢٢ - ٤٢٤ ديوان ابن النبيه المصرى . والقصيدة من مجزوء الرّجز .

ألفاظاً وأسلوباً عذباً رقيقاً يتلاءم مع شعر الغزل فضلاً عن أنه نظمها على مجزوء الرجز وذلك يتفق مع خفة شعر الغزل ورقته .

ونرى الشاعر يقتبس من أسلوب القرآن الكريم ويضمنه فى غزله وذلك مثل قوله فى البيت الثانى حيث اقتبسه من قوله تعالى: "فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر"(١)

وقوله فى البيت الخامس مقتبس من قوله : "فالتقى الماء على أمر قد قدر"(٢) فضلاً عن الاعتماد على التشبيه والاستعارة والكناية فى تصوير مشاهده ووصف صوره وعلى ألوان البديع من طباق وجناس ومراعاة نظير فى تزيين أسلوبه وتحسينه دون تكلف أو تصنع، كما نلحظ فى الأبيات خفة الروح المصرية تلقى بظلالها على أبياته كلها..

ومن غزله بالمذكر المستقل قوله يتغزل :(٣)

وحقَّ من بدلَّ نومى بالسَّهر ... وعذّب القلب بأنواع الفكرْ
وأسقم الجفن بسُقم جَفْنه ... وأسْهَرَ الطرْفَ وللقلب أسرْ
ماخلتُ ذاك الوجْهَ لمَّا أنْ بدا ... فى جنح ليلِ شعره إلاَّ قمرْ
وَهْوَ فما ظنٌّ دموعِ مقلتى ... بما جرى من فيضها إلاَّ مطرْ
أحور والفتور حشْوُ جَفْنه ... ياحبذا ذاك الفتور والحور
مرَّ بنا يخطر فى مَشْيته ... والقلبُ من خطرته على خطرْ
هزَّ لنا من قده رمحاً ومنْ ... ألحاظه ياعاذلى سيفاً شهرْ
مخالفٌ إنْ قُلتُ دعْ زيارتى ... زار وإن قلتُ له صلْنى هجر
والله ماعاتبْتُه إلاَّ وفى ... ولاوفيتُ عهدهُ إلاَّ غدرْ

---

(١) سورة القمر . الآية رقم ٤٢ .

(٢) سورة القمر . الآية رقم ١٢ .

(٣) ص٤٣١ - ٤٣٢ ديوان ابن النبيه . القصيدة من بحر الرجز .

نجد الشاعر يتغزل فى المذكر وكأنه يتغزل فى أنثى حيث راح يشكو من حب المحبوب ويصور عذابه ومعاناته من قبل محبوبه : حيث حوّل نومه إلى السهر وعذب قلبه بطول الفكر وأسقم عينيه بجمال عيونه وأسهر عينيه وأخذ قلبه، ثم راح يصف جمال محبوبه فيصوره بالقمر ويصور شعره بالليل فبدا بياض الوجه وسط ظلام الشعر جميلاً مضيئاً وسط الظلام الحالك، ويصف محبوبه بأنه أحور فاتر الألحاظ ويجعل من قده رمحاً ومن عينيه سيوفاً مشهرة مصوراً جمال مشيته وخلف وعده ودلاله .

فالشاعر يتغزل فى الغلام وكأنه يتغزل فى أنثى دون فرق ويستخدم المعانى والصور والتصوير التى تستخدم فى غزل المؤنث ويصبها فى أبياته متغزلاً بالمذكر .

وقد وفق الشاعر فى أسلوبه وألفاظه ومعانيه حيث جاءت رقيقة عذبة سهلة واضحة تلائم شعر الغزل وتتفق مع رقته وخفته وسحره وجماله، وقد اعتمد الشاعر اعتماداً كبيراً على التشبيه والاستعارة وألوان البديع فى تصوير صوره ووصف محبوبه وهى وإن كانت فى معظمها تقليدية إلا أنه برع فى صياغتها ونسجها وكساها ثياباً جديدة أنيقة تظهر من ثناياها خفة روحه والروح المصرية، وكم للأبيات من روعة ورقة وكم كنا نتمنى أن تكون غزلاً فى أنثى لافى غلام .

ومن هذا القبيل قوله يتغزل فى غلام ساق من الأتراك: (١)

بيـن البنـان وصُدغه المعقـود ... خمـران من كـأس ومن عَنْقُود
هـذى تدارُ لنا بأبيـض ناعـم ... تـرف وتلـك تُدار فـى تورِيد

---

(١) ص٤٤٠ – ٤٤٣ ديوان ابن النبيه . والقصيدة من بحر : الكامل .

سـاقٍ كأنَّ جبينـه فـى شعـره ... قمرٌ تبلّج فى الليالـى السود
غُصْنٍ ترنّحَ ردفُـه فى خَصْـره ... فعجبتُ للمعدوم فى الموجـود
وضّاحُ دُرِّ الثغر معسول اللّمى ... مُتضايقُ الأجفان رحبُ الجيـد
يلوى علـى زَرَد العـذار دلالـه ... كـمْ فتنـةٍ بيـن اللّوى وررود
نبتتْ على الكافـور مسكةُ خالـه ... والمسـكُ ينبتُ فى الظبـاء الغيد
فـى جفنـه لُمحبِّـه وعـدوِّه ... سيفـان مـن لحـظٍ وحَـدٌ حديـد
هذا يقوم علـى القلـوب دليلُـه ... قطْعـاً وذاك السيـفُ بالتقليـد
إيـاك والأتـراكَ إنَّ لبعضهـم ... أشْخـاص غُزْلانٍ وفعْـل أسود
أجسامهـم كالمـاء إلاَّ أنّهـا ... حملـتْ قلوباً من صفـا الجلمود
هم عذّبوا الجسْمَ السُّقام وعذّبوا ... أجفاننـا بالدمـع والتسهيـد
أرْعى الكواكبَ مُعْولاً فكأننى ... وُكّلـتُ بالتَّعْـداد والتّعْديـد

يتغزل الشاعر فى غلام تركى ساقٍ يتقن فنون الحرب والقتال فصوره ووصفه بأوصاف تبرز جماله ومفاتنه وشجاعته فى ساحات المعارك .

فالشاعر يصور جمال الغلام أثناء تناوله الخمر ويمزج بين خمر وجهه وخمر يده التى يدور بها على الندامى ثم يصف عارضه وقد خط فيه الشعر فبدا سواده إلى جانب بياض الوجه كأنه قمر تبلج فى الليالى الحالكة السواد ثم يصور قوامه بالغصن ويعجب بردفه الثقيل وخصره الدقيق وبياض مباسمه ولعس لماه وضيق عينيه وطول عنقه وسحر عيونه، ثم يشبهه بالقمر والظبى والغزال وجسمه بالماء وقلبه بالحجر الصلب وفى شجاعته بالأسد .

ونجد الشاعر يمزج فى أبياته بين معانى الغزل ومعانى الفروسية والحرب لأنه يتغزل فى غلام تركى جميل الوجه يتقن الحرب وفن القتال ويبلى من الشجاعة والشهامة فى المعارك فقرن اهتزاز العود باهتزاز السمهرى وفتك اللحظ بالصارم وإصابة الجفون بالسيوف.

وقد كرر الشاعر هذه المعانى كثيراً فى غزله خاصة حينما يتغزل فى غلام محارب من الأتراك .

وإذا كان الشاعر قد ضمن الغزل بالمذكر قصائد طويلة فإنه كذلك تغزل بالمذكر فى مقطوعات شعرية قصيرة ربما وصلت فى مجموعها إلى بيتين أو بيت واحد، ومن هذا القبيل قوله يتغزل فى صبى يهودى فيقول :[١] .

مــن آل إسرائيــل عُلّقْتــهُ ... عذّبنـي بالصـّـدّ والتّيــه
تنــزّلَ السّلْـوى على قلبـه ... وأنــزل المـنّ علــى فيــه

حيث يتغزل ابن النبيه فى غلام يهودى فى بيتين ويعلن خلالهما عن حبه لهذا الغلام وعذابه من صد محبوبه ودلاله مقتبساً من أسلوب القرآن الكريم فى بيته الثانى وذلك من قوله تعالى: "وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى"[٢] .

ويتغزل فى غلام يتعلم علم الكيمياء بقوله :[٣]

تعلّمـتُ علـم الكيمياء بحبّـه ... غزالٌ بجسمى مابجفنيْه من سُقْم
فصعّدتُ أنفاسى وقطّرْت أدمعى ... فصحّ بـذا التدبير تصْفيرةُ الجسم

حيث يصرح بحبه للغلام الذى شبهه بالغزال ووصفه بسقم عينيه، ويستخدم فى غزله بعض الألفاظ العلمية التى تلائم وظيفة المتغزل فيه والتى توحى بثقافة الشاعر العلمية وتدل على أنه ثقف العلوم الحديثة التى استجدت فى عصره الذى عاش فيه .

ومن ذلك قوله فى غلام بعد طلوع عذاره :[٤]

---

(١) ص٣٨٩ ديوان ابن النبيه . والبيتان من بحر السريع .
(٢) سورة البقرة . الآية رقم : ٥٧ .
(٣) ص٣٩٠ ديوان ابن النبيه . البيتان من بحر الطويل .
(٤) ص٤٠٨ ديوان ابن النبيه . البيتان من بحر : السريع .

سَالَ على وَجْنَتـه عـارضٌ كالعَرَض القائـم بالجوهـر
ياشعـرُ لاتكـذبْ علـى خدِّه مـاذاك إلاَّ زردُ المغْفَـر (١)

ويتضح من بيتيه ثقافة الشاعر لعلوم المنطق والفلسفة حيث ذكر : العرض والجوهر .

وقال فى مغنٍ وأبدع فيه (٢)

كـل ماأملـكُ إنْ غنّـى هبـه لبـق أقبـل فـيه هيـفٌ

حيث اقتصر الشاعر فى غزله على بيت واحد فقط .

وقال فى غلامٍ بخال يتغزل فيه فى بيتين ، (٣) .

وبى هندسيُّ الشكل يَسْبِك لحظُه وخـالٌ وخـدٌ بالعـذار مُطـرَّزُ
ومُذْ خـط بيكـارُ الجمال بخـدِّه عـذاراً علمنا أنما الخـالُ مركزُ

ويتضح من البيتين ثقافة الشاعر العلمية الحديثة فى علم الهندسة والفنون .

وهكذا تغزل الشاعر فى المذكر وجاء غزله فيه على صورتين :

الأولى : جاءت أبياته الغزلية بالمذكر مقدمة وتمهيداً لقصائده فى المدح وكان هذا اللون هو الغالب والأكثر .

والثانية : جاءت أشعاره فى الغزل بالمذكر مستقلة وضمنها القصيدة كلها وتنوعت بين : القصيدة الطويلة والمقطوعة الشعرية القصيرة التى بلغت المدى فى القصر حيث وصل بها إلى بيت أو بيتين اثنين، وقد استخدم الشاعر فى غزله نفس المعانى والصور والأخيلة التى تستخدم فى التغزل بالمؤنث إلا أنها جاءت بأسلوب المذكر .

---

(١) المغفر : زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة .

(٢) ص٤٣٦ ديوان ابن النبيه . من بحر : الرمل .

(٣) ص٤٧٢ ديوان ابن النبيه . من بحر : الطويل .

الخصائص الفنية لغزله :

تتميز أشعار "ابن النبيه" فى شعر الغزل بخصائص فنية واضحة وسمات شعرية خاصة تتلخص فى الآتى :

أولاً : اتخذت أشعار الغزل عند الشاعر أشكالاً مختلفة وبناءً متعدداً، فجاءت أحياناً مقدمة وتمهيداً لقصيدة ذات غرض شعرى أخر وأحياناً مستقلة بذاتها لايشركها غرض شعرى آخر سوى فن الغزل، وجاءت أحياناً فى قصائد طويلة وأحياناً فى مقطوعات شعرية قصيرة محدودة الأبيات بل ربما وصل بها إلى بيت أو بيتين اثنين، وبقدر ماطرأ على القصيدة الغزلية من تطور وتحول وتردد بين الطول والقصر طالت المقدمة الغزلية طولاً واضحاً لدرجة أن أبياتها فاقت فى مجموعها أبيات الغرض الأصلى للقصيدة، كما يلاحظ أيضاً التمهيد والتقديم بالغزل فى المذكر وشيوع ذلك شيوعاً واضحاً بشكل لم يوجد له مثيل فى الشعر العربى من قبل، فضلاً عن أن الشاعر قد نظم غزله فى شكل القصيدة والموشحة والزجل والدوبيت.

ثانياً : استطاع الشاعر أن يختار لغزله أسلوبه الملائم والمناسب لمقام الغزل حيث جاءت ألفاظه وتراكيبه ومعانيه رقيقة عذبة سهلة واضحة وابتعد فيها عن الغموض والخفاء والصلابة والوعورة والقوة اللهم إلا إذا كان الغزل غزلاً تقليدياً فإنه يخضعه للغرض الأصلى للقصيدة فى الأسلوب واللفظ والأفكار والمعانى، إلا أن الطابع الغالب لشعره الغزلى كان الرقة والسهولة والخفة والرشاقة والعذوبة وظهور الروح المصرية ظهوراً قوياً فى غزله .

ثالثاً : جاءت معانى الشاعر وأفكاره وصوره فى معظمها تقليدية احتذى فيها "ابن النبيه" معانى وصور الأقدمين وخيالاتهم وإن صاغها بثياب جديدة وشكل جديد فبدت وكأنها جديدة، ولكن مع ذلك لانكاد نعدم معنى وصورة وخيالاً جديداً مبتكراً وإن كان

ذلك قليلاً إلا أن الشاعر كان بارعاً رائعاً فى صوغ معانيه وصوره وخيالاته .

رابعاً : أعجب الشاعر فى غزله بالأوصاف والمعانى القديمة التى وردت فى شعر الغزل : فتغزل بالشعر الفاحم والوجه الجميل الأبيض والعيون الواسعة والألحاظ الفاترة والمباسم البيضاء والشفاه الداكنة والجيد الطويل والخصر النحيف والردف الثقيل والبشرة البيضاء والملمس الناعم وغير ذلك مما أغرم به الشعراء السابقون ولكنه أيضاً أعجب بالعيون الضيقة مخالفاً بذلك أذواق القدماء فى جمال العيون واتساعها فضلاً عن أنه لم يترك شيئاً عن الحب بوصاله وهجره والوشاة والعاذلين ولاأجزاء الجسم إلا وتغزل به ووصفه وأبرز مفاتنه ولكن فى عفة وطهارة فى معظم الأحيان، فضلاً عن أنه أكثر من وصف العارض وقد خط فيه الشعر ومزج معانى الغزل بمعانى الفروسية والحرب إذا كان الغزل فى تركى محارب .

خامساً : صور غزله حياته التى عاشها وحياة عصره الذى عاش فيه حيث جاء صورة صادقة لمشاعر الشاعر وتصوير واقع حياته وواقع المجتمع الأيوبى وذوقه وأخلاقه وعاداته وتقاليده بكل الصدق والدقة والوضوح .

سادساً : أكثر الشاعر من استخدام ألوان البيان من تشبيه واستعارة وكناية وأصاب من ذلك حظاً وافراً وأكثر من استخدام ألوان البديع واتجه فى غزله نحو الزينة اللفظية إلا أنه استخدمها فى موضعها بحيث لاتطغى على أسلوبه وجاءت دون تكلف أو تصيد فزادت جمال الأسلوب جمالاً فوق جمال، ولم يستخدمها بكثرة مفرطة كغيره من شعراء عصره الذين أفرطوا فى استخدامها

وكأنه لاهم لهم إلا حشو شعرهم بالبديع فعاد ذلك بالتخلف والسقوط على أشعارهم .

سابعاً : نظم الشاعر غزله على معظم بحور الشعر العربى المعروفة وعلى معظم حروف الهجاء فى قافيته إلا الحوش منها، فلم ينظم قافيته على حروف : الخاء أو الشين أو الصاد أو الضاد أو الطاء أو الظاء أو الغين وإنما آثر الحروف الخفيفة الرقيقة وجعلها قافيه لشعره فى فن الغزل .

الفصل الثالث

«الطبيعة والخمر»

وصف الطبيعة :

يعد شعر الطبيعة من الأغراض القديمة التى عرفت فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى وظلت فى مختلف العصور الأدبية المتتالية، فقد وصف شعراء العصر الجاهلى طبيعة مجتمعهم ومظاهرها التى كانت موجودة فى عصرهم، فوصفوا الصحراء والنوق والخيل والأمطار والسحاب والأطلال والرياض وغيرها من مظاهر الطبيعة التى وجدت فى ثنايا العصر الجاهلى سواء كانت طبيعة حية أم صامتة. (١)

وعرف شعراء العصر الإسلامى الطبيعة ووصفوها فى أشعارهم بالرغم من أن ميدان الشعر قد تحول فى ذلك العصر إلى الدعوة ونشر الإسلام ومؤازرة الرسول والجهاد فى سبيل الله وجاء شعر الطبيعة بنوعيها : الحىّ والصامت فى أشعارهم(٢) .

وفى العصر الأموى نما فن الطبيعة وازدهر ازدهاراً ملموساً تبعاً لنمو الحياة وتقدمها حضارياً واجتماعياً ووجد شعر الطبيعة بنوعيها : الحىّ والصامت فى أشعارهم ودواوين شعراء العصر تزخر بشعر الطبيعة فى مختلف مظاهرها ، وفى العصر العباسى تقدم شعر الطبيعة وازدهر ازدهاراً لم يسبق له مثيل من قبل ووجدت موضوعات فى شعر الطبيعة لم تكن موجودة من قبل وتفنن شعراء العصر فى وصف الطبيعة وافتنوا وفتنوا بوصفها وصفاً رائعاً سواء كانت حية أم صامتة وتزخر دواوين شعراء العصر بوصف الطبيعة وصفاً رائعاً كديوان البحترى وديوان ابن الرومى وابن المعتز وغيرهم من شعراء العصر .

---

(١) ينظر على سبيل المثال : ديوان الأعشى طبعة بيرت ص١٤٥ . وديوان امرىء القيس تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم طبع دار المعارف ص١٩ .

(٢) ينظر ديوان حسان بن ثابت . تحقيق / د / سيد حنفى . دار المعارف ص٧١ . ص٥٩٩ جـ٢ طبقات فحول الشعراء لابن سلام .

وظل وصف الطبيعة فى عصر الدول والإمارات وازدهر ازدهاراً واضحاً ومن بين هذه الدول : الدولة الأيوبية حيث يمثل شعر الطبيعة مرتبة مزدهرة فى ثنايا الشعر الأيوبى .

وابن النبيه المصرى يعد من أكبر شعراء عصره الذين وصفوا الطبيعة وفتنوا وافتنوا فى وصفها افتناناً كبيراً بل إن شعر الوصف ووصف الطبيعة يحتل المرتبة الثالثة من بين الأغراض الشعرية التى عرفها ديوان ابن النبيه حيث يأتى بعد المدح والغزل من حيث الكمية واهتمام الشاعر .

وابن النبيه المصرى، وصاف ماهر ومصور بارع أتقن الوصف وأجاد فيه إجادة عظيمة وكان فناناً ملهماً أغرم بالوصف وأبدع فيه ومن أهم موضوعات وصفه: وصف الطبيعة وتصوير مفاتنها وإبراز مافيها من حسن وجمال، وقد أغرم بها الشاعر وهام بها هياماً بليغاً ونفذ إلى أغوارها وخفاياها وناجاها ومنحها الحياة والحس والحركة وأحبها حباً جماً وعطف عليها وأشركها حياته ونفسيته ومايعتلجها من مشاعر وخواطر .

وقد شدت الطبيعة ابن النبيه وأخذته ولفتت انتباهه واستحوذت على فكره وعقله وقضى حياته عاشقاً لها متنقلاً بين مظاهرها ومجالسها وكان أحب شىء إلى نفسه وقلبه أن يقضى وقتاً بين أحضان الطبيعة وجمالها وسحرها وتدور كؤوس الخمر على الندامى من أيد ساقٍ جميل الوجه .

وقد استراح الشاعر إلى الطبيعة لأنها ظل ظليل وماء غير ومهاد وثير وتحدث الراحة والمتعة وتشيع الجمال والفتنة والبهجة فى الحياة، وقد فتن بأحمرها وأخضرها وأصفرها وأبيضها وفتن بما فيها

من أزهار وورود وأشجار وأمواه جارية وعيون صافية وفورات جميلة، فضلاً عن وصف الطبيعة الحية وبعض الموضوعات الأخرى .

وشغف "ابن النبيه" بالطبيعة وحبه لها وهيامه بها يذكرنا "بالبحترى" و "ابن الرومى" و "الصنوبرى" و "تميم بن المعز لدين الله" و "ابن حيدرة العقيلى" وغيرهم من الشعراء السابقين الذين أغرموا بالطبيعة وفتنوا بها ووصفوها وصفاً رائعاً وصف فنان ماهر خبر الطبيعة وعرف أغوارها ومظاهر الجمال فيها يساعده فى ذلك حس مرهف وشعور رقيق بالجمال والفتنة والسحر .

وقد أحب "ابن النبيه" الطبيعة حب الحى للحى واشتاق إليها اشتياق الحبيب لحبيبه فهو يحيا معها ويعيش حياتها حيث يعيش مع الروض اليانع ومع الشمس المشرقة ومع الليل وشجونه ومع الطير فى هديله ومع الفرس فى جولانه يعيش مع كل ذلك وغيره عيشة فنان مغرم بالطبيعة إلى حد بعيد .

وقد عرف "ابن النبيه" الطبيعة بنوعيها : الحى والصامت ، وأعنى بالطبيعة الحية : مااشتملت عليه من أنواع الحيوان ماعدا الإنسان. وبالطبيعة الصامتة : مظاهر الطبيعة ووجودها المتمثل فى جبالها وأنهارها وبحارها وسمائها وليلها ونهارها وحقولها وأمطارها ومياهها وحدائقها وأماكنها وغير ذلك من مظاهر الطبيعة الصامتة .

ومن وصفه للطبيعة الصامتة قوله يصف الروضة ومافيها من أزهار وورود وأشجار وطيور جميلة وغدران صافية وذلك فى مقدمة قصيدة بدأها بالغزل ثم بوصف الطبيعة ثم تخلص منها إلى مدح "الأشرف" ، فقال يصف الروضة : (١)

---

(١) ص١٦٧ - ١٦٨ ديوان ابن النبيه . من بحر البسيط .

ورَوضةٍ وجَناتُ الوردِ قد خَجلت فيها ضُحىً وعيونُ النرجسِ انفتحتْ
تشاجرَ الطيرُ في أشجارِها سحراً ومالتِ القضبُ للتعنيقِ فاصطلحتْ
والقطرُ قد رشّ ثوبَ الدوْحِ حين رأى مجامرَ الزهرِ من أذيالهِ نفحتْ
باكرتُها وحَمامُ الروضِ نافرةٌ عن البروجِ بكفِّ الصبحِ إذْ وضَحَتْ
مابين غدرانِ ماءٍ كاللُّجيْنِ صفت وأكؤسٍ كنضارٍ ذائبٍ طفحتْ

هذا التصوير الحيّ للطبيعة فيه اللون والحركة والحياة والخيال والروح ومقدرة الفنان على الوصف والتصوير الدقيق الرائع وينقل إلينا صورة حية تنبض بالإحساس العميق وتزخر بالمشاعر الصادقة والتصوير الرائع والمعانى الجميلة والتشبيهات الرائعة ونجد فيها تفاعل الشاعر بالطبيعة ومشاركتها جمالها وفتنتها وسرورها .

وقد وصف الشاعر الروضة وأشاع فيها الحس والحركة : حيث جعل الورد يخجل والنرجس يفتح عيونه والطير يتشاجر والأغصان تميل لتعانق والمطر يرش ثوب الأشجار وحمام الروض نافرة، كما نراه يشبه ماء الغدران باللجين ويجعل للصبح كفاً على سبيل الاستعارة المكنية .

ومن وصفه الرائع للروض وتصوير وروده وأزهاره وأشجاره وخرير المياه فى ثناياه : قوله :(١)

الروض بين متوَّجٍ ومُشنَّفٍ والأرضُ بين مُدبَّجٍ ومفوَّفِ (٢)
والغُصنُ غنّاه الحمامُ فهزّهُ طرباً وحيّاه الغمامُ بقَرْقَفِ (٣)
والظلُّ يسبح فى الغدير كأنه صَدأٌ يلوح على حُسامٍ مُرْهَفِ
قسْ بالسماءِ الأرْضَ تعلَمْ أنها بكواكبِ الأزهارِ أحسن زُخْرُفِ

---

(١) ص١٩٧ - ١٩٨ ديوان ابن النبيه . من بحر : الكامل .
(٢) متوج : من التاج . مفوف : رقيق أبيض .
(٣) القرقف : الماء البارد .

أحْداقُ نرجسهـا بخدِّ شقيقها   مَبْهوتَـةٌ لجمالـه لـم تُطـرِف
والطَّـلُّ فى زهر الأقاح كأنـه   ظَلْمٌ ترقرق فى ثنايا مَرْشف[1]

نجد تصويراً رائعاً للروض ووصفاً بارعاً لمظاهره الطبيعية التى تكمن فى داخله ونجد الحركة والبهجة تشيع فى جنبات الأبيات وتزخر بالصور المتحركة والمتلاحقة، ونحس من خلال الأبيات أن الطبيعة تستأثر بكل مشاعر الشاعر وأحاسيسه فهو مغرم بها ويصور الجمال فيها ويعيش مع كل عنصر من عناصرها بل مع كل حركة وهمسة معيشة مغرم بحبها، فهو يرى الروضة وقد تحولت إلى جنة من الأزهار والورود وخيوط الجمال المنسوجة فوق أرضها ويرى الروضة وقد تحولت وجوهاً ناطقة فاتنة كل شىء فيها حىٌّ متحرك يحس إحساس الإنسان، فالحمام يغنى والأغصان تطرب وتهتز طرباً لغنائه، والغمامُ كذلك يعجب ويحيى الحمام بالماء البارد والظل بسبح وعيون النرجس بخد شقائق النعمان معجبة ومأخوذة بجماله

فالأبيات تفيض روعة وتنطق ببراعة الشاعر وفنيته وقدرته الفائقة فى وصف الطبيعة والغوص وراء جمالها وسحرها كما تفيض سحراً وروعة فى تصويرها ورقة وعذوبة فى ألفاظها وأسلوبها ومعانيها وصورها. وتذكرنا هذه الأبيات بوصف البحترى للروض وافتتانه فى وصفه كما تذكرنا بشعراء الطبيعة فى العصر الفاطمى مثل : تميم بن المعز وابن حيدرة العقيلى وغيرهما من شعراء العصر.

كذلك وصف الشاعر "الربيع" وبرع فى وصفه ورسم صورة رائعة له، فيها الحس والحركة والجمال والسحر، فيقول يصف الربيع[2]

---

(١) الظلم . الريق

(٢) ص٢١٦ - ٢١٧ ديوان ابن النبيه من بحر : الكامل

طاب الربيع كأنّما عَجَنَ الصبّا   كافـور مُزْنته بعَنْبـر طينـه
وتفضضـتْ أزهـارُه وتذهبـتْ   فكأنها الطـاووسُ فى تلوينـه
وجَلَتْ جبين النهر طُـرة ظلّـه   مُذْ جَعّدَتْها الريحُ فوق غصونه
والطيرُ تُنْشـدُ باختلاف لغاتها   موسـى أدام اللـه فى تمكينـه

نجد الأبيات لوحة فنية فى رسم صورة حية لفصل الربيع ومايحدثه من جمال وسحر على ظهر الأرض وقد برع الشاعر فى رسمها ببراعة وروعة حيث جعلها صورة متحركة فيها الحس والحركة ونرى الروح تدب فى كل جزء من أجزائها ونرى معانى الأبيات أرواحاً تتحرك وتتنفس كما يتحرك ويتنفس كل كائن حيّ، والشاعر لايقف فى رسمه للوحة بتلوينها بألوانها الطبيعية التى نقلها من الطبيعة بل إنه مزج مع ذلك أيضاً ظلالاً أخرى تضيف للوحة جمالاً فوق جمال وحياة على حياة وقد استمدها من مخيلته وفكره. وللشاعر نماذج أخرى وصف فيها الروض والربيع وصفاً رائعاً .[1]

ووصف الليل والبحر ارتجالاً بقوله :[2]

ولما رأيتُ الليـل أسود فاحمـاً   وللبحـر وجه أبيـض راق مرآهُ
تذكرتُ من موسى خصالاً كريمة   سـواد سَطَاهُ أو بياضَ عطاياه

ووصف الغيم والهلال والشهب ارتجالاً بقوله : [3]

للرمـى فضلٌ ليـس يُنْكَرُ قَدْرُه   والجـوُّ قـد شهـدتْ به آثـارهُ
الشُهْـبُ بُنْدُقُـهُ ونـونُ هلالـه   قـوسٌ ومسْكيُّ الغمـام غباره

---

(١) ينظر ديوانه ص٢٢٧ ، ص٢٧٨ ، ص٤٨٤ ، ص٤٩٧ .
(٢) ص٢٩٦ ديوان الشاعر .
(٣) ص٢٩٧ ديوان الشاعر .

ووصف خيمة مستجدة ارتجالاً بقوله :(١)

يامن حكى الجنّة في خيمةٍ   بوابُها المحسنُ رضوانُ
الإنسُ والوحشُ قيامٌ بها   والطيرُ أجناسٌ وألوان

ووصف جرة ذهب اندفقتْ في مجلس ارتجالاً بقوله :(٢)

بمُلكِكَ أيامُ الزمان تطيبُ   وجودُك للراجي نَداك قريبُ
لئنْ هَرَقتْ آلات خمرك ماحوتْ   فللأرض في زاد الكرام نصيبُ

ووصف قلماً انكسر من يده وهو يكتب بين يدي الملك "الأشرف" بقوله في دوبيت(٣) :

قال الملك الأشرفُ قولاً رَشَداً   أقلامك ياكمالُ قلّتْ عددا
ناديتُ لأجلِ كَتْبِ ماتُطلقُهُ   تَحفى وتُقَطُّ فهي تفنى أبدا

ووصف الليل وأشركه أحاسيسه بقوله :(٤)

قلتُ لليل إذْ حباني حبيباً   وغناءً يَسْبي النُّهَى وعُقارا
أنت ياليلُ حاجبي فامنع الصُبْـ   ـحَ وكنْ أنْتَ يادُجى بَرْدَ دارا

ووصف الكواكب والصبح والروض والغمام والمطر والربيع بقوله:(٥)

وبنو نعْشَ شاخصاتٌ إلى القُطْـ   ـب حيارى والنَّسْر يقْفُوا الإثْرا
والمصابيحُ أطفأتها يدُ الصبْـ   ـح فشابتْ مفارق الروض ذعرا
وسقيطُ الغمام يَرْشحُ دُراً   فوق أوراقه فيصبحُ دُرًا

---

(١) ص٣٠٠ ديوان ابن النبيه المصري . من بحر : السريع .
(٢) ص٣٠١ ديوان ابن النبيه المصري . من بحر : الطويل .
(٣) ص٣٠٢ ديوانه . وزن الدوبيت : فعْلن متفاعلن فعولن فعلن . وهو رباعي معرج وفيه يختلف روي الشطر الثالث وانكسر الشطر الأول من البيت .
(٤) ص٣٩١ ديوان ابن النبيه . من بحر : الخفيف .
(٥) ص٤٦٧ - ٤٦٨ ديوان الشعر . من بحر : الخفيف .

جادهـا وابلُ السمـاء رشاشـاً   فهي تبكي طوراً وطوراً تضحك
نقشتهـا أيـدي الربيـع فلا تُزْ   هـرُ إلاّ بيضـاً وحمـراً وصُفْـرا
يتلامعْن في الدُّجى كالدنانيـ   ـر ويعطيـن في الدُّجُنـّة عطـرا

نرى تشخيصاً حياً للطبيعة ووصفاً رائعاً للروض وبعض مظاهر الطبيعة الأخرى وتصويراً ينقل إلينا إحساس الشاعر الصادق بتصوير طريف ومعانٍ جميلة وخيالات رائقة، كما يظهر من الأبيات تأثر الشاعر بوصف السابقين للطبيعة وخاصة البحترى وشعراء الطبيعة المصرية في العصر الفاطمى .

ووصف الفوارة وصفاً رائعاً بقوله :(١)

واقفـةٌ بـلا تَعَـبْ   تشكو من الصَّبِّ لهبْ
كأنهـا فـي حسنهـا   وقـد أتيـن بالعجـبْ
فـوارةٌ مـن فضـةٍ   تمجُّ مـاءً مـن ذهـبْ

ووصف داراً مستجدة بقلعة أخلاط بقوله :(٢)

وداراً على خيرْ الطّوالع أُسِّسـتْ   فمن حلَّ فيها في أمان من الدهر
يُجلّي صدا الأبصار لَمْعُ بياضها   فتحسَبها قد أُلبِسـت بَهجة الدُّرّ
وقد أنبتتْ أركانها من نقوشهـا   تماثيـلَ روْضٍ لـم يزلْ يانع الزَّهْـر
تكاد تمسُّ المِسْك من نسماتهـا   ويقطـرُ مـن أرجائهـا وَرَقُ التبْـر
تَسُرُّ وتُلْهـي ساكنيهـا بُحسْنهـا   فإنْ شئْتَ أغنتْ عن غناء وعن خمر
إذا فُتحـتْ أبـواب مُشْترياتهـا   جلتْ لك نونَ البحر والوحْشَ في البرّ
فـإنْ شئْت للأخرى فمحرابُ ناسك   وإنْ شئْـتَ للدنيا فَرَيْحَانَـةُ العُمْـر

---

(١) ص٤٩٢ ديوان ابن النبيه . من مجزوء الرجز .

(٢) ص٢٢٩ - ٢٣١ ديوان الشاعر . من بحر الطويل .

فقد وصف "ابن النبيه" الدار" وصفاً رائعاً ينم عن شاعرية فنان ماهر خبر الوصف وبرع فيه براعة معدومة النظير وقد استطاع الشاعر بقدرته الفائقة على الوصف أن ينقل إلينا إعجابه وفتنته بهذه الدار وأن يجعلنا نعجب بها ونفتن مثله تماماً وذلك بسبب وصفه الدقيق الذى نقلته ريشة فنه وخياله البعيد الغور الذى نفذ إلى أعماق نفوسنا .

وصف "ابن النبيه" الدار وأظهر جمالها وصور مفاتنها سواء كان ذلك فى شكلها الخارجي أو مضمونها الداخلى أو أثرها على ساكنيها فقد أسست الدار مرتفعة البناء كأنها أسست على نجم أو كوكب فى السماء وأن من سكنها فقد أمن أحداث الدهر وأنها ناصعة فى شكلها تتلألأ كالدر وقد أحيطت بيانع الأزهار والورود وتفوح مسكاً عظيماً حتى يكاد يمسه الإنسان ويلمسه وأنها بنيت من الذهب الخالص حتى ليخيل للإنسان أنها تقطر الذهب من أرجائها وأنها تعجب وتفتن ساكنيها سواء كان ساكنوها من أهل اللهو حيث يجدون كل مايتمنونه أو من أهل الدين والآخرة حيث يجدون فيها كل مايعينهم ويمتعهم بالعمل للآخرة، فكأن الدار جمعت الدنيا والآخرة معاً فى بنائها .

وهكذا برع "ابن النبيه" فى وصفه وظهرت بعض المعانى المبتكرة الجديدة التى لم تخطر على بال الشعراء السابقين فى أبياته ويتضح ذلك فى البيت : الثالث والرابع والخامس .

وقد استطاع الشاعر أن يختار لأبياته أسلوباً عذباً رقيقاً يلائم موضوعه الشعرى الذى ضمنه أبياته وتفيض الألفاظ والعبارات والخيالات والصور والمعانى عذوبة ورقة ودقة فى الوصف وروعة فى التصوير معتمداً على الإكثار من الألفاظ المعبرة الموحية والخيال

الرائع وبعض ألوان البديع - من جناس وطباق - التى تزيد جمال الأبيات جمالاً فوق جمال .

وهكذا وصف "ابن النبيه" الطبيعة الصامتة ونفذ إلى أغوارها وخفاياها ورسم صورة حية متحركة دقيقة للموضوعات والعناصر الطبيعية التى تعرض لها فى وصفه معبراً عن مشاعره الذاتية وأحاسيسه الشخصية تجاه الطبيعة ومظاهرها بل إنه تفاعل معها وشاركها جمالها وفتنتها .

كذلك وصف الشاعر بعض عناصر الطبيعة الحية من حيوانات وطيور وذلك كوصفه للفرس ارتجالاً حيث يقول فيه: (١)

تهنَّ بأشْهب مثـل الشهاب ... يَسُرُّك إنْ قُلْتَ فى الجْرى هيَّـا
تَخُطُّ معارفُـه فـى الثـرى ... ويرْفَـعُ راكبَـهُ فـى الثريَّـا

فقد وصف شكل الفرس وقوته وسرعته وصور إعجابه به وأثر جمال الفرس وقوته وسرعته على نفس صاحبه معتمداً على التشبيه والبديع فى تصوير صوره وإبراز معانيه .

وقال يصف المطية : (٢)

إنَّ خَوْضَ الظَّلْماء أطيبُ عنْدى ... مـن مطايَا باتـتْ بكُلِّ كَلالَـةْ
فهـى مثـلُ القسىِّ شكلاً ولكن ... هى فى السبـق أسهم لامحالةْ
تركتْها الحُداةُ فى الخفض والرَّفْـ ... ـع حروفـاً فى جرِّهـا عمَّالَـةْ

حيث صور شكلها وسرعتها معتمداً على التشبيه وبعض ألوان البديع كالطباق ومراعاة النظير فى تصوير صوره وإبراز معانيه.

---

(١) ص٢٩٩ ديوان الشاعر . من بحر المتقارب .
(٢) ص٤٧٥ ديوان ابن النبيه . الخفيف .

كذلك وصف "الباز" "وكلب الصيد" فى قوله : (١)

بزاةٌ لها حدق الأقحوان وأظفارها كحمات العقارب

فللأفق نسران ذا واقعٌ وذا طائر حذر الموت هارب

وأطلقَ كلباً له ضارياً يُباري هبوب الصَّبا والجنائب (٢)

تطيرُ به أربعٌ كالرياح ويفترُّ عن مُرْهفات قواضب

وتُضرِمُ فى ليل جلبابه شُعاعُ شهابٍ من العين ثاقبْ

فقد صور الباز وكلب الصيد ووصف شكلهما وسرعتهما معتمداً على التشبيه فى تصوير صوره وإبراز معانيه وكلها تشبيهات تقليدية عرفها الشعراء السابقون وزخرت بها أشعارهم إلا أنه صاغها فى ثياب جديدة .

وهكذا عرف "ابن النبيه" الطبيعة بنوعيها : الصامت والحيّ فى شعره وصورها وبرع فى تصويرها ووصف عناصرها المتعددة وصفاً رائعاً .

وقد تميزت أشعار الطبيعة عند ابن النبيه بخصائص فنية واضحة منها ماهو قديم موروث ومنها الجديد الذى ابتكره وجاء به خياله أهمها :

أولاً : جاءت أشعار الطبيعة عنده فى أشكال مختلفة وبناء متعدد فغالباً ماكانت الطبيعة تأتى ضمن قصيدة متعددة الأغراض والموضوعات خاصة مع الخمر والغزل والمدح، وأحياناً أخرى أتت الطبيعة مستقلة فى شعره لايشركها غرض آخر سوى وصف الطبيعة إلا أن ذلك كان غالباً فى شكل مقطوعات شعرية قصيرة ربما تصل إلى ثلاثة أبيات أو بيتين اثنين .

---

(١) ص١٩١ - ١٩٢ ديوان الشاعر . المتقارب .

(٢) الجنائب : جمع : الجنيبة وهى الدابة تقاد .

وجاءت أشعار الطبيعة فى معظمها فى قصائد أو مقطوعات شعرية ملتزماً الشاعر فيها بحور الشعر العربى المعروفة التى عرفها الخليل بن أحمد الفراهيدى وأحياناً أخرى قليلة نظم الطبيعة على شكل الموشحة والدوبيت والزجل .

ثانياً : تعددت وتنوعت موضوعات الطبيعة عند ابن النبيه المصرى حيث وصف : الرياض والربيع والأزهار والورود والفوارة والدار والسحب والأمطار والليل والشمس والقمر والماء كما وصف الفرس والمطية والباز وكلب الصيد وغير ذلك من موضوعات الطبيعة سواء كانت صامتة أم حية .

ثالثاً : تتميز أشعار الطبيعة عند الشاعر بأسلوب متماسك البناء يتلاءم مع الموضوع الشعرى الذى ضمنه الشاعر أبياته مؤثراً الرقة والافتنان فى اختيار الألفاظ المعبرة والموحية محافظاً على سلامة اللغة متنحياً الغرابة والوعورة والألفاظ المعجمية إلا نادراً معتمداً اعتماداً كبيراً على التشبيه والاستعارة والبديع فى إبراز معانيه وتصوير صوره .

وصف الخمر :

يعد وصف الخمر من الأغراض المهمة التى اهتم بها ابن النبيه فى ديوانه حيث تحتل مرتبة متقدمة فى شعره من حيث الكم .

وقد أسهم "ابن النبيه" بسهم وافر فى وصف الخمر ومجالسها وساقيها والدعوة إلى شربها وله فى ذلك جولات لعب فيها خياله وعقله فظهرت فى أشعاره بعض المعانى المبتكرة التى جاء بها الشاعر من خياله ولم تخطر على بال السابقين من الشعراء .

وصف "ابن النبيه" الخمر وصور ماتحدثه من آثار وراح يعدد مميزاتها وفضائلها بل إنه مدحها وأشاد بها إشادة عظيمة وراح يدعو إلى شربها ووصفها والاستعاضة بها عن المقدمة الطللية التى تعود عليها الشعراء فى استهلال قصائدهم بها، فيقول :[١]

دَعْ النوح خلف حدوج الركائب وسـلْ فـؤادك عن كـلّ ذاهـبْ
ببيـض السوالـف حمر المراشـ ـف صفر الترائب سود الذوائبْ
فما العيـش إلا إذا مانظمـتَ بثغـر الحَـباب ثنايـا الحبائـبْ

وقد وصف "ابن النبيه" الخمر باعتباره من أهلها وجلاس منتدياتها بل ومن عشاقها الذين أغرموا بها إغراماً شديداً وباعتباره من هؤلاء الندامى الذين أغرقوا أنفسهم فيها إغراقاً وقضوا حياتهم بين مراتع اللهو وكؤوس الخمر وجمال الطبيعة وسحر السقاة الذين كانوا يقدمون الخمر من غلمان الأتراك وغلمان الفرنج الحسان الوجوه.

ويعد "ابن النبيه" من كبار شعراء الوصف والخمر فى العصر الأيوبى ويمتاز عن كثير من الشعراء بروعة الوصف ودقته وتفصيله ويدل وصفه للخمر على أنه ملك ناصية الفن بكل عناصره وأركانه .

وإذا كان "ابن النبيه" قد أغرم بالخمر ووصفها وذهب فى ذلك حداً بعيداً فإن ذلك ليس بغريب على شاعر قضى حياته مغرماً بالخمر متعاطياً لها طوال حياته لايرده دين ولايردعه ضمير فوصفه للخمر تعبير حقيقى لحياته التى قضاها فى اللهو والمجون وصورة حقيقية لما كانت عليه نفس الشاعر وأخلاقه وطباعه وتصوير حى للواقع الذى عاش فيه الشاعر وانغمس فى ثناياه .

(١) ص١٨٧ ديوان ابن النبيه . المتقارب .

ومن وصف الشاعر للخمر قوله بعد أن تحدث عن الطبيعة وجمالها فى مقدمة قصيدة مدح بها الخليفة "الناصر" العباسى فقال يصفها ويدعو إلى شربها :(١)

فانهض إلى ذَوْبِ ياقوتٍ لها حببٌ ... تنوب عن ثغر من تهوى جواهِرُهُ
حمراءُ فى وَجْنَةِ السَّاقى لها شَبَهٌ ... فهل جناها مع العنقود عاصِرُهُ؟

يصف الشاعر الخمر بعد أن دعا إلى شربها وشبهها بذوب الياقوت ثم شبه وجنة ساقيها بها فى اللون ويمزج بينهما كأنهما من منبع واحد وعُصرا معاً - عصراً واحداً . وهذا معنى غريب بديع استطاع خيال "ابن النبيه" أن يجول فيه ويبرز معنىً جديدا من المعانى المبتكرة فى شعر الخمر .

وقال يصف الخمر أيضاً ويدعو إلى شربها فى مقدمة قصيدة مدح بها الملك "الأشرف" الأيوبى :(٢)

طاب الصَّبوحُ لنا فهاك وهات ... واشْرَبْ هنيئاً ياأخا اللذّات
كم ذا التوانى والشبابُ مطاوعٌ ... والدهْرُ سَمْحٌ والحبيبُ مُواتى
قُمْ فاصطبحْ من شمس كأسك واغتبقْ ... بكواكبٍ طلعتْ من الكاسات
صفراءُ صافيةٌ توقّدَ بَرْدُها ... فعجبتُ للنيران فى الجنّات
ينْسَلُّ من قار الظروف حبابها ... والدرّ مُجْتلبٌ من الظلمات
وتُريك خَيْطَ الصُّبح مفْتولاً إذا ... مَرَقَتْ من الراوُوق فى الطاسات
عذْراءُ واقعها المزاجُ أما ترى ... منْديلَ عُذْرتها بكفِّ سقاة؟

أخذ "ابن النبيه" فى أبياته يدعو إلى شرب الخمر ويمدحها ويمجدها فى وصف بارع وتصوير رائع وتناولها واصفاً لها فى دنها وفى كأسها وفى يد ساقيها وبعد أن مزجت بالماء، وقد شبهها

---

(١) ص٩٢ ديوان ابن النبيه . من بحر : البسيط .
(٢) ص١٢٣ ومابعدها ديوان الشاعر . من بحر الكامل .

بالشمس وحبابها بالكواكب والدر، حيث لعب خياله فى وصفها واستطاع أن يأتى فى وصفه بمعان رائعة غريبة ويتضح ذلك فى أبياته: الرابع والخامس والسادس والسابع، وتذكرنا هذه الأبيات بأشعار أبى نواس فى وصفه الخمر والدعوة إليها والبراعة فى وصفها .

ويقول يمزج الخمر برضاب ساقيها :(١)

راق الزمانُ وراق كأسُ مُدامنا ... ورُضاب ساقينا الأغنّ الأهيف
فمزجتُ ذاك بهذه وشربتها ... ولثمته وضممته بتعطف

جيث يمزج الشاعر الخمر بريق المحبوب ويشربهما معاً بعد أن امتزجا وهذا معنى غريب مستظرف .

ويقول ابن النبيه يصف الخمر ويطلب من غلامه أن يأتيه بها لتناولها فى آخر الليل وتباكير الصباح :(٢)

قُمْ ياغلامُ ودعْ مقالةَ من نصح ... فالديكُ قد صدع الدُّجى لمّا صدَحْ
خفيفتْ تباشيرُ الصباح فسقِّنى ... ماضلٌ فى الظلماء من قدح القدحْ
صهْباءُ مالمعتْ بكفٍّ مديرها ... لمُقَطّبٍ إلاّ تهلّلَ وانشرح
واللهِ مامزجَ المُدامَ بمائها ... لكنّهُ مزج المسرَّةَ بالفرحْ
وضَحَتْ فلولا أنّها تُروى الظّما ... قُلْنَا سرابٌ أو شرابٌ قدْ طفحْ
هى صفوة الكرْم الكريم فما سرتْ ... سرّاؤها فى باخلٍ إلاّ سمحْ

يطلب الشاعر فى أبياته من غلامه أن يأتيه بالخمر ليشربها فى تباشير الصباح ثم راح يمدحها ويصف لونها وصفاءها ويصورها فى يد الساقى وراح أيضاً يمجدها ويمجد أصلها فهى صفوة الكرم الكريم، وراح يصور أثرها وماتحدثه فى النفوس من سحر وفتنة .

(١) ص١٩٨ - ١٩٩ ديوان ابن النبيه . من بحر الكامل .
(٢) ص٢٠٨ ومابعدها . ديوان الشاعر . من بحر : الكامل .

فالشاعر مغرم بالخمر عاشق لها يجول فيها بخياله ويصورها فى حالاتها المتعددة ويعتمد على التشبيه وألوان البديع لتصوير صوره وإبراز معانيه وهى فى مجملها رائعة ويشيع الحس والحركة فى الأبيات وتبتعد عن التكلف أو التصنع فزادت الأبيات جمالاً فوق جمال وسحراً على سحر .

ويصف الخمر بعد أن تغزل بساقيها فيقول : (١)

أشار نحوى وجُنْحُ الليل مُعْتكرٌ   بمعصَمٍ بشعاعِ الكأس مُخْتَضب
بكْرٌ جلاهـا أبوهـا قبـل ماجُليـتْ   فى حُجْرة الدَّنِّ أو فى قشْرة العنَـب
حمراءُ تفعـلُ بالأحزان مافعلـتْ   أسْيافُ شاهِ أرْمَنٍ فى عسْكرٍ لجب

حيث يصف الشاعر الخمر ويمزج بينها والتغزل فى ساقيها ثم وصفها بأنها بكر صافية حمراء ثم راح يصور أثرها وماتحدثه فى النفس من أثر قوى لإزالة الهموم والأحزان وقتلها كأنها سيوف الملك "الأشرف" القوية التى أبادت جيوش الأعداء الكثيفة، وهذا معنىً جميل نفذ منه الشاعر إلى مدح الملك فى حسن تخلص .

ويدعو "ابن النبيه" لشرب الخمر فى رحاب الطبيعة وأحضانها ويطلب اللذة على جمالها شأن شعراء العصر الفاطمى مثل : "تميم بن المعز" وابن حيدرة العقيلى" فيقول(٢) بعد أن وصف الطبيعة وأظهر مفاتنها وجمالها :

إشـربْ ثلاثاً يانديـمُ وسقِّنـى   واطـربْ لعُجْمَة نُطْقه وبيانـى
كأساً إذا صافحتُها أثْرتْ يدى   مـن فضَّةٍ ملئـتْ مـن العقيـان
حمراءُ رصَّعها الحبَابُ بجوهـرٍ   كالزهـر فى مـرْجٍ من المَرْجَان
والله لو عقَلَ المجـوسُ لكأسها   جَعلُـوه بيْتَ عبـادة النيـران

---

(١) ص٢٣٧ ديوان ابن النبيه . من بحر : البسيط .
(٢) ص٢٧٩ ديوان ابن النبيه . من بحر : الكامل .

يدعو "ابن النبيه" إلى تناول الخمر فى رحاب الطبيعة ويحض على اللذة واللهو فى أحضانها وراح يصف الخمر فى كأسها وصفاً رائعاً بارعاً : فالكأس صافية صفاء الفضة. وفى لونها : فالخمر صفراء صافية كأنها الذهب السائل. وقد ملئت به كأسها المصنوعة من الفضة، ثم راح يصور فقاقيع الخمر التى تطفو فوق الكأس بالجواهر وكأنها أزهار فى مرج من المرجان .

فالأبيات رائعة فى وصفها بارعة فى معانيها وقد احتذى الشاعر فيها نهج الشعراء المصريين فى العصر الفاطمى الذين أغرموا بوصف الخمر والدعوة إليها فى رحاب الطبيعة المصرية الفاتنة، والحض على طلب اللذة فى ربوعها وقد اعتمد الشاعر على التشبيه وألوان البديع - من طباق وجناس - لإبراز صوره ومعانيه فزادت معانيه جمالاً فوق جمال .

ويصف الشاعر الخمر ويدعو إلى شربها ووصفها والاستعاضة بوصفها عن سؤال الديار فيقول : (١)

حسبُك لايغنتى سؤال الديـار	فصَّـرف الهـمَّ بصـْرف العُقـار
واستنطقْ العيدان إنْ كنت ذا	لُبٌ فمـا تنطـق صـمُ الحجـار
البـمُ والزيـرُ وكـأسُ الطّلـى	أولـى بمثلـى من سؤال الديار
شعشعهـا الساقى فقُلْنـا لـه	هـل جَمَدَ المـاءُ وذاب النضـار
مهفهـفٌ يجمـع بيـن الرِّضـى	والسخـط فاستئناسـه فى نفـار

حيث ينهج الشاعر فى أبياته نهج "أبى نواس" من الدعوة إلى الخمر وشربها والاستعاضة بها عن بكاء الديار والوقوف على الأطـلال، فوقـوف الأطـلال لم يعد يغنى ووصف الخمر أولى مـن

(١) ص٣٧٦ - ٣٧٧ ديوان ابن النبيه . بحر : السريع .

الحديث إلى الحجارة الصَماء، فالشاعر متأثر بأبى نواس فى أبياته إلى حد بعيد . ثم صور الخمر بعد مزجها بالماء فى كأسها وشبهها بالذهب السائل. والكأس بالماء الجامد، وهذان التشبيهان من التشبيهات القديمة التى طالما تغنى بها الشعراء السابقون، ثم راح يصف ساقيها ويتغزل به فى بقية أبياته التى مهد بها لقصيدته فى مدح الملك "المظفر" .

ويصور "ابن النبيه" حبه للخمر وشدة تعلقه بها ويرى أنها روحه فلا يستطيع أن يهجرها وأنها ذات أثر فعال على الروح والنفس فهى تغنى الفقير إذا شربها بياقوتها وجوهرها، فيقول ارتجالاً فى ذلك :(١)

الراحُ رُوحى فكيف أهجرها ... منظرها طيبٌ ومَخْبَرُها
راحٌ إذا ماالفقيرُ صافحها ... أغناهُ ياقوتُها وجوهرها

وهكذا وصف "ابن النبيه" الخمر وصال وجال بها بخياله ووصفها فى شكلها ودنها وكأسها وفى يد ساقيها ووصف ساقيها ووصف أثرها وماتحدثه من أثر فى النفس ولعب فيها خياله فظهرت فى أشعاره بعض المعانى المبتكرة .

ويلاحظ أن "ابن النبيه" قد تأثر فى شعره الخمرىّ بشعر الشعراء السابقين خاصة "أبى نواس" وشعراء الخمر والطبيعة فى العصر الفاطمى فى النهج والأسلوب وكثير من المعانى والصور والخيالات .

وابن النبيه المصرى لم يصف الخمر وصفاً مستقلاً فى قصائد بعينها بل جاءت أشعار الخمر فى قصائد متعددة الأغراض

(١) ص٤٣٠ ديوان ابن النبيه . من المنسرح .

والموضوعات وكثر شعر الخمر عنده فى رحاب الطبيعة والغزل فى المذكر وأحياناً جعلها مقدمة تمهيدية لقصائده فى شعر المدح .

وقد اعتمد الشاعر على ألوان البيان - خاصة التشبيه - وألوان البديع - خاصة - الطباق والجناس ومراعاة النظير - فى تصوير صوره وإبراز معانيه ولكنها فى مجملها كانت رائعة وابتعدت عن التكلف والتصنع فزادت أشعاره جمالاً فوق جمال .

ولقد برع "ابن النبيه" فى وصفه للخمر ووقف فى الصف الأول من شعراء العصر الأيوبى الذين وصفوها ولاغرابة فى ذلك لأنه عبر عن مشاعره الحقيقية وعاطفته الصادقة وواقع حياته التى قضاها فى الحانات وأماكن اللهو والمجون يتعاطى الخمر ويمعن فى المجون .

ولقد اعترف ببراعته فى شعر الخمر كثير من الباحثين قديماً وحديثاً، فلقد اعترف بذلك صاحب "فوات الوفيات" حيث اختار نماذج كثيرة فى مؤلفه للشاعر وقد وصف فيها الخمر(١) وأشاد به الدكتور "محمد زغلول سلام" فى وصفه للخمر فقال .. ومن هذه الموضوعات وصف الخمر ومجالس الشراب وبرع فيها جماعة مثل "ابن النبيه"(٢) .

وإذا كان "ابن النبيه المصرى" قد برع فى وصف الخمر وافتن فيها افتناناً فإنه لايبلغ مبلغ "أبى نواس" فى وصفه للخمر، فأبو نواس أمير الشعراء فى وصف الخمر وإمامهم دون منازع أو مشارك وإن كان ذلك لايحط من شأن "ابن النبيه" فإنه قد برع فى وصف الخمر براعة فائقة .

---

(١) ينظر فوات الوفيات جـ٣ ص٧٣ .
(٢) ص٢٣٩ ،الأدب فى العصر الأيوبى . طبع عام ١٩٨٠ م . دار المعارف بمصر .



الفصل الرابع

«أغراض شعرية أخرى»

كانت الأغراض الشعرية المتقدمة هى أكثر الأغراض وأهمها فى ديوان "ابن النبيه المصرى" كماً وكيفاً حيث برع فيها الشاعر وأكثر من أشعاره فيها، ومع ذلك وجدت بعض الأغراض الشعرية الأخرى فى ديوانه إلا أنها لم تحظ بعناية فائقة ولم يكثر ابن النبيه منها فى ديوانه كالأغراض السابقة .

ومن هذه الأغراض: الرثاء ، حيث عرفه شعر ابن النبيه وضمه بين دفتى ديوانه إلا أنه لم يكثر منه وربما يرجع السبب فى ذلك إلى نفس الشاعر التى طبعت على اللهو والسرور والفرح والتمتع بمباهج الحياة الدنيا وزينتها والبعد عن كل ماينغص عليه حياته، فلم ينظم فى شعر الرثاء إلا قصيدتين اثنتين ومع ذلك فقد كان الشاعر مجوداً فيهما معبراً عن مشاعره وواقعه النفسى وتدلان على مقدرته الفائقة فى فن الرثاء. وأولى القصيدتين : قصيدته التى يرثى فيها الأمير "علياً" ولد الخليفة "الناصر لدين الله العباسى"[(١)] ويقول فيها:[(٢)] .

النــاسُ للموت كخيــل الطِّراد ... فالسَّابــقُ السابــقُ منها الجوادْ
واللّــهُ لايدعـــو إلـــى داره ... إلاَّ من استْطلح من ذى العبـاد
والمـوتُ نقَّــادٌ علــى كفِّــه ... جواهــرٌ يَخْتــارُ منهـا الجيـاد
والمــرْءُ كالظِّــلِّ ولابـــدَّ أن ... يَــزُولَ ذاك الظِّـلُّ بعد امْتـداد
لاتَصْلُــحُ الأرواحُ إلاَّ إذا ... سَرىَ إلى الأجْساد هذا الفســاد

حيث ابتدأ الشاعر قصيدته البديعة الرائعة بالحديث عن الموت وحقيقته موضحاً أن الموت هو المصير المحتوم لكل إنسان وأنه القوىٌ القاهر الذى لايقف أمامه أحد، وأن الناس يموتون واحداً واحداً ولكل

---

(١) ولى الأمير على ولاية العهد عام ٦٠١ هـ بعد عزل الظاهر الذى خطب له سبع عشرة سنة ولم يلبث أن توفى الأمير على عام ٦١٢ هـ فعاد الأمر إلى الظاهر وبويع له بالخلافة بعد أبيه الخليفة الناصر لدين الله . ينظر البداية والنهاية جـ١٣ ص٤٠ .

(٢) ص١٠٤ - ١٠٩ ديوان ابن النبيه المصرى . من بحر السريع .

واحد من بنى الإنسان ميعاده وأن الله تعالى يعجل بموت الأخيار الصالحين من عباده، وأن الإنسان نهايته الموت مهما طال عمره وامتد أجله شأنه فى ذلك شأن الظِّلّ حيث ينتهى ويزول بعد أن طال امتداده، وأن الحياة لاتصلح ولاتستريح الأرواح إلا بهذا الموت مع أنه يخرب الأعمار ويفنى الأجساد، فالشاعر بدأ أبياته بالحديث عن الموت وهو حديث حكيم محكم النسج يلائم غرض الرثاء ملاءمة شديدة .

ثم أخذ الشاعر يرثى الأمير بقوله :

أرْغمْتَ ياموت أنوفَ القنا ... ودُسْتَ أعْناق السيوف الحدادْ
كيف تخرَّمْتَ عليّاً ... أنجده كلُّ طويل النجاد
نَجْلَ أمير المؤمنين الذى ... من خَوْفه يُرْعَدُ قَلْبُ الجماد
مصيبة أذكتْ قلوب الورى ... كأنّما فى كل قلب زنادْ
نازلةٌ جلّتْ فمن أجْلها ... سنَّ بنو العباس لُبْس السَّوادْ
مأتَمهُ فى الأرض لكنْ له ... عُرْسٌ على السّبْع الطِّباق الشدادْ
فالخَودُ فى المسْح لها رنَّةٌ ... والحُورُ تُجلى فى المرُوط الجساد
طرقْتَ ياموت كريماً فلم ... يقنعْ بغير النفْس للضَّيْف زادْ
قَصَفْتَهُ من سدرة المُنتهى ... غُصْناً فَشُلَّتْ يَدُ أهْل الفساد
ياثالث السبطين خلَّفْتنى ... أهيمُ منْ هَمِّى فى كُلِّ وادْ
يانائماً فى غمرات الرَّدَى ... كَحَلْتَ أجفانى بميل السُّهاد
وياضجيع التُّب أقْلقتنى ... كأنما فَرْشى شَوكُ القتادْ
دُفنْتَ فى الترب ولو أنصفوا ... ماكُنْتَ إلاَّ فى ضمير الفؤاد
لو لم تكُنْ أسْخَنْتَ عينى سَقَتْ ... مَثْواكَ عيْنَاىَ كَصَوْب العهادْ

نجد "ابن النبيه" فى أبياته يتوجه إلى الموت ويخاطبه ويعلن تعجّبه من أن الموت استطاع أن يتخرم المرثى مع أنه محاط بكل مظاهر القوة والحصانة فهو نجل أمير المؤمنين الذى-أرهب الدنيا

وخافه أهلها حتى الجماد نفسه قد خاف بطشه وقوته، ثم راح يصف المصيبة التى حلت بالأمير وصفاً ممتزجاً بالحزن والأسى معبراً عن مشاعره الذاتية تجاه ماحدث : فبموت الأمير عمت المصيبة قلوب الورى جميعاً وأنها فاجعة شديدة أصابت العباسيين جميعاً لدرجة أنهم اتخذوا السواد شعاراً لدولتهم حزناً على المفقود - وهذه مبالغة واضحة حيث كان السواد شعار العباسيين قبل موت المرثى بزمن طويل ومنذ أول خلافتهم .

ثم راح الشاعر يقول : إنه وإن أصاب الأرض حزن شديد بموت الأمير فإن السماء قد فرحت بقدومه عليها وأقامت له عرساً ابتهاجاً به وقد شاركت فى ذلك الخود والحور العين، وهذه الأفكار استمدها الشاعر من معتقدات أهل عصره - ثم قال بعد ذلك :

إن الموت قد طرق كريماً بلغ المدى فى جوده وأنه قصفه فى سدرة المنتهى وهو لم يزل فى شبابه فشلت يده .

ثم راح الشاعر يعبر عن مشاعره وأحاسيسه الشخصية تجاه المرثى : فهو فى هم دائم وحزن لازم لايفارقه فى كل مكان ولايفارقه السهاد والسهر حزناً عليه ولايستريح فى نوم ولايشعر براحة فى أى فراش ينام فيه وأنه وإن دفن بجسده فى التراب فهو حى فى ضمير الفؤاد ولو أنصف الذين دفنوه فى التراب لدفنوه فى القلوب .

وبعد ذلك راح الشاعر يعزى أباه أمير المؤمنين فى ولده الفقيد بقوله :

خليفةَ اللـه اصْطبر واحْتسـبْ　　　فمـا وهى البيتُ وأنت العمادْ
فى العلـم والحلْم بكُمْ يُقتـدى　　　إذا دجـا الخطْبُ وضلَّ الرشادْ
أنـت سمـاءٌ طلعَـتْ زُهْرُهـا　　　لايَنْقـصُ الآفِـلُ منهـا عِـدادْ

وأنــت لــجٌّ البحـر ماضـرَه ... أن سال منْ بعض نواحيـه وادْ
حُبُّكَ فرْضٌ فى قلوب الورى ... وابْــنُ الـولا يُعْدَلُ بابن الـولادْ
يانُوح رثْ أعمارنَا واحتكم ... ملكــك اللـــه رقــاب العبــادْ

فالشاعر فى أبياته يعزى الخليفة ويدعوه إلى الصبر واحتساب ولده زخراً عند الله تعالى فإنه وقد أصابته مصيبة بفقد ولده فما زال البيت عامراً بالخليفة عماد البيت وأصله، وأن الخليفة ليس فى حاجة إلى من يخبره بذلك فإنه المثل الذى يقتدى به فى العلم والحلم خاصة فى مواقف الخطب والشدة، ثم يقول : إن الخليفة سماءً قد حوت النجوم والكواكب الكثيرة فإن غاب منها نجم فإن ذلك لاينقص عددها، وإنه بحر زاخر يفيض بالماء فما يضره أن يسيل بعض الماء من نواحيه - ويقصد الشاعر بذلك ولده الذى رحل فإنه وإن كان قد غاب فإن البيت عامر بالخليفة وآل بيته .

ثم يقول الشاعر : إن حبَّ الخليفة فرض فى رقاب العباد وأنه "نوح" نبى الله وقد ملكه الله تعالى رقاب الخلق، وذلك من عقائد الشيعة التى ترى أن حبَّ الإمام فرض على أتباعه، ثم يجعله "نوحاً" على حسب عقيدة الشعة التى تقول "بالأدوار" بمعنى أن كل نبى يأخذ أدوار الأنبياء السابقين وأن الإمام يأخذ أدوار الأنبياء كذلك، فمحمد هو عيسى وإبراهيم ونوح، وكذلك أئمة الشيعة .

وهكذا برع الشاعر فى قصيدته الرثائية وتعد من بدائع المراثى وعيون قصائد الرثاء فى الشعر العربى، حيث وفق الشاعر توفيقاً عظيماً فى كل عنصر من عناصر القصيدة، فقد وفق فى نسجها وبنائها وألفاظها وأسلوبها وأفكارها وصورها وخيالها وعاطفتها الصادقة، إنها تدل على مقدرة فائقة لشاعر ملك أدواته الفنية وسيطرت عليه العاطفة الصادقة الجياشة التى ملكت عليه قلبه وعقله وقلمه .

والقصيدة رائعة تتسم بعذوبة الألفاظ ورقتها وإحكام الأسلوب ومتانته ووضوح المعانى والأفكار كما تفيض بالخيالات الرائعة والصور البديعة والمعانى الجديدة المبتكرة، وقد اعتمد الشاعر اعتماداً واضحاً على ألوان الخيال فى تصوير صوره وإبراز معانيه وضمن أبياته بعض ألوان البديع وعقائد الشيعة فضلاً عن الاقتباس من الحديث النبوى كما هو واضح فى البيت الثانى .

وتزخر الأبيات بكثير من المعانى والصور الجميلة المبتكرة وذلك مثل قوله : فى البيت الثالث والبيت الرابع والسادس والثانى والعشرين والثالث والعشرين .

وإذا كانت قصيدته فى رثاء الأمير "على" قد أوقفها الشاعر على شعر الرثاء فقط ومضى يتحدث فيها عن الرثاء من أول الأبيات إلى آخرها فإن قصيدته الثانية قد جمع فيها بين المدح والرثاء، حيث مدح فيها الملك "الأشرف" "موسى" وعزاه بابن عمه الملك "الظاهر" صاحب "حلب" الذى توفى عام ٦٣٤ ها ، ويقول يعزيه بعد أن مدحه :(١)

للّـه بحـرُ نـوالٍ جَـفَّ مَشْرَعُـهُ ... وطود مُلْكٍ هوى من بعد تشْييد
وليْثُ غابٍ تـردُّ الجيْشَ سطوتُهُ ... أضْنَى عليه قضاءٌ غير مـردود
صفا له مَوْرِدُ الدنيا فما لبثـتْ ... حتَّـى رمتـْه بتكديـرٍ وتنكيـد
إن كانتْ الأرضُ أخفتْ شخصَ ظاهرها ... فبالعزيـز سَلَوْنـَا كُـلَّ مفقـود
هـلالُ ملْكٍ تولَّى السَّعْد مولدَهُ ... وماالسعـادة إلاَّ فـى المواليـد
هــذا سليمـانُ لكـن سرُّ خاتمـه ... موسـى فمـا ضرَّه فقدان داود
ياحـارس الدين لمـا نام حارسـه ... وناظمـاً شملـه من بعـد تبدْيـد
يظنك الناسُ فى خفضٍ وفى دَعَةٍ ... جهْلاً وكم مستريح الجسم مكدود

---

(١) ص٣٧١ - ٣٧٣ ديوان ابن النبيه . القصيدة من بحر : البسيط .

نرى الشاعر يجمع فى أبياته بين المدح والرثاء - وهذا من صعب الرثاء، حيث يجمع الشاعر بين موقفين متضادين فى وقت واحد ولايقدر على ذلك إلا شاعر فنان موهوب ملك أدوات الشاعرية واكتملت عنده أسبابها. وابن النبيه فى أبياته يعزى "الأشرف" فى وفاة ابن عمه ويصور حزنه على فقده ويحاول أن يسلى الملك ويخفف عنه وطأة الموت ويرى أنه وإن كان "العزيز" قد احتجب فى باطن الأرض فبالأشرف السلوى عنه وعن كل مفقود ثم أخذ فى مدحه والإشادة به .

ومن أغراض الشعر التى عرفها ديوان ابن النبيه: الشعر الاجتماعى من تهنئة وشكوى واستعطاف واعتذار واستدعاء وغير ذلك مما ورد منه فى ديوانه إلا أن شعر التهانى يحتل المرتبة الأولى فى شعره الاجتماعى ويرجع السبب فى ذلك إلى العلاقة المتينة التى كانت تربط بين الشاعر وبين هؤلاء الذين هنأهم بشعره إلا أنه يلاحظ أن شعر التهانى لم يرد غالباً مستقلاً فى شعره وإنما جاء غالباً ممتزجاً مع مدائحه فلم تستقل التهنئة بقصيدة بعينها بل جاءت فى مقام المدح حيث جمع الشاعر بين التهنئة والمدح فى قصيدة واحدة إلا قليلاً .

ومن تهانيه قوله يهنىء الملك "الأشرف" بالعافية من مرض ألم به بعد أن مدحه فى أبيات عديدة :(١)

إن كان أضحكهم وعْكٌ ألمَّ به ... فلتُبكهم بعد هذا صحةٌ صَلَحتْ
أصبحْتَ كالشمس ماشينتْ بمنقصة ... بعد الكسوف إذا أنوارُها وضحتْ
لاأعدم اللهُ هذا الخلْق منك يداً ... بيضاء إنْ منعتْهم غيرها سمحتْ

ومن تهانيه : قوله يهنئه باجتماعه وصلحه بأخيه الملك المعظم صاحب دمشق بعد خصومة ويمدحهما معاً :(٢)

---

(١) ص١٧١ - ١٧٢ ديوان ابن النبيه . من بحر : البسيط .
(٢) ص٣٤٥ - ٣٥٠ ديوان ابن النبيه . من بحر : البسيط .

يارائد القوم هذا النبْتُ والزهر — ياشائمَ البرق هذا البحر والمطر
ياخابط الليل لاتهديه بارقة — بشراك بشراك هذا الشمس والقمر
عيسى وموسى فذا يحيا الأنام به — وذابه حجر الأرزاق ينفجر

ومضى الشاعر حتى آخر القصيدة يمدح ويهنيء الملكين بصلحهما بعد قطيعة دامت بينهما طويلاً مظهراً ميزة هذا الصلح على المسلمين جميعاً فإنّ ذلك لهم قوة، وأثر ذلك على أعداء الإسلام ومعاقل الشرك : حيث أصابهم الزعر والخوف وأخذ منهم الرعب كل مأخذ .

كذلك مدح الشاعر "الملك الأشرف" وهنأه بفتح دمياط وانتصاره على الصليبين(١) ومدحه وهنأه بالصلح مع الملك الصالح محمود بن أرتق(٢) .

كذلك مدح وهنأ القاضى الفاضل بالعيد(٣) ، وهنأ "علم الدين بن الصاحب" فى شهر رجب من مرض أصابه بعد مقدمة تحدث فيها عن ابتعاده عن اللهو والمجون(٤) .

كذلك عرف ابن النبيه : الاعتذار والاستعطاف والشكوى حيث ظهرت نغمة الاعتذار والاستعطاف والشكوى والسؤال فى مدائحه وهذه خاصة شاعت بين شعراء العصر الأيوبى خاصة بين هؤلاء الشعراء الذين اتخذوا الشعر وسيلة للتكسب وجعلوه وظيفتهم الرسمية، وكان "ابن النبيه" كثير الاعتذار والاستعطاف والسؤال للمدوحين لأنه عاش حياته متكسباً بشعره بل أذل نفسه من أجل عطاء الممدوحين وأموالهم .

---

(١) ص٤٥٥ - ٤٦١ ديوان ابن النبيه . من بحر : البسيط .
(٢) ص٣٣٧ ومابعدها ديوان ابن النبيه من بحر : السريع .
(٣) ص٤٩٧ - ٤٩٩ ديوان ابن النبيه . من بحر : المتقارب .
(٤) ص٤٣٣ - ٤٣٥ ديوان ابن النبيه . من بحر : البسيط .

ويلاحظ على أشعاره فى الاعتذار والاستعطاف والشكوى أنها لم تأت مستقلة فى قصائد بعينها بل ضمنها قصائده فى مدائح ممدوحيه [١].

كذلك عرف "ابن النبيه" شعر الحكمة إلا أنها لم تأت مستقلة أيضاً فى قصائد بعينها بل جاءت فى أبيات مبعثرة فى قصائده ذوات الأغراض الشعرية الأخرى كالمدح والوصف والغزل والرثاء. [٢]

وله يستدعى بعض أصحابه إلى مجلس أنس : [٣]

نحــن فى روضـة وزهــر ونهــر ومــدام كالشمس من كـف بدر
ومغـن قـد راسلتْهُ الشُّحـاريـ ـرُ فأغنتْ عن جَسِّ عـودٍ وزمْرِ
أنت روحٌ ونحن جسمٌ فإن غبـ ـتَ فـإنَّ القلوب تكـوى بجمر
إنَّ كـفاً إليـك قـد كتَبَتْهـا تتهـادى ما بيـن سُكْـر وشكـرْ

وله فى الألغاز : [٤]

أىُّ شىء ملْءُ السماوات والأر ض وإن كان من صفات الحبيب
هُـوَ طوْراً من الطعام بلا شك وطـوْراً من أطيب المشـروب
لمْ يُطقْ حَمْلَ ذرةٍ وهو عن حَمْـ ـل القناطيـر ليـس بالمغْلوب

وله يتشفع بجمال "محمد" صلى الله عليه وسلم فى حاجة عرضت له : [٥].

قالــوا تشفّــع بالجمــا ل ولــو تثبَّــتَ كـان أجـودْ
فأجبــتُ إنــى مسلــمٌ أرجــو الشفاعــة مـن مُحَمَّـدْ

---

(١) ينظر على سبيل المثال : ديوانه : ص٤٥٣ ، ص٤٩٠ ، ص٢٠٤ .
(٢) ينظر ديوانه : ص٣٥٠ ، ص٤٢٦ ، ص٤٥٥ على سبيل المثال لا الحصر .
(٣) ص٤٨٩ ديوان ابن النبيه . من بحر : الخفيف .
(٤) ص٤٢٨ ديوان ابن النبيه . من بحر : الخفيف .
(٥) ص٣٩٥ ديوان الشاعر . من بحر الكامل . المرفل .

وقال يطلب حاجة على يد غلام جميل من الملك الأشرف :[١]

أيقنتُ بأنّ حاجتى ليس تضيع   مُذْ قدَّمها مهفهف القدِّ بديع
فى خُضْرة خدَّيْه لعينيك ربيع   ماأقبح ردَّهُ وذا الحُسْن وشفيعْ

وهكذا عرف "ابن النبيه المصرى" كثيراً من موضوعات الشعر الاجتماعى إلا أنه لم يكثر منها ولم تأت مستقلة فى قصائد بعينها اللهم إلا نادراً وذلك لأن الشاعر قد جعل كل همه ومعظم أشعاره فى المدح : - لأنه عاش متكسباً بشعره - والغزل والخمر والطبيعة : معبراً فيها عن شعوره وحياته وواقع مجتمعه الذى جاء شعره معبراً عن واقعه وصورة حية لما كان عليه عصره وماوجد فيه من عادات وأعراف وتقاليد .

---

(١) ص٣٠٣ ديوان ابن النبيه . دوبيت . فعْلن متفاعلن فعولن فَعلان .

الباب الثالث

«الخصائص الفنية لشعره»

الفصل الأول

١ - بنـــاء القصيـدة .

٢ - اللفظ والأسلوب .

نظم "ابن النبيه المصرى" الشعر فى أغراض متعددة وفنون مختلفة، فقد نظم فى المدح والغزل بألوانه المختلفة ووصف الطبيعة بمظهريها : الحىّ والصامت ووصف الخمر وغيرها من موضوعات الوصف التى ذكرناها فى موضعها كما نظم فى الرثاء والشكوى والعتاب والاعتذار والتهنئة والحكمة وغير ذلك .

وقد كان لشعره خصائص ومميزات واضحة منها ماهو قديم موروث استمده من العصور الأدبية المتقدمة ومنها الجديد الذى استمده من عصره وبيئته وخياله وفكره، وقد وضح ذلك فى العناصر الفنية للقصيدة سواء كان ذلك فى بناء القصيدة أو موضوعاتها أو أسلوبها أو معانيها أو فى الخيال والتصوير أو الوزن الشعرى .

أولاً : بناء القصيدة :

سار "ابن النبيه المصرى" فى كثير من قصائده على منهج الأقدمين من التقديم للقصيدة بمقدمة تمهيدية جعلها مقدمة للقصيدة وخلص منها إلى غرضه الأصلى وقد تجلى ذلك بوضوح فى قصائده المدحية حيث لم تأت قصائده دون تمهيد إلا قليلاً ، وقد قدم لها بالغزل أو الخمر أو الطبيعة وأحياناً كان يجمع فى مقدمته أكثر من موضوع كأن يجمع بين الغزل والطبيعة أو الخمر والطبيعة أو الخمر والطبيعة والغزل معاً ثم يتخلص إلى غرضه الأصلى مما جعل قصيدته تتعدد فيها الأغراض والأفكار، حيث تعددت الأغراض فى القصيدة الواحدة وضمت فى ثناياها أكثر من غرض بجوار الغرض الأصلى لها، وقد كان هذا هو الشائع المعروف فى شعره على اختلاف أغراضه .

ولكن مع ذلك وجدت كثير من القصائد التى اقتصر فيها الشاعر على غرض شعرى واحد فلم يعدد أو ينوع فى أغراضها وإنما جاءت القصيدة فى غرض شعرى واحد لايشترك معه فيها غرض آخر

وجاء ذلك فى أغراضه المختلفة مثل : المدح[١] والغزل[٢] والوصف[٣] والرثاء[٤] وغير ذلك من أغراضه التى نظم فيها "ابن النبيه"[٥] .

وقد نظم "ابن النبيه" شعره على اختلاف أغراضه على أشكال متعددة، فقد نظمه فى شكل قصيدة ترددت بين الطول والقصر وفى شكل مقطوعة شعرية محددة ربما وصلت إلى ثلاثة أبيات أو بيتين أو بيت واحد وقد غلب شكل القصيدة على مدائحه وشعر الرثاء.[٦] وغلب شكل المقطوعة على الوصف والغزل فمن ذلك قوله يصف الغيم والهلال والشهب :[٧] .

للرمى فضل ليس ينكر قدرُه ... والجو قد شهدت به آثار
الشهب بندقه ونون هلاله ... قوس ومسكى الغمام غباره

وقال يتغزل فى غلام يهودى فى بيتين اثنين :[٨]

من آل إسرائيل عُلّقته ... عذّبنى بالصدّ والتيه
تنزّل السلوى على قلبه ... وأنزل المنّ على فيه

وقال يتغزل فى غلام بعد طلوع عذاره فى بيتين اثنين[٩]

سال على وجنته عارض ... كالعرض القائم بالجوهر
ياشعر لاتكذب على خده ... ماذاك إلا زرد المغفر

---

(١) ينظر على سبيل المثال ديوانه : ص٨٣ .
(٢) ينظر ديوانه : ص٤٢٢ .
(٣) ينظر ديوانه ص٢٩٦ ، ص٢٩٩ ، ص٣٠١ .
(٤) ينظر ديوانه ص١٠٤ .
(٥) ينظر ديوانه ص٣٠٢ ، ص٣٢٨ .
(٦) ينظر ديوانه : ص٩١ ، ص١٠٠ ، ص١٠٤ .
(٧) ص٢٩٧ ديوانه .
(٨) ص٢٩٧ ديوان ابن النبيه .
(٩) ص٤٠٨ ديوان ابن النبيه .

وقال فى مغن فى بيت واحد : (١)

لبـــقٌ أقبـــل فيـــه هيـــــفٌ　　　كـــل ما أملـــك إن غنـــى هبـــه

وقال متغزلاً فى بيت واحد : (٢)

قـل لأحبابى كسونى الأرقا　　　مــات صبـــرى فلهم طول البقا

وهكذا تنوعت قصائد ابن النبيه فى بنائها : مابين القصيدة الطويلة والقصيرة والمقطوعة المحددة التى ربما وصلت إلى بيت أو بيتين .

ثانياً: الألفاظ والأساليب واختلافها بالنسبة لأغراض شعره :

تدل معاجم اللغة العربية على أن مدلول الأسلوب هو : الطريقة، يقال سلكت أسلوب فلان أى طريقته ويقال كذلك على أساليب حسنة (٣) .

وقد أخذ الحديث عن الأسلوب وتحديده حيزاً كبيراً وجهداً عظيماً من جانب علماء الأدب واللغة العربية، فقد عرفه ابن خلدون: بأنه "الأداء اللفظى المطابق للصورة الذهنية لمفهوم الأسلوب الناجم من قوة الملكة فى اللسان العربى والذى هو ثمرة الاعتماد على الطبع والتمرس بالكلام البليغ" (٤)

والأسلوب عند عبد القاهر الجرحانى هو النظم (٥)

---

(١) ص٤٣٦ ديوان ابن النبيه .

(٢) ص٤٧١ ديوان ابن النبيه .

(٣) لسان العرب والقاموس المحيط .

(٤) ص٥٧٠ ومابعدها مقدمة ابن خلدون .

(٥) ص٣٣٨ دلائل الإعجاز .

كذلك أخذ الحديث عن اللفظ والمعنى حيزاً كبيراً وجهداً عظيماً من جانب علماء اللغة والأدب والبلاغة وراح كل من هؤلاء يدلى بدلوه ورأيه حول أهمية كل من اللفظ والمعنى، وهل القيمة للفظ وحده أم للمعنى وحده أم لهما معاً ؟

فنجد "قدامة بن جعفر" يرى : "أن الشعر صناعة والمعنى فيه هو المادة واللفظ والصياغة هما المظهر"(١)

ويرى "أبو هلال العسكرى" : "أن القيمة للفظ لأن المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها البدوى والقروى والعربى والعجمى وإنما الشأن فى جودة اللفظ وصفائه"(٢)

ونرى "الجاحظ يهتم باللفظ والمعنى معاً وإن كان يبدو من ظاهر كلامه اهتمامه باللفظ، وكان الإمام عبد القاهر الجرجانى من أشهر النقاد العرب الذين جعلوا القيمة للفظ والمعنى معاً ولم يفرق بينهما فلاغنى عن اللفظ والمعنى معاً .

ونحن لانستطيع أن نفرق بين اللفظ والمعنى أو نجعل القيمة لأحدهما دون الآخر فهما معاً عنصران مهمان مرتبطان ببعضيهما ارتباطاً وثيقاً وإليهما معاً ترجع القيمة التعبيرية .

فالمعنى إذا نضج فى الذهن وملأ المشاعر عاد ذلك على اللفظ، والشاعر إذا عبر عن معنىً قوى عبر عنه بألفاظ قوية وإذا عبر عن معنى رقيق سهل عبر عنه بألفاظ سهلة رقيقة، فهما مرتبطان ويؤثر أحدهما على الآخر، والذى يعين ألفاظ الشعر ويجعلها محمودة فيه هو نظرة الشاعر إليها وتفسيره لها وتخيله لإيحاءاتها وماتخلفه فى نفسه ثم انتفاعه بذلك كله ومقدرته على

---

(١) ص١٣ ومابعدها . نقد الشعر تحقيق : محمد عيسى منون .

(٢) ص٤٢ الصناعتين لأبى هلال العسكرى .

أن يضمن اللفظ عواطفه وخياله ووجدانه وشعوره فيصل هذا اللفظ إلى القارىء أو السامع محملاً بكثير مما أراده الشاعر ويثير فى نفس القارىء معانى وانفعالات أكثر مما له عند عامة الناس"(١)

وإذا نظرنا إلى شعر "ابن النبيه المصرى" نجد أن الشاعر كان فناناً عملاقاً فى استخدامه للألفاظ والأساليب وكان فناناً قادراً على استخدام الألفاظ والأساليب وتطويعها وملاءمتها للموضوع الشعرى الذى ضمنه قصيدته، فألفاظ وأساليب شعر المدح والرثاء تختلف اختلافاً ظاهراً عن ألفاظ وأساليب شعر الغزل والوصف، ففى شعر المدح والرثاء وغيرهما من أغراض القوة نجد الشاعر يستخدم الألفاظ القوية الفخمة ذات الموسيقى العالية التى تفيض قوة وتزخر بالوقع والرنين القوى ونجد الألفاظ والكلمات القوية بطبعها والتى تزخر بشحنة نفسية وعاطفية مماثلة ونجد الألفاظ والعبارات التى تعطى موسيقى قوية تنبع من داخل الحروف والكلمات والتى تتناسب مع أغراض القوة. والأمثلة على ذلك كثيرة فى مدائحه ومراثيه بوجه خاص .

فمن ذلك قوله فى مدح الخليفة العباسى :(٢)

بغـــداد مكتنـا وأحمـــد أحمـــد ... حجوا إلى تلك المناسك واسجدوا
يامذنبيـــن بهـــا ضعـوا أوزاركـم ... وتطهـــروا بترابهـــا وتهجّـــدوا
فهنـــاك من جســـد النبوة بضعـــة ... بالوحـــى جبريـــل لهـــا يتـــردد
بـــاب النجـــاة مدينة العلم التـــى ... مـــازال كوكـــب هديهـــا يتوقّـــدُ
هـــذا هو السرُّ الذى بهـــر الـــورى ... فـــى ظهـــر آدم فالملائـــك سُجَّـدُ

حتى آخر الأبيات .

---

(١) ص١٩٥ فى الأدب المقارن . للأستاذ : عبد الرازق حميدة . طبع عام ١٩٤٩م بالقاهرة .

(٢) ص٨٣ - ٩٠ ديوان ابن النبيه .

وقوله فى مدح الملك العادل :[1]

هو العادل الظلام للمال والعدى ... خزائنُــه قد أقفــرت وديــارها
كريــم له نفــس تجـود بمـا حــوت ... وأعجب شىء بعد ذاك اعتذارها
حســام له حــدٌ يــروع مضـــاؤه ... وصفحـة صفح للذنوب اغتفارها
لـه راحة فى السلـم تجنى جنانهــا ... ويــوم هياج الحـرب توقـد نارها
فأغلـــه طــوراً غصـــون نواضـــر ... وطــوراً سيوف داميـات شغارها
بـــه دمّر اللـــه الصليـــب وأهلـــه ... بـــه ملة الإســـلام عـــالٍ منارها

وقوله فى مدح الملك "الأشرف" :

مليك يخوض الجيش ضرباً بسيفه ... ومـازال موسى بالعصا فالق البحر
كريـم يُحيًّا بشْــرهُ قبــل جــوده ... وللبــرق لمعٌ بعــده وابــل القطــر
سيملك أقصى الأرض بشرى ضمانها ... على الرأى والرايات والنصل والنصر
وسمرٍ أجادت صنعة النظم فى الكلى ... وبيضٍ أجادتْ فى الطُّلى صنعة النثر
وجيشٍ لعين الشمـس كحـل بنقعه ... إذا رمــدت من لمـع أسيافـه البتـر
وأسـدٍ علــى جردٍ لها مثـل صبرهم ... إذا ماتجلــى المـوت فى الحلل الحمر
دمـاءً أعاديهـم شـراب رماحهـم ... وأجسامهم هدىً إلى الذئب والنسـر

فالمعنى يلبس اللفظ وينسجم معه والأسلوب قوىٌ فخم يلائم الغرض الشعرى للقصيدة والألفاظ قوية تزخر بالوقع والرنين القوى والموسيقى التى تنبعث من الألفاظ ومن الوزن والقافية موسيقى قوية زادتها الألفاظ والعبارات قوة على قوة .

والأمثلة على ذلك كثيرة وتزخر بها مدائحه ومراثيه وبعض أشعار الطبيعة التى ضمنها موضوعاً قوياً .

---

(١) ص١١٠ - ١١٥ ديوان ابن النبيه .

وحينما يتغزل "ابن النبيه" نجده يستخدم الألفاظ السهلة الرقيقة العذبة التى تفيض رقة وعذوبة والأسلوب الذى ينسجم مع شعر الغزل فى رقته، فمن ذلك قوله يتغزل : (١)

أفديـه إن حفظ الهوى أو ضيعـا ... ملـك الفؤ[illegible] فما عسى أن أصنعا

مـن لم يذق ظلـم الحبيب كظلمـه ... حلـواً فقد [illegible]

ياأيها الوجه الجميل تدارك الصـ ... ـبَّ النحيـل فقد عفا وتضعضعا

هـل فى فـؤادك رحمـة لميتـم؟ ... ضمت جوانحـه فـؤاداً موجعـا

فتـش حشـاى فأنت فيـه حاضر ... تجـد الحسـود بضدّ مافيـه سعى

هـل من سبيـل أن أبثّ صبابتى؟ ... أو أشتكـى بلـواى أو أتضرعـا

وقوله يتغزل : (٢)

حيّت فأحيت بطيب ريّاهـا ... هيفـاء ظمـأى الشفـاه ريّاهـا

بيضـاء إن سُبيت جوارحهـا ... لواحظـاً وافقـت مسماهـا

رمّانتـا صدرهـا تـدلّ علـى ... أنّ جنـى الجلّنـار خداهـا

إلى آخر الأبيات .

وقد استخدم "ابن النبيه المصرى" ألوان البديع على اختلافها فى شعره وزان بها قصائده ولكنه لم يبالغ فى الاتجاه نحو الزخرف والزينة مبالغة تفسد عليه شعره بل كان يستخدمها فى موضعها بحيث لاتقوى على أسلوبه فتظهر وكأنها غير متكلفة، وهو فى ذلك يخالف ماكان عليه معظم شعراء عصره الذين بالغوا فى استخدام البديع وأكثروا من ألوانه كثرة مفرطة وكأنه لاهمّ لهم إلا حشو أشعارهم بالبديع فعاد ذلك على شعرهم بالتخلف والرداءة ويتجلى ذلك بوضوح فى شعر مدرسة الكتاب التى وجدت فى العصر الأيوبى حيث كان شعراء هـذه المدرسـة يتلاعبـون بالألفاظ تلاعبـاً

---

(١) ص١٤٩ ومابعدها ديوان ابن النبيه المصرى .

(٢) ص٤٩٣ ديوان ابن النبيه المصرى .

ظهر فيه أثر الصناعة والتكلف وأسرفوا فى صناعتهم وتكلفهم إسرافاً كبيراً أمثال : "ابن الساعاتى" وابن قلاقس" وابن سناء الملك" وغيرهم من شعراء العصر الأيوبى .

استخدم ابن النبيه البديع وزان به شعره ولكن دون تكلف أو تصنع وجاء فى موقعه بعيداً عن التعسف الفنى، وكان الطباق والجناس والتورية ومراعاة النظير من أكثر الألوان البديعية التى ظهرت فى شعره وإن كان الطباق والجناس يحتلان المرتبة الأولى فى شعره .

فمن الطباق قوله : يتغزل :(١)

تبسم عن منظوم دُرٍّ فإن ترنمتْ جاءت بمنثور

حيث طابق بين : منظوم ومنثور ، فهما متضادان .

ومن الطباق قوله فى مدح الملك "العادل" :(٢)

تجرى المقادير بما تشتهى مابين تعسير وتيسير

فالطباق بين : تعسير وتيسير .

ومنه أيضاً قوله فى مدح الملك "الأشرف" (٣)

فى جحفل يحمد يوم الوغى فى جمعه تفريق مايجمع

ومنه قوله :(٤)

سهلٌ إذا لمس الصفا سال الندى صعب إذا لمس الأشمُ تصدّعا

ومنه قوله : (٥)

لله كم من نعمة فى نقمةٍ أسْدَى وكم قتل العدو وماجرح

---

(١) ص١١٧ ديوان ابن النبيه المصرى .

(٢) ص١٢٠ ديوان ابن النبيه .

(٣) ص١٤٦ ديوان ابن النبيه .

(٤) ص١٥١ ديوان ابن النبيه .

(٥) ص٢١٣ ديوان ابن النبيه .

ومنه في الغزل : (١)

دعتنـى إلى السُّلـوان عنه بحبّها ... وماكنت أرضى بعد إيمانى الكفرا

ومن الطباق قوله فى الغزل كذلك : (٢)

خصْر وردْفٌ كأنّ البَنْدَ بينهمـا ... مفـرِّقٌ مابيـن معـدوم وموجود

ومن قوله فى المدح : (٣)

أعـدت للدين والدنيـا وساكنهـا ... عصْـر الشبيبة بعد الشيب والهرم

ومن طباق السلب قوله : (٤)

مسَّنـى الضـرّ ومالـى سـوى ... مـن يمنـع الجـار ولايمنـع

ومن المقابلة فى شعره قوله فى الغزل : (٥)

وأغـرُّ تؤيسنى قسـاوة قلبه ... منـه ويطمعنـى تعطـف لينـه

حيـث قابل بين: تؤيسنى قساوة قلبه وبين ويطمعنى تعطف لينـــه.

ومن المقابلة قوله : (٦)

هـذا تموت بـه أحياؤكم أبداً ... وذا يُحيـا فـى التـرب أمـوات

هذا والأمثلة كثيرة جداً على شيوع هذا اللون البديعى "الطباق" والمقابلة" فى أسلوب شعر الشاعر ويحتل المرتبة الأولى فى شعره بين ألوان البديع حيث يزخر شعره بهذا الصبغ البديعى على اختلاف أغراضه وفنونه الشعرية(٧) ، "والطباق والمقابلة من الأمـور

(١) ص٢٩٠ ديوان ابن النبيه .
(٢) ص٣٦٥ ديوان ابن النبيه .
(٣) ص٢٥٣ ديوان ابن النبيه .
(٤) ص١٤٤ ديوان ابن النبيه .
(٥) ص٢١٥ ديوان ابن النبيه .
(٦) ص٣٦١ ديوان ابن النبيه المصرى .
(٧) أنظر على سبيل المثال بخلاف مامضى . ديوان الشاعر : ص١٣٧ ، ص١٥٧ ، ص١٧٠ ، ص١٨٣ ، ص١٨٥ ، ص٢١٣ ، ص٢٢١ ، ص٢٣٣ ، ص٢٦١ ، ص٣٦٤ ، ص٣٦٥ وغيرها .

الفطرية المركوزة فى الطباع والتى لها علاقة وثيقة ببلاغة الكلام إذ الضد أقرب خطوراً بالبال عند ذكر ضده فهما من مقتضيات الأحوال وموجبات الأغراض(١) ، لاذيلاً ولاذنباً بل هما من صميم البلاغة ومقتضيات المعنى ومتطلبات الأسلوب .

ويحتل الجناس المرتبة الثانية بين ألوان البديع شيوعاً فى أسلوب "ابن النبيه" وجاء تاماً وناقصاً ، فمن الطباق ماورد فى قوله:(٢) .

تنقبت بالنُّورْ والنُّور ... واعتجرتْ لكن بديجور

ومنه قوله : (٣)

يقولُ من يسمع ألفاظه ... هذا جنانٌ أم جَنان

ومن الجناس قوله : (٤)

لك الله من قائل وقاتل ... يجادل بالكتب أو بالكتائب

حيث جانس بين : قائل وقاتل وبين : الكتب والكتائب .

ومن الجناس كذلك قوله : (٥)

نَدُمْ سنداً للعفاة الكفاة ... تريهم غرائب بذل الرغائب

فبين : غرائب والرغائب جناس مختلف .

هذا والأمثلة كثيرة ومتعددة فى شعر الشاعر على اختلاف أغراضه الشعرية(٦) .

---

(١) ص٤٧١ الصبغ البديعى . للدكتور / أحمد إبراهيم موسى . دار الكاتب العربى بالقاهرة عام ١٣٨٨ هـ .

(٢) ص١١٦ ديوان الشاعر .

(٣) ص١٦٣ ديوانه .

(٤) ص١٩٥ ديوان ابن النبيه .

(٥) ص١٩٦ ديوان ابن النبيه .

(٦) ينظر ديوانه : ص٢٠٠ ، ص٢٠١ ، ص٢١١ ، ص٢٨٨ ، ص٢٩٩ ، ص٣٥٦ ، ص٣٦٦ ، ص٣٧٣ ، ص٣٩٣ ، ٤٧٣ ، ص٤٦٥ .

ومن مراعاة النظير فى أسلوبه ماورد فى قوله :[١]

ياشائم البرق هذا البحر والمطر — يارائد القوم هذا النبت والزَّهَرُ
بُشراك بشراك هذا الشمس والقمر — ياخابط الليل لاتهديه بارقة

فبين : "النبْت والزهر" وبين "البحر والمطر" وبين "الشمس والقمر" مراعاة نظير، حيث جمع الشاعر بين أمر ومايناسبه لابالتضاد فى كل منها .

كما ورد فى أسلوبه "أسلوب التورية"[٢] والتعدد[٣] . و "القسم"[٤] وغيرها من الألوان ولكنها كانت قليلة .

ومن أهم الظواهر الأسلوبية التى برزت فى شعره ظاهرة "الاقتباس من القرآن الكريم" حيث انتشرت هذه الظاهرة انتشاراً ظاهراً وكثرت فى أسلوب الشاعر كثرة هائلة خاصة فى شعر المديح مما يدل على ثقافة الشاعر الإسلامية وحفظه للقرآن الكريم حفظاً واعياً، ومن ذلك ماورد فى قوله يمدح الخليفة الناصر العباسى:[٥]

أهْل بيت قد أذهب اللـه عنهم — كـل رجـس وطهروا تطهيـرا
يامجيرى إن خفت يوماً عبوساً — مفكهراً مستصعبـاً قمطريـرا
يامغيثـى والنـار توقـد بالنا — س وترْمـى شرارها المستطيـرا
قـدْ هدانـا بـك السبّيل فإمَّـا — مؤمنـاً شاكـراً وإمَّـا كفـورا
فعليـك السـلام ياأقرب النـا — س لمـنْ جـاء شاهـداً ونذيـرا

---

(١) ص٣٤٥ ديوان ابن النبيه .
(٢) ينظر ديوانه ص١٦٣ ، ص١٦٥ ، ص١٦٦ ، ص١٦٨ ، ص٣٩٥ .
(٣) ينظر ديوانه ص٩٢ ، ص١٥٩ ، ص١٦٢ ، ص١٨٧ ، ص٣٥٩ ، ص٤٦٢ .
(٤) ينظر ديوانه ص١٦١ ، ص٢٥٢ ، ص٢٦٨ ، ص٢٨٠ ، ص٤٣٢ .
(٥) ص١٠٢ ، ص١٠٣ ديوان ابن النبيه .

ففى الأول : اقتباس من قول الله تعالى : "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا" [١] وفى البيت الثانى اقتباس من قوله تعالى : "إنَّا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا" [٢] وفى البيت الثالث اقتباس من قوله تعالى : "إنها ترمى بشرر كالقصر" [٣] وفى البيت الرابع اقتباس من قوله تعالى : "إنا هديناه السبيل إمَّا شاكراً وإما كفورا" [٤] ، وفى البيت الأخير من قوله تعالى : "إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا" [٥] .

ومنه ماورد فى قوله : [٦]

إنْ جنحوا للسلم فاجنح لها   ماخَدَعُ الحرب بتقصير

اقتباس من قوله تعالى : "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله" [٧] .

ومنه ماورد فى قوله : [٨]

أعان أخاه باسمه وبجيشه   ولاتنفذُ الأقدار إلاّ بسلطان

اقتباس من قوله تعالى : "يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان" [٩] .

---

(١) سورة الأحزاب الآية رقم ٣٣ .
(٢) سورة الإنسان . الآية رقم ١٠ .
(٣) سورة المرسلات . الآية رقم ٣٢ .
(٤) سورة الإنسان الآية رقم ٣ .
(٥) سورة الفتح . الآية رقم ٨ .
(٦) ص١٢٠ ديوان ابن النبيه .
(٧) سورة الأنفال الآية رقم ٦٣ .
(٨) ص١٧٨ ديوان ابن النبيه .
(٩) سورة الرحمن . الآية ٣٣ .

ومن الاقتباس ماورد فى شعره حيث يقول :[١]

عزيـزُ يوسفـى الحُسـ ـن لـم يُشْـرَ ولـم يسجـن
قَـد ابْيضَـتْ بـه عينـى وللمهجـور أن يَحْـزَن
أبـث هـواه مـن خـوف لنجـم الليـل لمـا جـنّ

ففى البيت أول اقتباس من قوله : "وشروه بثمن بخس دراهم معدودة" ومن قوله : "قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم" . وفى البيت الثانى اقتباس من قوله "وابْيضّتْ عيناه من الحزن فهو كظيم"[٢] ، وفى البيت الثالث : اقتباس من قوله تعالى : "فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً"[٣] .

ومن الاقتباس ماورد فى قوله :[٤]

قليل الوصل يقنعها فإن لـم يُصبْهـا وابـلٌ منـه فطـل

ففى البيت اقتباس من قوله تعالى : "فإن لم يُصبْها وابلٌ فطل"[٥] .

ومن الاقتباس ماورد فى قوله :[٦]

ملك إذا ماطغى طوفان راحته أرْسى سفينة راجيه على الجودى

ففى البيت اقتباس من قول الله تعالى : "وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين"[٧] .

ومن الاقتباس ماجاء فى قوله يتغزل بصبىٍّ يهودىّ :[٨]

---

(١) ص٢٤٢ - ٢٤٣ ديوان الشاعر .
(٢) سورة يوسف الآية ٨٨ والآية ٢٥ .
(٣) سورة الأنعام الآية ٧٦ .
(٤) ص٢٥٧ ديوان ابن النبيه .
(٥) سورة البقرة الآية رقم ٢٦٥ .
(٦) ص٣٦٧ ديوان ابن النبيه .
(٧) سورة هود الآية ٤٤ .
(٨) ص٣٨٩ ديوان الشاعر .

تنزل السّلوى على قلبه   وأنزل المنُّ على فيه

اقتباس من قوله تعالى : "وظلّلنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المنَّ والسلوى" (١)

ومن الاقتباس ماورد فى قوله : (٢)

قمتُ ليل الصدود إلاّ قليلا   ثم رتّلتُ ذكركم ترتيلا
ووصلت السهاد قُبح وصلاً   وهجرت الرقاد هجراً جميلا
مَسْمعٌ كلّ عن كلام عذولى   حين ألقى عليه قولاً ثقيلا
وفؤادٌ قد كاد بين ضلوعى   أخذته الأحباب أخذاً وبيلا
قل لراقى الجفون إنّ لجفنى   فى بحار الدموع سبْحاً طويلاً
ماس عجباً كأنه مارأى غُصـ   ـنا طليحاً ولاكثيباً مهيلا
وحمى عن مُحبّه كأس ثغر   حين أمسى مزاجها زنجبيلا
بان عنّى فَصحتُ فى أثر العيـ   ـس ارحمونى وأسهلوهم قليلا
لاتَسُمْهُ وعْداً بغير نوال   إنه كان وعده مفعولا
وإذا كان خصمك الدهر والحُكـ   ـمُ إلى الله فاتخذه وكيلا
إنّ مدحى له أشدُّ وطاءً   وقريضى أقوى وأقوم قيلا

فنرى إلى أى حد بلغ الشاعر فى اقتباسه فى أبياته حيث لم يخل بيت من الأبيات من اقتباس من آية قرآنية من سورة "المزمل" (٥) وذلك فى الأبيات كلها إلا البيت السابع فإنه من سورة "الدهر" (٦) .

(١) سورة هود الآية ٤٤ .
(٢) ص٣٨٩ ديوان الشاعر .
(٣) سورة البقرة الآية ٥٧ .
(٤) ص٥٩٧ ومابعدها ديوان الشاعر .
(٥) الآيات رقم ٢ ، ١٠ ، ٥ ، ١٦ ، ٧ ، ١٤ ، ١١ ، ١٨ ، ٩ ، ٦ .
(٦) سورة الدهر . الآية رقم ١٧ .

وهكذا شاع أسلوب "الاقتباس من القرآن الكريم" شيوعاً واضحاً فى شعر الشاعر وعلى اختلاف أغراضه وفنونه(١) وإن كان الاقتباس غير مستحب فى الأغراض غير الجادة مثل : الغزل والخمر.

وإذا كان الشاعر قد استخدم أسلوب الاقتباس من القرآن الكريم فى أسلوبه فإنه أيضاً اقتبس من الحديث النبوى الشريف وضمنه بعض أشعاره إلا أن ذلك كان قليلاً .

ومن ذلك ماورد فى قوله فى رثاء الأمير علىّ بن الخليفة الناصر : (٢)

والله لايدعو إلى داره ... إلاّ من استصلح من ذى العباد

فهو من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : "إنما يعجل بخياركم" .

ومنه ماورد فى قوله : (٣)

تؤمّ الجوارحُ أعلامهُ ... تروح بطاناً وتغدو سواغب

فذلك من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : "تغدو خماصاً وتروح بطاناً" .

كذلك نلاحظ فى لغة الشاعر وأسلوبه استخدام بعض الألفاظ المعجمية التى استقاها من معاجم اللغة ويحتاج الأمر لفهمها الرجوع

---

(١) ينظر ديوانه أيضاً : ص١٣٤ ، ص١٤٤ ، ص١٤٧ ، ص١٦٣ ، ص٢٠١ ، ص٢١٢ ، ص٢١٥ ، ص٢٤٥ ، ص٢٤٦ ، ص٢٤٧ ، ص٢٥٠ ، ص٢٧٤ ، ص٢٨٥ ، ص٢٨٧ ، ص٢٩١ ، ص٣٣٤ ، ص٣٤١ ، ص٣٦٥ ، ص٣٥٧ ، ص٣٩٧ ، ص٣٧١ ، ص٤٠٦ ، ص٤١٥ ، ص٤١٦ ، ص٤٢٢ ، ص٤٢٧ ، ص٤٣٩ ، ص٤٤٧ ، ص٤٥٠ ، ص٤٨٦ ، ص٤٩١ وغيرها .

(٢) ص١٠٤ ديوان ابن النبيه .

(٣) ص١٩٤ ديوان ابن النبيه .

إلى معاجمها كى ينشرها الشخص بين يديه ويعلم ماخفى من هذه الألفاظ، وهى منتشرة فى ديوانه على اختلاف أغراضه وفنونه، ومن هذا القبيل ماورد فى قوله : (١)

وتزأر من تحت ذاك الركاب — أسودٌ لها من ظُباها مخالب
فتلك اللُّهاذمُ زُهر النجـوم — ومعْتكر النقع جنح الغياهب

وقوله : (٢)

كـأن السناجـق أوكارهـا — فكم عُصَبٍ فوق تلك العصائب

وقوله : (٣)

قـاس إذا استسقـت عـدا — ه ومـارجُ الهيجاء يُسْعَـرُ
سحـتْ سحـابُ عجاجـه — مـن نَبْلـه وبـلا كنهـور

ومن سمات لغة الشاعر وأسلوبه وجود بعض الألفاظ الأعجمية المعربة التى انتشرت فى شعره خاصة الألفاظ الفارسية "التى تسربت من قديم إلى اللغة العربية عن طريق التجارة والاختلاط" (٤) .

ومن ذلك ماورد فى قوله :(٥)

شـدّ الكلهْبنـد تحـت آستـه — فى ملتقـى ورده وسوسانـه

فلفظ "الكلهبند" فارسى، مركب من كله وبند، الأولى : بمعنى "مايلبس فوق الرأس" والثانية بمعنى "رابط" ومجموعهما إسم لشىء كالشريط يشد به ماعلى الرأس إلى الذقن كى لايقع . وتسميه العامة زناق" (٦)

---

(١) ص١٩٣ ديوان ابن النبيه .
(٢) ص١٩٤ ديوان ابن النبيه .
(٣) ص٢٦٥ ديوان ابن النبيه .
(٤) ص١٧٥ جـ١ ضحى الإسلام ، لأحمد أمين . الطبعة التاسعة .
(٥) ص١٣١ ديوان الشاعر .
(٦) ينظر الديوان ص١٣١ .

ومن ذلك ماورد فى قوله :[١]

ترى قندس الشربوش فوق جبينه   كأهداب أحداق بهتن إلى البدر

فـ "قندس الشربوشى" اسم فراء يتخذ لباساً للرأس وهو "فارسى"

ومن ذلك ماورد فى قوله :[٢] .

فمـا تجنـــى وحارسهـــا   بقُفْـل الصُـدْغ قـد زَرْفَـنْ

فلفظ : "زرفن" فارسى معرب [٣]

فضلاً عن الألفاظ السريانية مثل : الصليب "والنصارى" "والدير" " والبطريق" و "القس" و "الناقوس" وغيرها من الألفاظ الأعجمية التى استخدمها الشاعر فى شعره على اختلاف أغراضه خاصة : المديح والغزل ووصف الخمر .

واستخدام هذه الألفاظ فى أسلوب الشعر ليس بدعاً أو غريباً، "لأن الأدب ظل الحياة ومظهر من مظاهرها ولأن الأديب فى كل عصر تواق إلى استعمال ألفاظ وكلمات من عصره وحياته أصيلة كانت أم دخيلة"[٤] خاصة وأن ابن النبيه قد عاش فى عصر ضم بين جوانحه كثيراً من الأجناس المختلفة وتكون المجتمع الأيوبى من ألوان متعددة وعناصر متنوعة الثقافة واللغة والعادات والتقاليد .

كذلك استخدم "ابن النبيه" فى أسلوبه بعض الألفاظ الفقهية والدينية التى استمدها من علوم الشريعة الإسلامية وبما يثبت ثقافته الإسلامية الواعية وإطلاعه على علوم الدين الإسلامى ومن هذا القبيل ماورد فى قوله :[٥]

---

(١) ص٢٢٨ ديوان ابن النبيه .

(٢) ص٢٤١ - ٢٤٢ ديوان ابن النبيه .

(٣) يقال : زرفن صدغيه : جعلهما كالزرفين وهو حلقة الباب . والزرفين . بالضم والكسر والصواب بالكسر .

(٤) ص١٩٧ اتجاهات الغزل فى القرن الثانى الهجرى . د / يوسف بكار . طبع : دار المعارف بمصر .

(٥) ص٢٠٧ ديوان ابن النبيه .

لـو لـم تُفيِّض للجـود راحتـه لـم نعتـرف فرضـه ولا سُنَنَـه

فلفظى : "الفرض والسنة" من الألفاظ الفقهية الإسلامية المشهورة . ومنه ماجاء في قوله : (١)

إذا ماجنتْ جفناه قاصصتُ خدّه فـلا بُرْءُ لـي إلا بلثـم برئـه

فلفظ "القصاص" من ألفاظ الفقه المعروفة .

ومن هذا القبيل ماورد فى قوله : (٢)

غصـنٌ ترنّـح رد فـي خصـره فعجبـت للمعـدوم فى الموجود

فلفظى : "المعدوم والموجود" من ألفاظ "علم التوحيد" المشهورة.

كذلك استخدم الشاعر بعض الألفاظ "العلمية" التى استمدها من العلوم الحديثة فى أسلوبه والتى استمدها من علوم : الطب والهندسة والكيمياء والفلسفة والمنطق وغيرها من العلوم والمعارف الحديثة مما يدل على ثقافة الشاعر لهذه العلوم أو على الأقل إطلاعه عليها، ومن ذلك ماورد فى قوله : (٣)

صحّت له كيمياء الحمد إذ سبكت يمنـاه للبـذل أكسيـراً من الذهب

فلفظى : كيمياء "وسبكت" من الألفاظ العلمية الحديثة .

ومن هذا القبيل أيضاً ماجاء فى قوله (٤) :

تعلمـت علـم الكيميـاء بحبـه غزال بجسمي مابجفنيه من سُقْم

فصعّدت أنفاسي وقطّرت أدمعي فصحّ بذا التدبير تصغيرة الجسم

فألفاظ : "الكيمياء وصعدت وقطرت" ألفاظ علمية .

ومن هذا القبيل ماجاء فى قوله : (٥)

---

(١) ص٢٢٣ ديوان ابن النبيه .
(٢) ص٤٤١ ديوان ابن النبيه .
(٣) ص٢٣٨ ديوان ابن النبيه .
(٤) ص٣٩٠ ديوان ابن النبيه .
(٥) ص٤٣٨ ديوان ابن النبيه .

مغنطيس الخال على خدِّه　　يجذبُ بالحسن حديد العيون

وماورد في قوله : (١)

وبى هندسيُّ الشكل يَسْبيك لحظُهُ　　وخالٌ وخدٌ بالعذار مُطرزُ

ومُذ خطَّ بيكارُ الجمال بخدِّه　　عذاراً علمنا أنما الخالُ مركزُ

كذلك عرف أسلوب "ابن النبيه" الوحدة العضوية[٢] للقصيدة، وإن جاء معظم شعره خالياً منها لأن شعره غنائى والشعر الغنائى لايخضع لهذه الوحدة ولاللمنطق والترتيب والتسلسل لأنه دفقات شعورية ودفعات وجدانيه لاتخضع لذلك وإنما الذى يخضع له القصة والمسرحية كما هو معروف .

كما يزخر شعر ابن النبيه بثروة لغوية طائلة ومحصول وافر من كلمات الشعراء السابقين وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على ثقافة الشاعر اللغوية الواسعة وإطلاعه على أشعار العرب القدماء فى مختلف العصور الأدبية[٢] .

---

(١) ص٤٧٢ ديوان ابن النبيه .

(٢) أنظر ديوانه : ص١٠٥ ، ص٢١٩ ، ص٢٨٣ على سبيل المثال لا الحصر .

الفصل الثانى

٣ - المعانى .
٤ - الخيال والتصوير .
٥ - الأوزان والقوافى .

المعانى :

أما من جهة المعانى فقد كانت مزيجاً من معانٍ استمدها الشاعر من معانى الشعراء السابقين حيث وضع الشاعر معانى الشعراء الأقدمين نصب عينيه وتأثر بها تأثراً كبيراً فى شعره على اختلاف أغراضه وفنونه، ففى مدائحه نراه يمدح الممدوح بكثير من المعانى التى عرفت من قبل فى شعر المديح العربى؛ فالممدوح كريم جواد معطاء بلغ المدى فى جوده وكرمه وهو شجاع قوى كالأسد فى عرينه وهو سمح طلق يعفو ويصفح .. الخ وفى غزله يتحدث عن شدة الوجد والصبابة والشوق والغرام وإخلاف المواعيد وإنجازها وائتلاف المحبين وقصّ الذكريات الماضية ووصف جمال المحبوبة والتعرض لمفاتنها الجسدية وتصوير خلالها المعنوية إلى غير ذلك مما هو معروف فى شعر الغزل، وفى وصف الطبيعة يتعرض لمفاتنها ويظهر جمالها وماتحدثه على نفسه من متعة وجمال،وفى وصف الخمر يتعرض لوصفها ويدعو لشربها ويصفها معتقة وفى الدن وفى الكأس وبعد مزجها بالماء وتصوير ماتحدثه على النفس وغير ذلك مما هو معروف فى وصف الخمر،وفى رثائه يصف المصيبة وصفاً ممتزجاً بالأسى والحزن ويتعرض لخلال المرثى قبل وفاته وأثر وفاته عليه وعلى أهله بعد مماته وغير ذلك مما هو معروف فى شعر الرثاء فى الأدب العربى . وهكذا فى بقية أغراضه الشعرية وقد مرت الأمثلة الكثيرة التى تؤيد ذلك عند الحديث عن هذه الأغراض .

وذلك فى حد ذاته ليس عيباً فالتابع يتأثر بالسابق ، ولاغنى للشاعر عن اتباع من سبقه من الشعراء ولايعد ذلك سرقه فالمعانى يستدعى بعضها بعضاً كما قال الدكتور محمد مندور .(١)

---

(١) ص١٨٢ النقد المنهجى عند العرب . للدكتور : محمد مندور . طبع : دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة .

ومزيجاً من معانٍ أخذها مما هو موجود أمامه فى حياته أو جادت بها قريحته من خياله ولم يتكىء فيها على من سبقه من الشعراء، وللشاعر كثير من المعانى الجميلة المبتكرة التى استمدها من واقعه وحياته وجادت بها قريحته، ومن هذا القبيل ماورد فى قوله يمدح الملك الأشرف : (١)

هو البحر بل أستغفر الله إنّ فى بنــان يديــه للنـدى أبحراً عشــراً
إذا قــام يسميه الخطيــب بمنبــر تأوّد تيهـــا واكتســى ورقاً خُضْرا

حيث جعل الشاعر فى يدى الممدوح عشرة أبحر وجعل كل أصبع من أصابعه بحراً بمفرده . وهذا المعنى طريف جديد .

ومن معانيه الجميلة الرائعة ماورد فى قوله يتغزل : (٢)

صنعةُ الكيمياء صحّت لعينى حيــن تزداد إذْ ترانى احمــرارا
فــإذا ماألقيــتُ أكسير لحظى فــى لجين الخدود صار نُضارا

ومن معانيه الجميلة الرائعة المبتكرة ماجاء فى قوله يتغزل: (٣)

كأنمــا هى من لين ومـن ترف ماءٌ تجسَّـد للأبصـــار كالصنـم
إيّــاك يــادُرُّ عــن لألاء لبَّتهــا وارجع إلى اليّم والأصداف والظلم
ولاتقلْ إننى من جنس مبسمها فأنــت توجـد بالأدنـى من القيم

"فابن النبيه المصرى" جمع فى معانيه بين القديم الموروث الذى استمده من التراث الشعرى القديم وبين الجديد الذى أخذه من حياته وواقع عصره وماجاء به خياله وجادت به قريحته إلا أن المعانى القديمة الموروثة تسيطر على شعر الشاعر سيطرة كبيرة وإن بدلها أو حوّرها حتى جعلها وكأنها جديدة فى الظاهر وإن كانت قديمة فى المنشأ والروح .

---

(١) ص٢٩٢ ديوان ابن النبيه .
(٢) ص٤١٣ ديوان ابن النبيه .
(٣) ص٤٥٠ ديوان ابن النبيه .

كذلك كانت الحالة الاجتماعية والحالة السياسية للدولة الأيوبية منبعاً خصباً من منابع المعانى لشعر "ابن النبيه" خاصة الحروب الصليبية وآثارها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فقد أوحت إلى الشاعر بكم وافر من المعانى فى وصف الحروب وتصوير المعارك والحصون والقلاع واستنهاض الهمم ومدح الخلفاء وتشجيعهم لقتال الصليبيين وتصوير المآسى وغير ذلك مما نجده فى مدائح الشاعر للملوك الأيوبيين ومن خلفهما فى الملك خاصة مدائح الملك الأشرف التى تعد وبحق ملحمة من ملاحم الكفاح والجهاد ضد الصليبيين .

كذلك استمد الشاعر معانيه من القرآن الكريم حيث غلب على شعره ظاهرة "الاقتباس" من القرآن الكريم وجاء ذلك على صور متعددة حيث نراه يضمن شعره بالآية القرآنية مباشرة دون تصرف وأحياناً بتصرف وأحياناً أخرى بالإشارة إلى الآية أو قصة من القصص القرآنى .

وإذا كان تضمين الشعر بالقرآن الكريم موجوداً من قبل ذلك فى الشعر العربى منذ العصر الإسلامى وحتى العصر الأيوبى إلا أنه لم يكن بنفس الكثرة والشيوع التى كانت عليه فى شعر الشاعر وفى عصره بوجه عام، وقد مرت الأمثلة التى توضح هذه الظاهرة فى شعر "ابن النبيه" عند الحديث عنها فى موضعها سابقاً .

كما استمد الشاعر بعض معانيه من المعارف والعلوم الدينية والعربية والتاريخ الإسلامى والثقافة الإسلامية بوجه عام[١] فضلاً عن العلوم الحديثة : من طب وهندسة وكيمياء وفلسفة وغيرها من العلوم الحديثة التى كانت موجودة فى عصر الشاعر .[٢]

(١) ينظر ديوانه : ص٢٠٧ ، ص٢١٨ ، ص٢٦٦ على سبيل المثال لاالحصر .
(٢) ينظر ديوانه : ص٢٣٨ ، ص٣٩٠ ، ص٤٠٨ على سبيل المثال لاالحصر .

كما استمد الشاعر بعض معانيه من العقائد الشيعية، وكان "ابن النبيه" أجرأ شعراء العصر الأيوبى قاطبة فى الأخذ من عقائد الشيعة وأشدهم مبالغة فيها وكانت نبعاً مهماً من منابع معانيه وأفكاره بل وألفاظه خاصة فى مدائحه وفى مديح الخليفة العباسى بوجه أخص، وقد مرت الأمثلة التى توضح ذلك عند الحديث فى شعر المدح، والأمثلة فى ديوانه كثيرة وتفيض بها أشعاره[1] .

هذا وقد جاءت معانى الشاعر واضحة بعيدة عن الغموض والخفاء والتعقيد والالتباس اللهم إلا مايتصل بالمعانى التى استمدها من العقائد الشيعية حيث يحيطها الغموض والخفاء ولاتظهر إلا لمن عرف هذه العقائد واطلع على أسرارها وخفاياها، وقد كان الشاعر فناناً ماهراً فى توزيع معانيه على أغراضه، فمعانيه فى المديح والرثاء جاءت قوية ومعانيه فى الغزل والوصف والشكوى والاستعطاف جاءت رقيقة ومعانيه فى الحكمة مستمدة من التجارب والوقائع وهكذا .

وقد احتفل الشاعر احتفالاً عظيماً بمعانيه واجتهد فى ترتيبها وتنسيقها وتزيينها بكل وسائل الزينة التى عرفها ثم اتجه نحو توليدها وأتى بالدقائق منها واستقصاها وضخمها بكل مايملك من طاقة الفكر والصفاء والثقافة .

ومن أبرز مايميز معانيه شيوع ظاهرة : المبالغة والغلو والإغراق وقد استحسن بعض النقاد الغلو والإغراق فى الشعر مثل "أبى الفرج قدامة بن جعفر" حيث يقول : "إن الغلو عندى أجود

---

(١) ينظر على سبيل المثال : ديوانه : ص٨٣ - ٨٦ ، ص٩٦ ، ص١٠٢ - ١٠٣ ، ص١٠٩ ، ص١١٨ ، ص١٤٤ ، ص١٧٦ ، ص٢١٩ ، ص٢٣٩ ، ص٢٤٥ ، ص٢٥٣ ، ٤٥٦ ، ص٤٥٨ .

المذهبين وهو ماذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً[١] .

وقد ظهر الغلو فى شعر "ابن النبيه" على اختلاف أغراضه خاصة فى مدائحه حيث انتشر فيها الغلو انتشاراً واضحاً وأصبح من أهم سمات شعره فى المدح وشعره كله بوجه عام، وقد جاء غلو الشاعر فى شعره إما عن طريق استخدام العقائد الشيعية المتغالية فى معانيها وأفكارها[٢] وإما أن يكون الشاعر قد جاء به من مخيلته هو والأمثلة على هذا كثيرة ويزخر بها ديوان الشاعر، ومن هذا القبيل قوله فى مدح الخليفة العباسى "الناصر لدين الله": [٣]

كل الكلام قصير عن مناقبه ... إلا إذا نظم القرآن شاعرُهُ

ومن الغلو الممقوت قوله فى الخليفة العباسى : [٤]

لولا التقية كنت أول معشر ... غالوا فقالوا أنت رب تعبد

وقوله فيه : [٥]

له على سرِّ الغيب مشترف ... فما موارده إلا مصادره

وقد كرر الشاعر ذلك فى كثير من مدائحه سامحه الله تعالى[٦] ، فضلاً عن كثير من الأمثلة التى زخر بها شعر الشاعر[٧] وقد مر كثير من الأمثلة التى تدل على المبالغة المقبولة فى مدائحه وفى مختلف أغراضه الشعرية التى تحدثنا عنها من قبل ذلك فى مواضعها .

---

(١) ص٦٢ نقد الشعر . تحقيق : كمال مصطفى . الطبعة الثالثة . مكتبة الخانجى بالقاهرة .
(٢) تراجع قصائده فى مدح الخليفة العباسى والملك العادل والملك الأشرف .
(٣) ص٩٦ ديوان ابن النبيه المصرى .
(٤) ص٨٦ ديوان الشاعر .
(٥) ص٩٥ ديوانه .
(٦) ينظر ديوانه : ص١٢٩ ، ص٢١٧ ، ص٢٣٢ .
(٧) ينظر ديوانه : ص٢٥٢ ، ص٢٥٣ ، ص٣٠٥ ، ص٤٠٦ ، ص٤٥١ ، ص٤٦١ .

الخيال والتصوير :

ذهب الباحثون والدارسون فى تعريف الخيال مذاهب شتى متباينة، فقد عرفه البعض : بأنه "إبراز الأفكار وتوضيحها فى قوالب من المجاز المشتمل على التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل وغيرها" وذلك كالآمدى والجرجانى وابن رشيق وغيرهم. وعرفه البعض بأنه : "تجسيم الحقائق وتكبيرها بقصد التوضيح والتزيين وإضافة بعض الأصباغ إلى الصورة الأم لتقوية المعنى وإيقاظ المشاعر وتنبيهها ولفت انتباهها[١] " ، أو أنه : "الصورة التى يرى فيها الشاعر معانيه بخياله بعد تأثره بها أو الترجمة العاطفية للحقائق العقلية التى يتكون منها الموضوع"[٢] .

"والكلام المشتمل على الخيال أكثر روعة وأحسن موقعاً فى القلوب والأسماع"[٣] إذا حقق فائدته وهدفه، والخيال الجيد ليس هو الذى يشطح ويشط ويأتى بالأوهام والمحالات إنما هو الذى يجمع طائفة من الحقائق : حقائق الوجدان وانفعالاته ويربط بين أشتاتها ربطاً محكماً لاينكره الحس ولاالعقل"[٤] .

والخيال فى معظم صوره يقوم فى الأدب العربى على كاهل بعض ألوان البلاغة كالتشبيه والاستعارة والكناية - إن لم يكن كلها - حتى ماعرف باسم "المشاكلة" فإنها تقوم على الاستعارة إن لم تكن هى نفسها .

أما الصورة "فهى عبارة عن العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى فى نص أدبى والحصيلة الناجمة عن اقترانهما فليست هى اللفظ

---

(١) ص١٤٣ اتجاهات الغزل فى القرن الثانى الهجرى . د / يوسف بكار .
(٢) ص٣٠٨ الأدب العربى بين البادية والحضار . للدكتور : إبراهيم عوضين .
(٣) ص١٧٨ جـ١ العمدة لابن رشيق .
(٤) ص١٧٣ - ١٧٥ فى النقد الأدبى . للدكتور : شوقى ضيف .

بمفرده ولاالمعنى بمفرده ولكنها الخصائص المشتركة بينهما والتى تتقوم بها شخصية النص الأدبى"[١] سواء كانت ناجمة عن كلام مشتمل على التشبيه أو الاستعارة أو الكناية أو المجاز أم لا.

وقد احتل التشبيه والاستعارة والكناية الجانب الأكبر فى تشكيل الصورة وتوضيح مفهومها عند "ابن النبيه المصرى" وتكاتف التشبيه مع الاستعارة لتطبع الصورة الفنية بطابع خلاق مبتكر فى شعر الشاعر مما أتاح له أن يحرك الساكن ويبعث الحيوية فى مشاهده وصوره، وقد أعانه على ذلك مشاعر مرهفة وإحساس عميق بخفايا الأشياء .

وقد جاءت صور الشاعر وخيالاته على صور متعددة فأحياناً تأتى قصيرة لايطول نفس الشاعر فيها وأحياناً نجد صوراً طويلة فيها التفصيل والتدقيق، ونراه أحياناً يستمد خياله مما خلفه الشعراء السابقون فينحو نحوهم مع إلباسه ثوباً جديداً وأحياناً يقتبسه كما هو بلفظه ونسجه وأحياناً يميل إلى التجديد والابتكار فيستعين بخياله على الإتيان بصورة مفردة أو مركبة يوضح بها فكرته وإن كان ذلك قليلاً، وأحياناً يستمد خياله من ثقافته الدينية واللغوية والعلمية وأحياناً يتخذ من المبالغة والغلو دعامة لخياله .

ونرى في خيالاته وصوره : الصورة المعنوية والمحسة سواء كانت بصرية أو لونية أو صوتية مفردة أم مركبة رائعة أم مبتذلة، قريبة أو بعيدة إلى غير ذلك .

---

(١) ص٥١ أبو نواس وقضية الحداثة فى الشعر . د/ العربى حسن درويش الهيئة العامة للكتاب . طبع عام ١٩٨٧ م .

والأمثلة على ذلك كله كثيرة ويزخر بها ديوان الشاعر، ومن تشبيهاته الرائعة قوله :[1]

والموت نقاد على كفه ... جواهر يَخْتار منها الجيادْ
والمرء كالظل ولابد أن ... يزول ذاك الظلّ بعد امتداد

حيث يشبه الشاعر الموت بالنقاد الذى يمسك بالجواهر بين يديه ويختار منها أجودها - وهو تشبيه مبتكر جميل - ولايخفى مافى البيت من استعارة مكنية واضحة، وفى البيت الثانى : تشبيه جميل حيث يشبه الشاعر "المرء" بالظل، أى أن الإنسان يشبه الظل فى الانتهاء بعد الامتداد، فكما أن الظل ينمو شيئاً فشيئاً ثم ينتهى بعد ذلك فكذلك الإنسان .

ومن تشبيهاته القديمة الموروثة التى تفنن فيها قوله :[2]

لها طلعة من شعرها وجبينها ... تعانق فيها ليلها ونهارها

حيث يشبه شعر المحبوبة بالليل وجبينها بالنهار وهما تشبيهان قديمان إلا أن الشاعر ألبسهما ثياباً جديدة .

ومن تشبيهاته الموروثة قوله يشبه المحبوبة بالبدر وبالخمر :[3]

هى البدر إلا أن عندى محاقه ... هى الخمر إلا أنّ حظى خمارها

ومن تشبيهاته الجميلة قوله :[4]

ينادونه باختلاف اللغات ... كتلبية الحج من كل جانب

ويعد التشبيه على اختلاف أنواعه وصوره أبرز ألوان الخيال التى اعتمد عليها "ابن النبيه" فى صوره وأكثر منه فى شعره كثرة

(١) ص١٠٥ ديوان ابن النبيه .
(٢) ص١١١ ديوان الشاعر .
(٣) ص١١٣ ديوان الشاعر .
(٤) ص١٩٣ ديوان الشاعر .

هائلة بحيث لاتخلو قصيدة من قصائده من جملة تشبيهات متعددة إلا أنها فى معظمها تشبيهات تقليدية وإن كساها الشاعر بثياب جديدة .

وتحتل الاستعارة المرتبة الثانية بعد "التشبيه" حيث اعتمد عليها "ابن النبيه" اعتماداً كبيراً فى تصوير صوره وحوت أشعاره الاستعارة بجميع أنواعها المعروفة فى علم البيان ولاتخلو قصيدة من قصائده من جملة استعارات جميلة رائعة تثير الحركة وتبث الحياة فى أبياته[١] ، كذلك عرف شعر الشاعر الكناية وإن لم تحتل مرتبة مساوية لكل من التشبيه أو الاستعارة حيث تأتى فى المرتبة الثالثة بعدهما[٢] .

هذا فضلاً عن كثير من الصور التى جاءت بها مخيلة الشاعر ولم يعتمد فيها على أى من ألوان الخيال المعروفة ويتجلى ذلك بوضوح فى أشعاره التى يصف فيها المعارك والحروب أو يصّف فيها الخمر والطبيعة .

وعاطفة الشاعر فى أشعاره جاءت على صورتين، فأحياناً نراه يعنى بشعره ويفكر فيه بعقله ويتعمق ويتدقق فى معانيه وأفكاره وعباراته بعناية فائقة ويصدر أشعاره عن عقله لاعن عاطفته فيطغى العنصر العقلى على عاطفة الشاعر ويتجلى ذلك فى مدائحه، وأحياناً نراه ينتقل بالمعنى فيولده معبراً به عن شعوره وإحساسه وعاطفته فتطغى عاطفته على عقله ويتجلى ذلك فى غزله ووصفه وبقية أغراضه الأخرى، ومع ذلك فشعر "ابن النبيه" من قبيل الشعر الغنائى حيث تنعكس فيه نفس الشاعر وتتضح فيه مشاعره وانفعالاته الذاتية .

---

(١) ينظر على سبيل المثال ديوانه : ص١٥٦ ، ص٤٩٧ .

(٢) ينظر ديوانه : ص١٠٥ ، ص١٠٦ ، ص١٤٥ ، ص٣٣٥ ، ص٣٧٠ على سبيل المثال .

وقد تجلت العاطفة بأنواعها المختلفة فى شعر "ابن النبيه" فنجد عاطفة الإعجاب والاعتزاز بالممدوح كقائد مسلم يدافع عن دين الله ضد الصليبين، ونرى عاطفة القومية الإسلامية التى لاتفرق بين العرب والعجم فهما أبناء دين واحد ويدافعون عن دين واحد، ونرى عاطفة الحب والإثارة فى غزله وعاطفة الإعجاب فى وصفه وعاطفة الحزن فى رثائه وعاطفة الرهبة فى وصفه للمعارك وتصوير مايدور فيها إلى غير ذلك، حيث جاءت انفعالات الشاعر مختلفة طبقاً لاختلاف الغرض والموضوع الشعرى الذى يتحدث عنه .

الأوزان والقوافى :

يعد الوزن والقافية من أهم عناصر الشعر العربى وأركانه فلاشعر دون وزن وقافية ومنذ أن وجد الشعر العربى وجد معه الوزن والقافية، "فالوزن ركن من أركان الشعر ودعامة من دعائمه الموسيقية[١] ، بل هو أعظم أركان حد الشعر وأولاها به خصوصية وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة إلا أن تختلف القوافى فيكون ذلك عيباً فى التقفية لا فى الوزن[٢] ، والقافية "هى قرار المعنى وهى الصوت الطبيعى الذى ينزل من الشعر منزلة الإشارة التى تصحب كلام المتكلم[٣] ، وهى شريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر ولايسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية[٤] ، والعرب يشترطون فى شعرهم الوزن والقافية وإلا فهو ليس من قبيل الشعر عندهم[٥] ، فالوزن والقافية من أهم خصائص الشعر العربى وسماته فلا شعر دون وزن وقافية .

والوزن الشعرى يجعل للقصيدة نغماً موسيقياً متناسقاً جميلاً يعمل على تثبيت المعنى حيث تسير القصيدة على نظام موسيقى واحد محكم فى التفاعيل والحركات والسكنات مما يجعل القصيدة تسير على نغمة موسيقية واحدة فتجعل السامع متحد الانفعالات وتبعده كل البعد عن الاختلال فى انفعالاته فضلاً عن هذه النغمة المنبعثة من الوزن والقافية فتزيد المعنى الشعرى تأثيراً فى النفوس .

وقد نظم "ابن النبيه المصرى" شعره على معظم بحور الشعر العربى التى عرفها الخليل بن أحمد الفراهيدى، فقد نظم على بحور:

---

(١) ص٣٥٧ إتجاهات الغزل فى القرن الثانى الهجرى، د / يوسف بكار .
(٢) ص١٣٤ جـ١ العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده . لابن رشيق ،
(٣) ص٢٦ جـ٣ تاريخ آداب العرب للرافعى - الطبعة الثانية
(٤) ص١٥١ جـ١ العمدة لابن رشيق -
(٥) ص٢٣ جـ٣ التمدن الإسلامى . جورجى زيدان .

الكامل والطويل والبسيط والسريع والمنسرح والخفيف والرجز والوافر والرمل والهزج والمتقارب إلا أن البحور السبعة المتقدمة كانت أكثرها شيوعاً فى شعره .

وكان الشاعر يؤثر الأوزان الطويلة فى الأغراض الشعرية القوية الجادة : مثل المدح والرثاء والتهنئة والشكوى وغيرها ويؤثر الأوزان الخفيفة والمجزوءة فى غزله ووصفه .

ولكن ذلك لايعنى أنه أوقف أوزانه الطويلة على الأغراض الجادة القوية وأوقف الأوزان الخفيفة والمجزوءة على الأغراض الأخرى ولكن كان ذلك الأعم الأغلب فى شعره، ومع ذلك نجد له مدحاً على بحر خفيف أو مجزوء[١] وغزلاً على بحر طويل[٢] .

فابن النبيه المصرى التزم الوزن العروضى فى معظم أشعاره وجاءت أشعاره فى مختلف أغراضه الشعرية على بحور الشعر العربى التى عرفها الشعراء السابقون منذ العصر الجاهلى، ومع ذلك وجد فى شعره الموشحة[٣] والدوبيت[٤] والزجل[٥] إلا أن ذلك كان قليلاً فى شعره .

أما من جهة القافية فقد نظم "ابن النبيه المصرى" شعره ملتزماً القافية الواحدة للقصيدة إلا قليلاً حيث وردت له بعض القصائد التى نوع فيها القافية إلا أنها كانت قليلة جداً فى شعره[٦] .

---

(١) ينظر ديوانه ص٢٤١ .
(٢) ينظر ديوانه . ص٣٩٠ ، ص٤٢٥ ، ص٤٦٩ .
(٣) ينظر ديوانه ص٣١١ .
(٤) ينظر ديوانه ص٣٠٢ ، ص٣٠٣ .
(٥) ينظر ديوانه ص٣١٤ .
(٦) ينظر ديوانه ص٣١٤ .

وقد نظم الشاعر على معظم حروف الهجاء العربية فقد نظم على حروف : الهمزة والباء والتاء والحاء والدال والراء والزاى والسين والعين والفاء و،القاف واللام والميم والنون والهاء والياء، ولم ينظم على حروف : الخاء والذال والصاد والضاض والظاء والغين والشين لنفور الطباع منها وقبحها فى القافية .

وهكذا نجد "ابن النبيه المصرى" يلتزم الأوزان والقوافى فى شعره إلا فيما قل أو ندر فى بعض النماذج الشعرية .

«الخاتمـــة»

وبعـد : فقد تناولت هذا البحث بالدراسة وأستطيع أن أزعم أن هذه الدراسة أول دراسة متخصصة مستقلة تتناول ابن النبيه المصرى وشعره، وقد اشتمل البحث على مقدمة وثلاثة أبواب .

تحدثت فى المقدمة عن : أهمية الموضوع وسبب بحثه والمنهج الذى التزمته .

والباب الأول: جعلته فصلين : خصصت **الأول** منهما: لدراسة عصر الشاعر من النواحى : السياسية والاجتماعية والثقافية وأثر ذلك على الشعر الأيوبى وشعر ابن النبيه بوجه خاص .

ثم خصصت **الفصل الثانى** : لدراسة حياة الشاعر ونشأته وثقافته، فقد ذكرت : نسبه ومولده وأخلاقه ونشأته وعمله وثقافته وأنواعها والعوامل المؤثرة فيها كما أوضحت مدى تأثر الشاعر بالشعر العربى القديم خاصة الشعر العباسى والشعر الفاطمى وبينت أن الشاعر كان شاعراً عملاقاً ذا موهبة فنية وعبقرية فذة استطاع بمقدرته أن يضع نفسه فى الصف الأول من كبار شعراء العصر الأيوبى مبرزاً ذلك مستدلاً له بالنماذج من شعره .

والباب الثانى : جعلته أربعة فصول وخصصته لشعر الشاعر، وخصصت **الفصل الأول** : لشعر المدح، حيث يحتل المدح المرتبة الأولى من حيث الكم فى شعر النبيه، وقد وضحت العلة فى ذلك ثم قسمت مدائحه إلى تقسيمات عدة تبعاً للمدوحين، فبدأت بالحديث عن مدائحه فى الخليفة العباسى "الناصر لدين الله" حيث تتميز هذه المدائح بسمة ظاهرة تختلف عن بقية مدائحه وهى شيوع العقائد الشيعية شيوعاً واضحاً فيها وإن ظهرت هذه العقائد فى مدائحه الأخرى إلا أنها كانت قليلة، ثم وضحت العلة فى ذلك،

وقد تعرضت لمدائح الشاعر فى الخليفة بالشرح والنقد والتحليل مبرزاً مظاهر التقليد والتجديد فيها، ثم تعرضت لمدائحه فى الملك "العادل" وسجلتها متعرضاً لها بالشرح والتحليل مبرزاً أهم سماتها وموضحاً مظاهر القديم والجديد فيها . ثم تحدثت بعد ذلك عن مدائحه فى الملك "الأشرف" "الأشرفيات" حيث كان "الأشرف" أكثر الممدوحين مدحاً من قبل ابن النبيه وبلغت مدائحه نحو ثمان وسبعين قصيدة، وقد وضحت علة ذلك، ثم تعرضت لكثير من مدائحه فيه بالشرح والنقد والتحليل مبرزاً أهم سماتها وخصائصها الفنية وخلصت إلى أن هذه المدائح تعد فى الذروة من مدائحه وتعد من روائع المدائح فى الشعر العربى . ثم تحدثت بعد ذلك عن مدائحه فى آخرين حيث مدح الشاعر : "القاضى الفاضل" "والأسعد بن مماتى" والصاحب بن شكر "وحسام الدين على" وغيرهم من الممدوحين، ثم اختمت الحديث عن مدائحه بتسجيل الخصائص الفنية لشعر المدح عند ابن النبيه .

والفصل الثانى : للغزل عند الشاعر ، وأوضحت أنه لم نظم الشعر فى أنواع الغزل التى عرفت فى الشعر العربى وتنوع الغزل عنده إلى غزل تقليدى وغزل رقيق وغزل بالمذكر وبينت أن الغزل بالمذكر كان أكثر أنواع الغزل شيوعاً فى غزله ووضحت العلة فى ذلك، وقد ذكرت كثيراً من شعره الغزلى فى جميع أنواعه متعرضاً لها بالشرح والنقد والتحليل مبرزاً مظاهر التقليد والتجديد فيها ثم تحدثت عن الخصائص الفنية لشعره الغزلى .

والفصل الثالث : خصصته لشعر الطبيعة والخمر، وأوضحت أن الشاعر كان وصافاً ماهراً لكل من الطبيعة والخمر وقد عرف شعره الطبيعة بمظهريها : الحى والصامت ، ووصف الخمر فى مراحلها المتعددة وبرع فى كل ذلك براعة عظيمة ثم وضحت

الخصائص الفنية لشعر الطبيعة والخمر مبرزاً جوانب التقليد والتجديد فيها مستخدماً النماذج الشعرية متعرضاً لها بالشرح والنقد والتحليل .

والفصل الرابع : جعلته لبقية أغراضه الشعرية الأخرى التى لم تنل منه اهتماماً كبيراً كاهتمامه بالمدح والغزل والوصف، فتحدثت عن أنه عرف الرثاء وبرع فيه مع أنه لم ينظم فيه إلا قصيدتين فقط كما عرف شعر التهانى والشكوى والعتاب والاعتذار والحكمة إلا أنها كانت قليلة ولم تجىء مستقلة فى شعره إلا نادراً، كل ذلك وضحته بالأمثلة الشعرية متعرضاً لها بالشرح والنقد والتحليل .

والباب الثالث : جعلته للخصائص الفنية لشعره، وقسمته إلى فصلين : خصصت **الفصل الأول**: للحديث عن بناء القصيدة، واللفظ والأسلوب . ففى بناء القصيدة نرى الشاعر قد نوع فيها وسار على أكثر من نهج، فأحياناً نراه ينهج نهج القدماء من التقديم لقصيدته بمقدمة غزلية وأحياناً يقدم لها بمقدمة طبيعية أو خمرية أو بالحكمة وأحياناً يمهد لها بمقدمة متعددة الموضوعات وأحياناً يقصر القصيدة على غرضها الأصلى دون تقديم، ونراه ينظم شعره على شكل : القصيدة والمقطوعة وينظم الموشحة والدوبيت والزجل .

وفى ألفاظه وأساليبه كان الشاعر فناناً بارعاً حيث استخدمها وطوعها لموضوعه الشعرى وجاءت الألفاظ والأساليب ملائمة للغرض الشعرى، وقد ظهر فى أسلوبه شيوع ألوان البديع المختلفة وشيوع ظاهرة "الاقتباس" من القرآن الكريم بشكل يلفت النظر فضلاً عن وجود بعض الألفاظ المعجمية والأعجمية والفقهية والعلمية فى شعره وفضلاً عن وجود الوحدة العضوية وإن جاءت معظم أشعاره خاليه منها .

والفصل الثانى : خصصته للحديث عن المعانى والخيال والتصوير والأوزان والقوافى .

وقد وضحت أن معانيه كانت مزيجاً من معانى القدماء ومن معان أخذها من واقع عصره وحياته ومن مخيلته وأن الشاعر قد جمع فى معانيه بين القديم الموروث وبين الجديد الذى أخذه من حياته وواقع عصره وماجاء به خياله، وكانت الحياة السياسية والإجتماعية فى عصر الشاعر – خاصة الحروب الصليبية – منبعاً خصباً لمعانيه فضلاً عن مصادر أخرى متعددة : كالقرآن الكريم والثقافة الإسلامية والعلمية والتاريخ الإسلامى وكانت العقائد الشيعية من أهم المصادر التى استمد منها الشاعر معانيه فضلاً عن المصادر السابقة، وقد جاءت معانيه واضحة لالبس فيها ولاغموض اللهم إلا بعض معانيه التى استمدها من عقائد الشيعة، ومن أهم سمات معانيه شيوع المبالغة والغلو . كل ذلك وضحته بالأمثلة والنماذج من شعره .

ومن حيث الخيال والتصوير : فقد لعب الخيال دوراً بارزاً فى شعر ابن النبيه على اختلاف أغراضه وفنونه وقد اعتمد الشاعر اعتماداً كبيراً على ألوان : التشبيه والاستعارة والكناية فى تصوير صوره . ثم تحدثت عن عاطفة الشاعر حيث تجلت العاطفة بأنواعها المتعددة فى شعره .

ومن حيث الأوزان والقوافى : فقد نظم الشاعر على بحور الشعر العربى المعروفة فضلاً عن الموشحة والدوبيت والزجل ونظم على معظم حروف الهجاء العربية إلا الحوش منها، وأنه التزم القافية الواحدة إلا فيما ندر من شعره .

وأخيراً أرجو الله التوفيق والسداد والله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير .

دكتــور

عبد الهادى عبد النبى على أبو على

«مراجع البحث ومصادره»

١ - القرآن الكريم .
٢ - ابن سناء الملك "حياته وشعره" تحقيق : محمد إبراهيم نصر . مراجعة د / حسين نصار طبع : وزارة الثقافة . عام ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧ بالقاهرة .
٣ - أبو نواس وقضية الحداثة فى الشعر . د / العربى حسن درويش، طبع : الهيئة العامة للكتاب . عام ١٩٨٧ م .
٤ - اتجاهات الغزل فى القرن الثانى الهجرى . د / يوسف حسين بكار . طبع : دار المعارف بمصر .
٥ - الأدب العربى بين البادية والحضر . د / إبراهيم إسماعيل عوضين .
٦ - الأدب فى العصر الأيوبى . د / محمد زغلول سلام . دار المعارف بمصر طبع عام ١٩٨٠ م .
٧ - أعلام الأدب والفن تأليف : أدهم آل جندى . دمشق . مطبعة: الاتحاد عام ١٩٥٨ م .
٨ - الأعلام . تأليف : خير الدين الزركلى، الجزء الخامس ، الطبعة الثالثة .
٩ - بدائع الزهور فى وقائع الدهور . لابن إياس . طبع : مطابع الشعب عام ١٩٦٠ م .
١٠ - تاريخ الأدب العربى . كارل بروكلمان . ترجمة : د / رمضان عبد التواب طبع : دار المعارف . الطبعة الثالثة .
١١ - تاريخ آداب العرب ، للرافعى ، الجزء : الثالث . الطبعة : الثانية .
١٢ - التمدن الإسلامى . لجورجى زيدان . الجزء الثالث .
١٣ - حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة . للحافظ جلال الدين السيوطى الجزء الأول .

١٤ - دائرة المعارف، إدارة : فؤاد أفرام البستانى . الجزء الرابع. بيروت عام ١٩٨٢ م .
١٥ - دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين . د / محمد كامل حسن ، طبع : دار الفكر العربى .
١٦ - دلائل الإعجاز . عبد القاهر الجرجانى . تحقيق : د / محمد عبد المنعم خفاجى .
١٧ - ديوان ابن سناء الملك .
١٨ - ديوان ابن الساعاتى . الجزء الأول . طبعة : دمشق .
١٩ - ديوان ابن مطروح . الجزء الأول . طبع : الجوائب . عام ١٢٩٨ هـ .
٢٠ - ديوان ابن النبيه المصرى . تحقيق : عمر محمد الأسعد . طبع : دار الفكر ، الطبعة الأولى . دمشق عام ١٩٦٩ م.
٢١ - ديوان أبى تمام .تحقيق محمد عبده عزام.طبعة دار المعارف .
٢٢ - ديوان الأعشى . طبعة بيروت .
٢٣ - ديوان امرىء القيس . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم. طبع : دار المعارف .
٢٤ - ديوان حسان بن ثابت . تحقيق : د / سيد حنفى . دار المعارف .
٢٥ - ديوان المتنبى شرح العكبرى.
٢٦ - الروضتين فى أخبار الدولتين . تأليف : الجزء الثانى .
٢٧ - سير أعلام النبلاء . تحقيق : د / بشار عواد معروف ، د / محى هلال السرحان . الجزء الثانى والعشرون طبع : مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى . عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
٢٨ - شذرات الذهب . الجزء الخامس ، طبع مصر عام ١٣٥١ هـ.
٢٩ - الصبغ البديعى د / أحمد إبراهيم موسى . طبع دار الكاتب العربى بالقاهرة عام ١٣٨٨ هـ .
٣٠ - الصناعتين . لأبى هلال العسكرى .

٣١ - ضحى الإسلام ، لأحمد أمين . الطبعة التاسعة .
٣٢ - طبقات فحول الشعراء . لابن سلام . الجزء الثانى .
٣٣ - العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده . لابن رشيق .
٣٤ - فوات الوفيات . تأليف : محمد بن شاكر الكبتى . تحقيق : د/ إحسان عباس : طبع : دار الثقافة ببيروت .
٣٥ - فى الأدب المقارن . تأليف : عبد الرازق حميدة . طبع عام ١٩٤٩ م . القاهرة .
٣٦ - فى النقد الأدبى . د / شوقى ضيف . طبع : دار المعارف.
٣٧ - الكامل فى التاريخ . تأليف عز الدين بن الأثير . الجزء : التاسع والعاشر .
٣٨ - لسان العرب . لابن منظور .
٣٩ - معجم البلدان . لياقوت الحموى . الجزء الأول والثامن .
٤٠ - مقدمة ابن خلدون .
٤١ - النجوم الزاهرة . لابن تغرى بردى . الجزء : الخامس والسادس طبع : دار الكتب المصرية . عام ١٩٤٩ م .
٤٢ - نقد الشعر. لقدامة بن جعفر . تحقيق / محمد عيسى منون. وطبعة أخرى : تحقيق : كمال مصطفى ، مكتبة الخانجى بالقاهرة .
٤٣ - النقد المنهجى عند العرب . د / محمد مندور . طبع : دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة .
٤٤ - وفيات الأعيان . لابن خلكان . الجزء : الخامس . تحقيق / د / إحسان عباس . دار صادر ببيروت .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٩٩١/٣٦٧٥
الترقيم الدولى: 977-00-1391-9

الفهرس

الفهرس

الموضوع	الصفحة
وصف الخمر	١٥٠ ـ ١٥٨
الفصل الرابع : أغراض شعرية أخرى	١٥٩ ـ ١٧٠
الباب الثالث : الخصائص الفنية لشعره	١٧١ ـ ٢٠٩
الفصل الأول : بناء القصيدة واللفظ والأسلوب	١٧٣ ـ ١٩٤
الفصل الثاني : المعاني والخيال والتصوير والأوزان والقوافي	١٩٥ ـ ٢٠٩
الخاتمة	٢١٠ ـ ٢١٣
مراجع البحث	٢١٤ ـ ٢١٦
الفهرس	٢١٧ ـ ٢١٨

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٩٩١/٣٦٧٥م

الترقيم الدولي 9 - 1391 - 97700